زاد الواعظ والخطيب

مرشد الدعاة إلى الله

دراسة وتطبيق

تأليف

أحمد بن محمد طاحون

الناشر

مكتبة الإيمان

السعودية ـ بريدة

يسرني أن أقدم جزيل الشكر وصادق التقدير لوزارة الإعلام بالمملكة العربية السعودية (إدارة المطبوعات بجدة) على عنايتها بمراجعة هذا الكتاب والإذن بطبعه بالخطاب رقم ٢٤٠ / ٢ / ج المؤرخ في ٩ / ٢ / ١٤٠٢ هـ

للمؤلف

* أخرج «كتاب الشكر» للإمام الحافظ أبي بكر عبد الله (ابن أبي الدنيا) من علماء القرن الثالث من الهجرة ، مع زيادات وتعليقات . ومقدمة عن المؤلف وعصره .
* مع القرآن الكريم .
* في فجر الإسلام « عرض قصصي » .
* يوم الفرقان .
* أذكار ودعوات مباركات – وردي في اليوم والليلة .
* رياض الفالحين ومنار السالكين .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[فصلت :٣٣]

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾

[النَّحْل: ١٢٥] .

تمهيد

الحمد لله ، نحمده . ونستعينه ونستهديه ؛ وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله ، معلم الإنسانية ومرشدها وهاديها إلى الحق وإلى صراط مستقيم ، والصلاة والسلام على أصحابه وأحبائه إلى يوم الدين ،

أما بعـــــد . . .

فإننى حين اشتغلت بالخطابة وأنا فى مرحلة الشباب كنت أعد الخطبة فى ذهنى ، وأرتب أفكارها فى عقلى ؛ وأحياناً يفتح الله بما يشاء وأنا على المنبر .

الإعــداد أفضــل وأكثر نفعاً :

ولما تقدمت السن ؛ وجدت أن الخير فى إعداد الخطبة ، وكتابتها . لأن لذلك فوائد كثيرة للخطيب وللسامعين : ومنها أن الخطيب ينمى القدرة على الكتابة ، ويجودها بالتدريج ، كما أن الكتابة تعين بصفة أكبر على تحديد الفكرة ، وترتيب المعانى ؛ وإيراد الأدلة والبراهين فى مواضعها ؛ وتصبح الاستعانة بالكتب القيمة أمراً لا محيد عنه .

وما يكتب يعم الانتفاع به خصوصاً حين ينشر فى مجلة أو صحيفة ويستمر حين يصدر فى كتاب ؛ إذ يصير النفع به عاما ، ويبقى جيلا بعد جيل .

والخطب التى يضمها هذا الكتاب مختارة من مجموع الخطب التى ألقيت فى مسجد الجمجوم بالبغدادية فى جدة ؛ فقد كنت خطيبه نحو سنتين أو تزيد منذ افتتاحه للصلاة فيه فى الجمعة الأخيرة من شعبان عام ١٣٩٥ من الهجرة وفى مسجد المغربى بالرويس فى جدة الذى اشتغلت بالخطابة فيه منذ عام ١٣٩٩ من الهجرة .

وفى هـذا الكتاب :

تجد بعض الخطب تامة (أى الخطبة بصدرها ، ومعها الخطبة الثانية) ، وبعضها تامة مع الاكتفاء بالخطبة الأولى ، وحذفت صدور بقية الخطب ، ليختار لها الخطيب أو المتحدث الصدر الذى يراه مناسباً :

أساس صالح لبحث طويــل :

وكل خطبة تصلح أن تكون أساساً لبحث يتمه القارئ لغرض : أن يكون محاضرة ،

أو بحثاً علمياً أو نحو ذلك . إذ إن كل خطبة محددة الفكرة . أما معانيها الجزئية فإنها تدور فى فلكها ؛ وترتبط بها ؛ وتزيدها وضوحاً وتأثيراً .

من طرق الانتفاع :

كما أن كل خطبة منها يمكن اختصارها أو الإضافة عليها ، أو دراستها ثم إلقاؤها ، حسبما يرى الخطيب أو المتحدث على ضوء تجربته وما يراه محققاً للإقناع والاستمالة معاً .

والكتاب يضم خمساً وخمسين خطبة جمعة منها خطبة واحدة لعيد الفطر ، وخطبتان مختارتان من خطب الشيخ محمود على أحمد خطيب مسجد الرفاعى بالقاهرة فى فترة من القرن الرابع عشر من الهجرة .

الفائــدة عامــة لكل قارئ :

والكتاب والحمد لله فائدته لكل قارئ . وطالب علم . وراغب فى الاستزادة من المعرفة ،لأن معانيه كلها مستقاة من نبع الوحى الإلهى الفياض بالنفع الدائم الذى تصلح به أمور الناس فى الدنيا . ويحقق للعاملين به الفوز والنجاة يوم الدين،فغاية الدين إصلاح النفوس ، واستقامتها على طريق الحق ، ومنهج الخير : فإذا صلحت النفوس ، وتهذبت بالدين الحق صلحت الحياة الدنيا ، وإن الدعوة إلى الله ، وبيان تعاليم الدين ومزاياه ، وحث الناس على البر والتقى،وعلى التحلى بالفضائل والتخلى عن الرذائل،سواء بالخطابة أو بالكتابة أمر واجب على الأمة ، إذ المؤمنون بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ؛ ويتعاونون على البر والتقوى ، ويتواصون بالحق بأن يدعو بعضهم بعضاً إليه ، ويذكروا أنفسهم به ، ويصبروا لذلك ويتواصوا بالصبر خصوصاً فى مجال النهى عن الشرور والآثام ، والأمر بالخير والبر والصلاح .

وإننى لأرجو الله أن يتقبل هذا العمل ، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم : وأن يتحقق من هذا الكتاب الثمرات المؤملة منه ، وأن يكون سبباً فى الهداية إلى الدين الحق ، وفى استقامة المعوج والإصلاح والصلاح .

وأترك الأخ القارئ يقلب صفحات الكتاب ، يقلب فيها الفكر والنظر راجياً من الله رحمته وعفوه ، وأن يجعل فيه ما ينفع المسلمين ، ويحقق الخير لهم .

إنه سميع مجيب الدعوات ، وصلى الله وسلم على النبى الهادى محمد وعلى آله وأصحابه ومن نهج نهجهم ، وسار فى طريقهم إلى يوم الدين .

القسم الأول

(أ) « ادع إلى سبيل ربك » .

الداعي إلى الله - طريقته فى الدعوة - صفاته :

- الدعوة باللين والرفق .
- دعاة عصرنا أولى بذلك .
- الحكمة والسداد .
- آية محكمة والعمل بها إلى يوم القيامة .
- السب لغة العاجز المنفر من الحق .
- توضيح الحق وبيان الباطل غير السب .
- الصفات والأمور التى لابد منها للداعى .

(ب) أول خطبة جمعة للنبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة المنورة .

(حـ) من صدور خطب النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

(د) نصيحة لأهل الدعوة .

قال الله عز وجل لموسى عليه السلام :

﴿ اذهَبَا إلى فرعونَ إنه طَغى * فَقُولا لَه قَولًا ليِّنًا لعلَّه يتذكَّرُ أو يَخْشَىٰ ﴾ (١) .

الدعـــوة باللين والرفـــق :

أمر عزَّ وجل رسولَه موسى ونبيَّه هارون عليهما السلام بأن يذهبا إلى ملك مصر ، يأمرانِه بالمعروف وينهيانِه عن المنكر بقولٍ حَسَنٍ . ودليلٍ ينيرُ للعقل طريقَه : وبإظهار محبةِ الخيرِ له بالدلالة على الطريقِ الذى تَزكو به النفسُ : ويكونُ سببًا فى السعادة الأُخروية ، وقد أرشد اللهُ عز وجل إلى ذلك بمثل قوله تعالى :

﴿ فَقُل هَل لَّكَ إلَىٰ أَنْ تزَكَّىٰ * وَأَهْدِيَكَ إلى رَبِّكَ فَتَخْشَى ﴾ (٢)

دعـــاة عصرنـا أولى بذلك :

وإذا كان الله عز وجل أمر رسولَه ونبيَّه بأن يكونَ المنهج فى الدعوة إلى الله القولَ اللينَ الذى لا خشونَة فيه فمن هم دون المرسلين والأَنبياء أَولى بأَن يَقْتدِيَ بذلك فى خطابه الناسَ ، وفى أَمْره بالمعروف فى كلامه ، كما قال تعالى : ﴿ وَقُولُوا للناسِ حُسْنًا ﴾ (٣) .

وفى هذه الآيةِ توجيهٌ للداعى إلى الله ، الراغِب فى الخيرِ للناسِ ، المحبٍّ لهم أن يُؤمنوا بالحقِّ الذى آمنَ به، وأن يستعِلُّوا بالعملِ الصالح لتخليصِ مُهَجِهِم من عذابِ جهنَّمَ ، فالآيةُ تحضُّ على مكارم الأَخلاقِ ، وفيها توجيهٌ للداعيةِ أَن يكونَ قوله للناسِ لينًا ، ووجهُه منبسطًا ،

---

(١) طه : ٤٣ ، ٤٤. (٢) النازعات : ١٨ ، ١٩ .

(٣) البقــرة : ٨٣ .

طَلِقًا . مع البَرِّ والفاجرِ والسنِّى والمبتدع . من غيرِ مُداهنة بمعنى أنه لا يُقِرُّ الباطل ؛ بل يُنكره : ولا يتكلمْ مع صاحبِ الباطلِ بكلام يظنُّ أنه يَرْضَى مذهَبه ، والداعى إلى الله من غير الأَنبياء والمرسلين لن يكونَ بأَفضلَ من موسى وهارون : والفاجرُ فى كلِّ زمان ليس بأَخبثَ من فرعون موسى ، ومع ذلك أَمرهما الله تعالى باللِّين معه ومن اللين بيانُ الحقِّ بالدليل . وبيانُ الباطلِ وتوضيحُه بالدليل ؛ وإظهارُ العطف على الناس والرغبة فى أن يسلكوا طريقَ النَّجاة ؛ وأَن يشعرَ الناسُ أنه يُحِبُّ الخيرَ لهم ، وأنه لا خيرَ إلا فى البعد عن الباطل وفى اتباع الحق .

الحكمة والسداد :

وفى توجيه الدعاة إلى الأُسلوب الذى ينبغى لهم أن يَتَّبِعوه .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُ إلى سبيلِ رَبِّكَ بالحكمَةِ والموعظة الحَسَنةِ وجادِلْهم بالتى هى أَحسنُ إنَّ ربَّكَ هو أَعلمُ بِمَن ضَلَّ عن سبيلِه وهو أَعلمُ بالمهتدين ﴾(١) .

آية محكمة والعمل بها إلى يوم القيامة :

يقول القرطبى : هذه الآية نزلت بمكة فى وقت الأَمرِ بمهادنةِ قريش ، وأَمره أَن يدعوَ إلى دين الله وشرعِه بتلطُّفٍ ولينٍ دون مُخاشنة وتعنيف ، وهكذا ينبغى أَن يُوعَظَ المسلمون إلى يوم القيامةِ فهى مُحكمةٌ فى جهةِ العصاة من الموحدين » . .

فالخطيب الذى يوضح للناس الحرامَ والحلالَ ، ويبينُ لهم مالطاعةِ اللهِ من أثرفى الحياة وبعد الموت ، وما للمعصيةِ من عواقبَ فى

---

(١) النحل : ١٢٥

الدنيا وفى الآخرة . سالكًا فى الدعوة سبيلَ الصوابِ والصبرِ مع ترتيبِ الأفكار ، وتقديمِ الدليلِ من الكتابِ والسنةِ . مخاطِبًا العقلَ والعاطفةَ معاً . إن الخطيبَ أو الواعظَ الذى يفعلُ ذلك يكونُ لكلامه أثرٌ طيبٌ فى النفوس ؛ وتجتمعُ القلوبُ حوله ؛ ولا تنْفرُ منه ؛ والحكمةُ تقتضى التلطفَ فى توجيه النصح ، وتفهُّمَ نفسياتِ المستمعين ، واختيار الأُسلوبِ المناسبِ لهم ؛ ومراعاةَ أحوال زمانِه ؛ فهذا كلُّهُ يُعين على اختيارِ الموعظَةِ الحسنةِ التى تنفذُ إلى نفوسهم ، وتحركُ عواطِفَهم وتشدُّهم إلى المتكلم ؛ وتدفعُهم إلى الثقَةِ به ؛ خصوصًا إذا كان حَسَنَ السيرَةِ بينهم ، ومعروفًا بالاستقامة والخُلقِ الطيب ، والبعدِ عن الحرام .

السب لغة العاجز المنفر من الحــق :

وإنه لمن المفيد أن يتدبَّرَ الْواعظُ والمعلمُ والخطيبُ قولَ الحق تبارك وتعالى :

﴿وَلَا تَسُبُّوا الذِينَ يدْعُون من دونِ اللهِ فَيَسبُّوا اللهَ عَدْوًا بغيرِ علمٍ ، كذلِكَ زَيَّنَّا لكلِّ أُمةٍ عَمَلَهُم ثم إلى ربِّهِم مرجِعُهم فينبئُهم بما كانُوا يعملون ﴾ (١) .

نهى سبحانه المؤمنين أن يسبوا أَصنامَ الوثنيين ، وفى هذا إرشادٌ وتعليمٌ لنا إذ سَبُّ الباطِل واللجوءُ إلى الخشونة فى دعوةِ أَصحابِه إلى الحقِّ ينفرُ أَهلَه ، ويزيدُهم - فى كثيرٍ من الأَحيان - انطواءً على الكفر والضلالِ ، ولذا قال العلماء - كما جاءَ فى تفسير القرطبى :

حكمُها باقٍ فى هذه الأُمة على كلِّ حال ، فمتى كان الكافرُ فى مَنَعة ، وخِيفَ أن يسبَّ الإسلامَ أو يسبَّ النبيَّ محمدًا ﷺ أو اللهَ عز وجل ،

---

(١) الأنعام : ١٠٨

فلا يحلّ لمسلمٍ أن يسبَّ صُلبانَهُم ، ولا دِينَهم ولا كنائِسَهم ولا يتعرض إلى ما يؤدِّى إلى ذلك ؛ لأنه بمنزلة البعثِ على المعصية – أى إن الأُسلوبَ الذى يُنفِّر صاحبَ الباطِل ويزيدُه تمسكًا بباطِلِه يماثلُ كما لو دعوتَه إلى الباطل : وَبَعَثْتَهُ عليه ، أى حضضته عليه وذلك لأن الثمرَة واحدة .

توضيح الحق وبيان الباطل غير السب :

إن من واجب الواعظِ أن يبينَ للناس جميعًا مؤمِنهم وكافرِهم ، صالِحهم وطالِحهم ، أن يبينَ لهم حقيقةَ التوحيدِ توحيدِ الأُلوهية ، وتوحيدِ الربوبية ، وأن يشرحَ لهم ما للهِ من حقوقٍ على العباد وأن يقدّمَ الأَدلَّةَ على بطلانِ الشركِ بجميعِ صنوفِه وضروبِه ، وأن يقيمَ الدليلَ من آياتِ اللهِ فى كتابه وعلى لسانِ رسولِه ؛ ومن آياتِ اللهِ فى النفسِ البشرية ، وفى الكونِ المحيطِ بالإنسانِ أن يقيمَ الدليلَ على قدرةِ اللهِ ووجودِهِ ووحدانيتِهِ وسلطانِه المطلقِ ، يفعلُ ذلك الواعظُ والداعيةُ والخطيبُ والمتحدثُ على أَساسٍ علمىٍّ منظمٍ مقتديًا فى ذلك بالنبىِّ الهادى محمدٍ ﷺ ، وبالسلفِ الصالح إذ إنهم – والحمدُ لله – بيَّنوا للناس أُصولَ الدينِ وفروعَه إذ بينوا ما حَرَّم اللهُ على عباده من الأَفعال والأَقوالِ والمعتقداتِ ، كما بينوا المباحَ والمشروعَ عملُه ، وفَصَّلوا الحلالَ من الأَعمال والأَقوالِ ، وبينوا الفضائلَ الطيبةَ والأَخلاقَ الكريمَة التى يجبُ أَن يتحلَّى بها المؤمنون ، إلى جانب ما بينوه من مذامِّ الأَخلاق والرذائل ليكفَّ عن فعلها العقلاءُ .

بين السلفُ الصالحُ ، كما بين صلحاءُ الأُمةِ فى كلِّ وقتٍ للناس شريعةَ اللهِ ، ولم نقرأْ أَو نسمع أَن واحدًا منهم سبَّ دينًا من الأَديان ،

ذلك أن بيانَ الفاسدِ بالحجةِ ، وتوضيحَ الباطلِ بالبرهان وتقديم الحقُّ للناسِ بالدليلِ أمرٌ يختلفُ عن السبُّ والشتم .

الصفات والأمور التي لابد منها للداعي :

وهذه بعضُ الأمورِ والصفاتِ التي هي ألزمُ للداعي لكي يُؤتِيَ عملُه ثِمَارَهُ ، ويتوقفُ عليها نجاحُه ولابدَّ له من تحقيقها : وأن يسعى إلى ذلك وأن يبذلَ الجهدَ دومًا لتكميلِ نفسِه بها ما استطاع :

١ - قالوا في الحكمة :«مَنْ سَلَكَ طريقًا بغيرِ دليل ضَلَّ ، ومن تمسَّك بغيرِ أصل زَلّ » .

ودليلُ الداعية إلى الله . ومرشدِ الناسِ إلى الحقِّ . هو « كتابُ اللهِ عز وجل وسنةُ نبيِّه الأَمينِ ﷺ » لذا وجب على الداعي أن يحفظَ من القرآن ما استطاع ويُحْسِنَ تلاوتَهُ . وأن يواظبَ على قراءةِ القرآنِ : مع تدبُّرِ معانيه ، والسعْي لمعرفة أحكامِه ، والإلمامِ بمعرفةِ معاني الألفاظ التي تكون غريبة عليه (١) .

وعلى الداعي أن يرجِعَ إلى السنة الصحيحة دَوْماً . ويطيلَ النظرَ فيها لأنها مفسِّرةٌ للقرآن الكريم ومبينةٌ لأَحكامِه ومفصلةٌ لمُجْملاتِه (٢) .

---

(١) لذا ننصح بأن يكون لدى الداعي والخطيب وطالب العلم تفسير ابن كثير ، وتفسير القرطبي ، إلى جانب التفاسير الموجزة مثل « الجلالين » والمصحف المفسر « لفريد وجدي » كما ينبغي أن يكون في حوزته كتب في تفسير آيات الأحكام مثل كتاب « أحكام القرآن » لأبي محمد المعروف بابن العربي وغيرها من الكتب النافعة في بابها .

(٢) ومن الكتب النافعة والمعينة لطالب العلم والباحث كتاب « جامع الأصول في أحاديث الرسول – لابن الأثير الجزري » ، ومختصره « تيسير الوصول إلى جامع الأصول – لابن الديبع الشيباني » ، وكذلك « رياض الصالحين » أو أحد شروحه – للنووي . و « الترغيب والترهيب » للمنذري ، و« التاج الجامع للأصول » . الشيخ منصور على ناصف

فهذه الكتب جامعة لما جاء في الصحاح وكتب السنة إلى جانب تبويبها الميسر للباحث عن جانب بعينه ، وهناك كتب الصحاح وكتب السنة ومختصراتها .

وعليه أن يدرسَ بقدرٍ كافٍ سيرةَ رسولِ الله ﷺ وسيرَ الخلفاء الراشدين وسيرَ السلفِ الصالحِ ما استطاع .

ولا غِنى لطالبِ العلم ، وللداعى والخطيبِ : والمتحدثِ والواعظِ عن معرفة قدرٍ كافٍ من الأحكام المتصلةِ بالعباداتِ والمعاملاتِ وأسرارِ التشريع ، ولا شكَّ أن الاتصال بكتبِ التفسيرِ والحديثِ أساسٌ فى ذلك - ولكن الرجوعَ إلى كتبِ الفقهِ وحضورِ مجالسِ العلم وسؤالِ أهلِ العلم من الأمور التى لا يغفلُ عنها الحريصُ على معرفةِ أمور دينهِ ، خصوصًا لمن يشتغلون بالتبليغ . وقد جاءَ فى الحديثِ قول النبى ﷺ : « مَنْ سُئِلَ فأفتى بغيرِ عِلْمٍ فقد ضَلَّ وأَضَلَّ » .

وأخرج البخارى عن ابن مسعود رضى الله عنه :

« مَنْ عَلِمَ شيئًا فليقُلْ بِهِ وَمَنْ لَمْ يَعْلَمْ فليقُلْ اللهُ أَعْلَم » فلا ينبغى لطالبِ العلمِ أن يعطِىَ الناسَ شيئًا هو يفقدُه . ذلك أن من أفتى بما لا يعلمهُ هَلَك .

٢ - ما تَعِظُ به الناسَ احْرِصْ على تحقيقهِ فى نفسِك وفى بيتك ، فالإسلامُ عِلْمٌ وَعَمَلٌ ، والداعى إلى الله لا ينبغى له أن يكونَ فعلُه مكذِّبًا لقوله : « وفَاقِدُ النورِ لا يستنيرُ به غيرُه » .

إن الدعوة إلى صالح الأعمال : ومكارمِ الأخلاق تربيةٌ . والتربيةُ النافعةُ إنما تكونُ بالعمل لأنها مبنيةٌ على القدوة الصالحة لا بمجرد الأقوال .

وقد وبخ اللهُ أحبارَ يهود على مخالفةِ أفعالِهم أقوالَهم فقال سبحانه : ﴿أتأمُرونَ النَّاسَ بالبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُم تَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُون ﴾(١) .

(١) البقــرة : ٤٤ .

فالداعى إلى الله المخلصُ لدينه ، المؤمنُ بالحقِّ . يرشدُ نفسه إلى الخير ، ويأخُذها به ، ويحذِّرُها من الشر ، ويجتنبُه ، وكلما وجدَ قدَمَهُ ثبتت فى جانبٍ دعا الناس إليه : فَمَنْ واظَبَ على أداءِ الصلواتِ الخمسِ فى أوقاتها ، وحرص على الجماعاتِ ، فإن دعوته إلى ذلك تؤتى ثمارَها بإذنِ الله تعالى، وهكذا فى كلِّ الأمور يراقبُ الداعى نفسَه ، ويحاسبُها . ويجتهدُ فى أداءِ المأمورات واجتناب المنهيات .

ولنتدبر العبرة فى دعاءِ إبراهيم الخليل عليه السلام : ﴿ رَبِّ اجْعَلْنِى مُقِيمَ الصلاةِ وَمِنْ ذرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعاءِ ﴾ (١).

ولنتدبَّرْ ثناءَ اللهِ على نبيه إسماعيلَ عليه السلامُ فى قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِى الكِتَابِ إسماعيلَ إنَّه كانَ صادِقَ الوَعْدِ وكانَ رَسُولًا نبيًّا ، وكانَ يأمُر أهْلَهُ بالصَّلاةِ والزكاة وكان عندَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ (٢) .

وقد ذَمَّ اللهُ عز وجلّ من يدعو إلى الخير ولا يعملُ به ولنتدبَّر : ﴿ يَأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُون ، كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُون ﴾ (٣) .

٣ - والداعى إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة إذ يُحْسِنُ اختيارَ ألفاظِه ، وانتقاءَ عباراتِه فينبغى له أن يكونَ متصفًا بالحلم ، وسعةِ الصدرِ ، واحتمالِ هفواتِ الناسِ ، والصبرِ على أسئاتِهم ، وقد أثنى الله على نبيِّه محمد ﷺ لحلمِه فى الدعوةِ وصبرِه على جفاءِ الناس فقال تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غلِيظَ القلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ (٤)

---

(١) إبراهيم : ٤٠ .
(٢) مريم : ٥٤ و ٥٥ .
(٣) الصف : ٢ و ٣ .
(٤) آل عمران : ١٥٩ .

٤ - قال عبادةُ بنُ الصامتِ رضى الله عنه : « بايعنا رسولَ اللهِ ﷺ على أن نقولَ بالحقِّ أينما كُنَّا لا نخافُ فى اللهِ لومةَ لائمٍ » .

فالداعى إلى الله مثلُ الطبيبِ الذى يراعى حالةَ المريض ، فيبينُ له ، وينصحُه ، ويصفُ له الدواءَ المناسبَ ؛ والداعى لا يخشى الناسَ فى الحقِّ ؛ بل ينبغى له أن يوضِّحَ ؛ ويبينَ ؛ ويبلِّغَ ليعرفَ الناسُ الشرورَ ويجتنبوها . والخيرَ وَيَلْزَموه ؛ وإذا فشا أمرٌ مِمَّا لا يُرضِي اللهَ فإن الداعيةَ عليه أن يرشدَ ، وأن يوجِّهَ ؛ ويبينَ ، ويختارَ من العظاتِ ما يكونُ أكثرَ نفاذًا إلى القلوب ، وأكثر إقناعًا لأصحابِ العقول ، ولا يمالِئَ أصحابَ البِدَع ، ولا يُظْهِرَ الموافقَة على ضَلال ؛ وعلى الدعى أن يحرِصَ دومًا على أن تكونَ حجتُه خاليةً من السبِّ والشتم وأنواع الغلظة ؛ لأنه من الخير أن يظلَّ الناسُ متعلِّقين به . وأن يستمعوا إليه ،ولا يتحقَّقُ ذلك إلا بالرفق ،وحسنِ القولِ ، ووضوحِ الدليلِ والبراهين ، وشعورِ الناسِ أن ما يدعوهم إليه إنما هو فى صالحِهم دينًا ودنْيا .

ولنتدبر قولَ اللهِ عزَّ وجل لنبِّيه ﷺ :

﴿ وَقُلْ لِعِبَادِيَ يَقُولُوا التِي هى أَحسَنُ ﴾ (١)

أى يقولوا عند محاورتهم أهلَ الضلال الكلمةَ التى هى أحسنُ ، ولا يخاشِنُوهم ، كقوله تعالى :

﴿ وَلا تُجَادِلُوا أَهْلَ الكتابِ إِلَّا بالتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (٢) .

٥ - الداعى إلى الله ينبغى له أن يخصِّصَ جانبًا من يومه وليلتِه للقراءة فى الكتبِ النافعـةِ ، وأن يطلعَ على أساليبِ مَنْ سبقُوه إلى الميـدان ؛

(١) الإسراء : ٥٣ .
(٢) العنكبوت : ٤٦

إما بالسماعِ منهم إذا عاصرهم. وإما بالاطلاع على ما تركوه مكتوبا. ولا بأس أن يبدأ فى أول الأمر مقلدًا . ولكنه بالمدوامة . والمران . والصبرِ على مشاقّ الطريقِ تصبح له شخصيةٌ تمتاز بطريقتها فى خطابِ الناسِ ، وتنظيمِ الأفكار ، واختيارِ الألفاظِ وترتيب العباراتِ حتى يستطيعَ أن يُظْهِرَ المقصودَ . ويُعَبِّر عما فى نفسه بأبلغِ لفظٍ ؛ وتثبتَ قَدَمُه فى الميدان . بعد الصبرِ . والمداومةِ على القراءةِ . والإفادة من خبراتِ مَنْ سبقوه ، وحفظِ النصوصِ العاليةِ من كتابِ اللهِ وسنةِ رسولهِ ﷺ ومن كلامِ الحكماءِ وأهلِ البلاغةِ والفصاحة .

٦ — مما يعين على النجاح فى مجال الدعوةِ معرفةُ حالِ من تُوجّهُ إليهم الدعوةُ من حيث نفسياتُهم وأخلاقُهم ، وعوائدُهم . وكلُّ الأمور المعنيةِ على أن يتفهَّمَ المتكلم نفسياتِهم : فيخاطبَهم بما يحققُ الغرض ، ويصلُ به إلى المطلوب من أيسر طريق .

٧ — والإخلاصُ أساسٌ لنجاح الداعى ، الإخلاص للحقِّ ، الإخلاص للدين . الإخلاصُ لمن يدعوهم ويعظُهم ويعلِّمُهم ، فالعملُ بلا إخلاصٍ كجسمٍ لا روحَ فيه ، أما ما كان من القلب فإنه ينفذ إلى القلوب بإذن الله تعالى . ومع الإخلاص ينبغى أن تكون للداعى الصفاتُ الآتية أيضاً :

— التواضع . والشعورُ بالتقصير وعدمُ العُجْبِ ؛ فالعُجْبُ يأْكلُ الحسناتِ فِعْلَ النارِ فى الحطَب ، وإذا شعرَ بهِ الناسُ نفروا من الداعى .

— أَلَّا يبخلَ بتعليم ما يُحسنه ؛ فكاتمُ العلمِ هالكٌ والعياذُ بالله،

والرسولُ ﷺ يقول : « مَنْ عَلِمَ عِلْمًا فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ من النَّار » . وفى تعليمه ما أحسنه تثبيتٌ له فى صدره وزيادةٌ فى وضوحه فى نفسه .

– الوقارُ والرزانة وألا يخوضَ مع الناس فى أحوالِ الدُّنيا وفضولِ الكلامِ ولغوِه .

– أن يظهرَ أمام الناسِ فى نظيفِ الثياب ؛ وحُسْنِ الهندام .

– ألَّا يخالطَ أهلَ السفاهةِ والطيش .

– أن يتحرزَ من الحرام ، ويبتعدَ عن الشبهات .

– والدَّاعى إلى الله من أعظمِ لوازمه تقوى الله عز وجل والخشيةُ منه فى السر والعلن ، وأن يكونَ ظاهرُهُ وباطنُهُ سواءً فى الصفاءِ والإخلاصِ والخوفِ من الله .

– والصبرُ من الصفات التى تلازمُه فى حياتِهِ كلِّها الخاصةِ والعامة . والله عز وجل يقول لنبيه ﷺ : ﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولو العَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ ... ﴾(١) .

٨ – وعلى الداعى أن يلزمَ طريقَ أهلِ السُنَّةِ والجماعةِ وأن يكونَ إمامُه فى كُلِّ أُمورِه كتابَ اللهِ وسنَّةَ نبيه ﷺ .

والله الهادى إلى سواء السبيل .

(١) الأحقاف : ٣٥

أول خطبة جمعة للنبي محمد ﷺ بالمدينة المنورة

خطب النبي ﷺ فقال :

« الحمد للهِ أحمده : وأستعينُه : وأستغفره . وأستهديه وأومن به ، ولا أكفره . وأعادى مَنْ يكفر به . وأشهد أنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا الله وحدَه لا شريك له . وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه أَرسَلَهُ بالهُدى(١) ودينِ الحق والنورِ والموعظة والحكمةِ على فترةٍ من الرسل . وقلةٍ من العلم : وضلالةٍ من الناس : وانقطاعٍ من الزمان ، ودنوٍّ من الساعة : وقُربٍ من الأَجل .

مَنْ يُطع اللهَ ورسولَه فقد رَشَد : ومَنْ يعصِ اللهَ ورسولَه فقد غَوى . وَفَرَّطَ : وضَلَّ ضلالًا بعيداً .

وأُوصيكم بتقْوَىٰ اللهِ ، فإنه خيرُ ما أَوْصَىٰ بِهِ المسلمُ المسلمَ أن يحضَّه على الآخرةِ ، وأن يأْمُرَهُ بتقوىٰ اللهِ ، واحذَروا ما حذَّركم اللهُ من

(*) هذه أول خطبه خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المدينة فى أول جمعة جمعها بأصحابه ; وكان ذلك حين قدم صلى الله عليه وسلم مهاجراً حتى نزل بقباء على بنى عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول ، فأقام صلى الله عليه وسلم بقباء إلى يوم الخميس ، وأسس مسجدهم ثم خرج يوم الجمعة إلى المدينة ، فأدركته الجمعة فى بنى سالم بن عوف فى بطن واد لهم قد اتخذ القوم فى ذلك الموضع مسجداً ; فجمع بهم وخطب خطبته السابقة ، صلى الله عليه وسلم .

— راجع تفسير القرطبى — الجامع لأحكام القرآن — تفسير الآية (٩) من سورة الجمعة .

(١) بالهدى : أي بالرشاد والدلالة باللطف إلى ما يوصل إلى المطلوب .

نفسِه ، فإنَّ تَقوى اللهِ لِمَنْ عَمِل به(١) على وجلٍ ومخافةٍ من ربه عونٌ(٢) صِدْقٍ على ما تبغون من أمر الآخرة .

* * *

وَمَنْ يُصْلِح الذى بينَهُ وبينَ ربِّه مِنْ أمرِه فى السرِّ والعلانيةِ لا ينوى إلَّا وجهَ اللهِ يكنْ له ذِكراً فى عاجل أمرِه . وذُخراً فيما بعد الموتِ حين يَفْتَقِرُ المرءُ إلى ما قَدَّمَ ، وما كانَ مِمَّا سوى ذلك(٣) يَوَدُّ لو أَنَّ بينه وبينَه أمداً بعيداً : ﴿ وَيُحَذِّرُكُم اللهُ نَفْسَهُ واللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾(٤) . هو الذى صدقَ قَوْلَهُ ، وأنْجزَ وعدَهُ . لا خُلفَ لذلك ، فإنه يقـــول :

﴿ مَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَىَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد ﴾(٥). فاتَّقوا اللهَ فى عاجلِ أمرِكم وآجلِه ، فى السرِّ والعَلانيةِ . فإنه يقول : ﴿ مَنْ يَتَّقِ اللهَ يُكَفِّرْ عنه سَيِّئاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْراً ﴾(٦) . ﴿ ومَنْ يَتَّقِ اللهَ فقد فَازَ فَوزاً عَظِيماً ﴾ . وإنَّ تَقْوَىٰ اللهِ تُوقِّى مَقتَهُ ، وتُوقى عقوبَته ، وتوقى سَخَطهُ .

وإنَّ تَقوى اللهِ تُبَيِّضُ الوجوهَ ، وتُرْضى الربّ ، وترفع الدرجةَ ، فَخُذوا بحظِّكم ، ولا تُفَرِّطُوا فى جَنْبِ اللهِ ، فقد عَلَّمكم كتابَهُ ، ونَهَج لكم سَبيلَه ، ليعلمَ الذينَ صَدَقوا ، ويعلمَ الكاذبين .

فأَحْسِنوا كما أَحْسَنَ اللهُ إليكم ، وعادوا أعداءَهُ ، وجاهِدُوا فى اللهِ

---

(١) لمن عمل به : أى لمن استجاب للأمر بالتقوى وعمل بمقتضاه .
(٢) عون صدق : خبر إن ، واسمها « تقوى » .
(٣) أى وما يجده العبد يوم القيامة من عمله غير الصالح .
(٤) آل عمران : ٣٠ .
(٥) ق : ٢٩ .
(٦) الطلاق : ٥ .

حَقَّ جِهادِه . هو اجْتَباكُمْ . وسَمَّاكم المسلمين . لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنة ، ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنة ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله .

فأَكثِرُوا ذِكْرَ اللهِ تعالى ، واعملُوا لما بعدَ الموتِ ، فإنه من يُصلِح ما بينه وبينَ اللهِ يَكْفِه اللهُ ما بينه وبينَ الناس ، ذلك بأَن الله يَقْضى على الناسِ ولا يقضُونَ عليه ، ويَمْلك من الناس ولا يَملِكون منه .

اللهُ أَكبر ، ولا حولَ ولا قوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم » .

من صدور خطب النبى ﷺ

فى مراسيل أَبى داود عن الزهرى قال : كانَ صدر خطبة النبي ﷺ : الحمد للهِ ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُه وَنَسْتَغْفِرُه ، ونعوذُ بِهِ من شُرورِ أنفسِنا – ومن سَيِّئاتِ أعمالنا – مَن يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضلِلْ فَلَا هَادِىَ لَه ، ونَشْهَد أن لا إلٰهَ إلَّا الله ، وأَنَّ محمداً عبده ورسولُه ، أَرْسَلَه بالحَقِّ بَشِيراً وَنَذِيراً بين يَدَى الساعةِ . مَنْ يُطِع اللهَ وَرَسولَه فَقَد رَشَدَ ؛ ومَن يَعْصِهِما فقد غَوَىٰ . نسأَل اللهَ رَبَّنا أن يجعلَنا مِمَّن يطِيعُه وَيُطِيعُ رسولَه . ويَتَّبعُ رِضْوانَه وَيَجْتَنِبُ سخَطَهُ ، فإنَّما نحنُ بِه ولَهُ » .

* * *

وفى خطبة الحاجة * :

الحمدُ لله ، نحمدُه ، ونستعينُه ، ونستغفرُه ، ونعوذ بالله من شرورِ أنفسنا ، ومن سَيئات أَعمالنا ، من يَهْدِه اللهُ فلا مُضِلَّ له ، وَمَن يُضْلِل فلا هادِىَ له ، وأَشهدُ أَن لا إلٰهَ إلَّا الله وحده لا شريك له ، وأَشهد أَن محمداً عبده ورسوله ﷺ تسليما كثيراً .

* هذه الخطبة تعرف بخطبة الحاجة ، وكان الصحابة يقولونها فى صدر كلامهم وخطبهم – كما علمهم النبى صلى الله عليه وسلم – يستعينون بها على قضاء حاجتهم ، وتستحب فى بداية دروس العلم والمواعظ والخطب وفعل الشهادتين فيها جاء بصيغة الإفراد : « أشهد » بخلاف الأفعال التى قبلها فهى بصيغة الجمع – كما قال بعض المحققين – لذا أثبت الفعل هنا « أشهد ، وهو فى النص المنقول منه « نشهد » – راجع مقدمة كتاب ابن تيمية فى الصوم .

نصيحة لأهل الدعوة

العلم والعمل :

فى الموطإ عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال لإنسان : « إنك فى زمانٍ كثيرٍ فقهاؤه ، قليلٍ قُرَّاؤه ، تُحفَظُ فيهِ حدودُ القرآن ، وتُضَيَّع حروفُه ، قليلٍ مَنْ يَسْأَلُ ، كثيرٍ من يُعْطى . يُطيلون فيه الصلاةَ ويَقْصرُون الخُطْبَة ، يُبَدُّون فيهِ أعمالَهم قبلَ أهوائِهم .

وسيأتى على الناس زمانٌ قليلٌ فقهاؤُه ، كثيرٌ قُرَّاؤُه ، تُحْفَظُ فيهِ حروفُ القرآنِ ، وتُضَيَّعُ حدُودُه ، كثيرٌ من يَسأَل ، قليلٌ من يُعطِى ، يُطِيلونَ فيهِ الخطبةَ ، ويَقْصرُون الصلاة يُبَدُّون فيه أهواءَهم قبل أعمالِهم » أى يتبعون أهواءَهم ، ويَتْرُكُون العملَ بالذى افتُرِضَ عليهم .

* * *

فى الحث على العمل :

عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن من شرِّ الناسِ رجلًا فاسقاً يَقْرَأُ القرآن لا يَرْعَوِى إلى شىءٍ منه » .

أى أن المقصودَ هو العملُ بمقتضى الكتابِ لا مجرد التلاوةِ باللسان والترتيل .

* * *

الإخلاص يا أهل الدعوة :

روى الترمذى عن أبى الدرداءِ قال : قال رسولُ اللهِ ﷺ : « أنزلَ الله فى بعض الكتب ، أَوْ أوحى إلى بعضِ الأنبياء : قلْ للذين يتفقَّهون فى الدِّين لغير الدين ، ويتعلَّمون لغيرِ العمل ، ويطلبون

الدُّنيا بعملِ الآخرة يَلْبَسُونَ للناسِ مُسُوكَ(١) الكِباش وقلوبُهم كقلوبِ الذئاب : ألسنتُهم أحلى من العسل . وقلوبُهم أمرُّ من الصبر : إيَّايَ يُخَادِعون وبي يستهزئون لأُتِيحَنَّ لهم فتنةً تَذَرُ الحليمَ فيهم حيران » .

فيجب على حامل القرآنِ وطالبِ العلم الداعى إلى الله أن يَتَّقِيَ اللهَ فى نفسِهِ ، ويُخلصَ العملَ لله ، فإن كان تقدَّم له شيءٌ ممَّا يكرهُ فليبادرْ إلى التوبَةِ والإنابةِ ، وليبتدئْ الإخلاصَ فى التوبة وفى عمله ، فإن الذى يَلْزَمُ الداعى إلى الله من التحفُّظ أكثرُ مِمَّا يلزمُ غيرَه ، كما أنَّ له من الأَجرِ ما ليس لغيره : فهو داعٍ إلى اللهِ بالقولِ والعملِ والمسلكِ :

(١) المسوك مفرده المسك – بفتح الميم وسكون السين – وهو الجلد والقطعة منه : مسكة قال : هم فى مسوك الثعالب . والمسح – بكسر الميم وسكون السين : الكساء من الشعر ، وثوب الراهب « موله » والجمع أمساح ومسوح .

القسم الثاني

١ — الدين وأثره فى تزكية النفس .

٢ — وصية نبوية (أكثر ما يدخل الناس الجنة)

للخطبة الثانية

٣ — النفس المطمئنة واللوامة والأمارة .

٤ — البعث حق والجزاء حق .

« من عظات النبى صلى الله عليه وسلم » للخطبة الثانية

٥ — وفى أنفسكم أفلا تبصرون .

« عظة بليغة للخطبة الثانية »

٦ — لا يعلم الغيب إلا الله .

٧ — الإسلام هو صراط الله المستقيم

للخطبة الثانية

٨ — آية الكرسى تضمنت التوحيد النقى الخالص .

٩ — احفظوا أيمانكم ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون

١٠— من أولياء الله ؟

١١— منزلة السنة النبوية من القرآن الكريم .

للخطبة الثانية

١٢— الحياء لا يأتى إلا بخير .

الدين وأثره في تزكية النفس

الحمدُ للهِ شَرع الدينَ هدايةً للمؤمنين . ووفَّق مَنْ شاءَ للتمسُّكِ بهِ والتحلِّي بآدابِه فضلًا من الله ونعمةً . واللهُ عليم حكيم .

وأشهدُ أن لَا إلٰهَ إلَّا اللهُ كَتَبَ رحمَتَهُ للمتَّقِين ، وأنعمَ علينا بنعمةِ الإسلامِ ؛ وأرسلَ نبيَّه محمداً هُدًى ورحمةً ؛ وأشهدُ أن محمداً عبدُه ورسولُه بعثه ربُّه بدينِ الحقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه ، ولينقذَ به البشرَ من الضلالة والفوضى ، ويهديَهم إلى الخير ، والبرِّ وكلِّ ما يحققُ لهم السعادةَ في الدنيا والفوزَ في الآخرة .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على نبيِّ الهدى والرحمةِ وعلى آله وأصحابِهِ والعاملين بشريعتِه إلى يومِ الدين .

أما بعد : فقد قال الله تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾(١)

أيها المؤمنون :

الإسلامُ أعظمُ نعَم الله على عباده ، تضمَّنت تعاليمُه كل ما فيه صلاحُ النفس ، ونورُ العقلِ ، وسعادةُ الفرد ، وخيرُ الجماعة.

أمرنا الإسلامُ بتوحيد الله تعالى ، وإخلاص العبادة والخضوع له سبحانه ؛ واعتقاد أنه عزَّ وجل إلٰهٌ واحدٌ قادرٌ مريدٌ عليمٌ حكيمٌ سميعٌ بصيرٌ ؛ مُتَّصفٌ بكلِّ كمالٍ ، مُنَزَّهٌ عن كلِّ نَقْصٍ . . أَبْدَعَ الكائنات بقدرته ؛ ودَبَّرها بحكمته وعِلْمه . . فهو وحدَه الذى يُحْيِي وَيُميت ،

---

(١) البينـة : ٥ .

وهو سبحانه الَّذى يُعطى ويَمْنَعُ . وبيده الضُّرُّ والنفعُ . ﴿ ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فاعْبُدُوه ....﴾ (١) .

طَهَّرَ الإسلامُ النفسَ ، وجاء بعقيدة التوحيد النقيةِ الصافيةِ ، وحاربَ الأَباطيلَ والأَوهامَ حتى لا تنحطَّ النفوسُ إلى عبادةِ جمادٍ أو إنسانٍ أو حيوانٍ ، وحتى لا تخضعَ القلوبُ إلَّا لِمَنْ له المُلْكُ وحدَه ؛ وله الأَمرُ وحدَه ، وله غايةُ العظمةِ ونهايةُ الإنعامِ :

﴿ اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا ، وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ، وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ، ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٢) .

جاء الإسلامُ بعقيدةِ التَّوحيدِ الخالصِ ، لِيُخْرِجَ النفوسَ مِنْ ظُلْمَةِ الضَّلَالَةِ والجهلِ ، ويرفعَها مِن وَهْدَةِ الشِّرْكِ ، ويُطهرَها من دَنَس الفسَادِ والأَوهامِ ، وفَرَضَ على الناسِ عباداتٍ كلُّها ذو أَثرٍ حَسَنٍ فى إصلاحِ القلوبِ ، وتهذيبِ النفوسِ ، فَرَضَ الصلاةَ خمسًا فى اليوم والليلةِ ؛ وجعلَ مِفْتاحَها طهارةَ البدنِ، والثوبِ ، والمكانِ، فيقفُ العبدُ بينَ يدى مولاه خاشعًا ، فارغًا من الشواغل ، موجهًا قلبَهُ إلى مولاه ، نظيفَ الظاهرِ ، طاهرَ الباطنِ ، يناجى رَبَّه وَيُثْنِى عليه بما هو أَهلُه خائفًا من عذابِه ، طامعًا فى رحمتِه ؛ طالبًا منه العَوْنَ والهِدايةَ . فيؤثرُ ذلك فى نفسِ المؤمن ، وَيُعَوِّدُه مراقبةَ اللهِ وخشيتَهُ ، فيجتنبُ ما يُغْضِبُ خالِقَهُ ويمتنعُ عَمَّا حَرَّمَ اللهُ عليه .

---

(١) الأنعـام : ١٠٢ .

(٢) غافـر : ٦٤ .

﴿... إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ . واللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾(١).

وَفَرَضَ اللهُ الزكاةَ فى الأَموالِ تطهيراً لها ، وشكراً للنعمة وتفريجاً للكربات ، والزكاةُ تغرسُ فى نفسِ المؤمنِ فضيلةَ السخاءِ وتملأُ القلوبَ بمحبتِه ، وبذلك تتحققُ الأُلفةُ والمودةُ بين الناس ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ، وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ واللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾(٢) .

وفَرَض الإسلامُ الصيامَ ليربِّىَ فى الإنسانِ فضيلةَ الصدقِ والوفاءِ : والصبرِ على الشدائدِ ، وليربِّىَ فيه قوةَ الإرادةِ وضبطِ النفسِ ، فلا يَغْلِبُه الهَوى . والصيامُ – كذلك – يربِّى فى نفسِ المؤمنِ العفةَ والقناعةَ والأَمانةَ والرحمةَ ، ويعرِّفُه مقدارَ نعمةِ اللهِ عليه ، ليشكرَ للخالقِ الرازقِ المنعمِ : ﴿ وَلِتُكْمِلُوا العِدَّةَ ، وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَىٰ مَا هدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (٣) .

وفَرَضَ اللهُ الحَجَّ على المستطيع ، حيثُ ينتقلُ المؤمنون من ديارِهم ويتجرَّدُون عن زينةِ الدُّنيا ليس على الواحدِ منهم إلَّا إزارٌ ورداءٌ والكلُّ خاضعٌ لعظمةِ اللهِ ، خاشعٌ لجلالِه ، وهنالك تتواضعُ النفوسُ ، وتعلمُ أنه لا يليقُ بالعبدِ أَن يستكبرَ ، وأَن الناسَ كلُّهم لآدمَ وآدمُ من تراب. ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللهَ عليمٌ خَبِيرٌ ﴾ (٤) .

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .
(٢) التوبة : ١٠٣ .
(٣) البقرة : ١٨٥ .
(٤) الحجرات : ١٣ .

أيها المسلمون :

فرضَ اللهُ علينا من العباداتِ ما يقربُنا إلى رضوانِ اللهِ ، وما يحققُ لنا الخيرَ فى الدنيا ، والفوزَ فى الآخرة ويسمو بالنفسِ الإنسانيةِ ، ويطهرُها من الأدرانِ ، فإذا أراد العبدُ لنفسهِ سعادةَ الدارين ، والفوزَ بالحسنيين ، وجب عليه أن يُطيعَ ربَّه ، وذلك بالقيام بفروضِ اللهِ تعالى ، وباجتنابِ محارمه ، والوقوفِ عند حدوده . وليَعْلَمِ المؤمنُ أن أَصْلَ الطاعةِ العلمُ باللهِ ، والخوفُ من الله ، والرجاءُ فى الله ، والمراقبةُ لله ، والعبدُ الذى يتجردُ عن هذه الخِصال لم يدركْ حقيقةَ الإيمان ، لأنه لا تصحُّ الطاعةُ للهِ إلا بعد العلم به والإيمانِ بوجودِه خالقاً عالماً قادراً لا يحيطُ به عِلْمٌ . ولا يتصورُه وَهْمٌ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾(١) . سبحانه وتعالى جلَّ شأنه ولا إلٰهَ إلَّا هوَ ربُّ السمواتِ والأرضِ .

فإذا صَحَّت العقيدةُ ، وسلِمَت ، وعرَف المؤمنُ أن له ربًّا خالقًا رازقًا ، يدبرُ الأمرَ وحده ، وأنه الإلٰهُ المعبودُ ولا إلٰهَ معبودَ بحقٍّ سواه ، إذا تقرر هذا الإيمانُ فى القلبِ ، وَجَبَت الطاعةُ للربِّ ، والطاعةُ إنما تكونُ مقبولةً إذا صدرت عن إخلاص ومحبَّةٍ ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾(٢). وهذا هو معنى النيّةِ فى العباداتِ من دعاءٍ وصلاةٍ وصومٍ وزكاةٍ وصدقةٍ وحجٍّ وعمرةٍ وغيرِ ذلك من العباداتِ أن تَصْدُرَ الطاعةُ والعبادةُ عن نيةٍ صادقةٍ خالصةٍ لوجهِ اللهِ تعالى وتقربًا إليه ، على سبيلِ الشكرِ له على ما أنعم به علينا من نعمةِ الخلقِ والتكوينِ والاستواءِ ، وكلِّ ما يُحيط بنا من نِعَمٍ ﴿واللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٣) . ﴿ اعْمَلُوا آلَ دَاوُد شُكْرًا ﴾(٤) .

---

(١) الشورى : ١١ . (٢) البينة : ٥
(٣) الصافات : ٩٦ . (٤) سبأ : ١٣ .

فَلْيَحْذَرِ المؤمنُ من الإعجابِ بالعمل، فإنَّه من أَعْظَمِ الآفاتِ ومحبطٌ للأعمالِ : فإنَّ المعجَبَ بعملِهِ مُمْتَنٌّ على ربِّه . وما يَدْرِيه أَقْبِلَ منه أَمْ رُدَّ عليه ؟ وليحذر أيضاً من الرياءِ فإنه يُحْبِطُ العَمَلَ ويَعْظُمُ فيه الوِزْرُ : ولأنه من خصالِ المنافقين الذين يُراءُون الناسَ ولا يُخْلِصون للهِ ، أَلَا إنَّ الرياءَ من الشركِ الخفيِّ الذى حَذَّرنا منه الحبيبُ المصطفى ﷺ ، فاتَّقوا اللهَ — عبادَ الله — وراقبُوه فى السرِّ والعلانية .

أيها المؤمنون :

إن المسلمَ إذا كان متمسكًا بدينه فإنه يقومُ بحقِّ اللهِ عليه ثمّ بحقِّ والِدَيْهِ ، وأقاربهِ ، ويواسى أهلَهُ ، ولا يُؤذِى جاراً ، ولا أحداً ، إنَّ المتمسكَ بدينهِ ، لا يكونُ لعَّانًا ، ولا سَبَّابًا . ولا نَمَّامًا ، ولا مُغتابًا . ولا حَقُودًا ، ولا حَسُودًا .

المسلمُ المتدينُ يكون صادقًا فى قوله ، أَمينًا فى معاملتِه : لا يَغُشُّ إذا باع ، أو اشترى ، ولا يُنْقِصُ مكيالًا ، ولا مِيزانًا ، ولا يُخْلِفُ وعدًا ، ولا يكونُ مختالا ، ولا فخورًا ، ولا يماطل فى حقوق الناس .

المسلمُ المتدينُ يُتقِنُ عمَله ، ويؤدِّيه على الوجهِ الأكملِ من غيرِ تسويفٍ ، ولا تأخيرٍ .

إن الإسلام — عبادَ الله — هو الدينُ العامُّ الخالدُ وتعاليمُه صالحةٌ لكلِّ زمانٍ ، ولكلِّ مكانٍ .. وهوَ عقيدةٌ وعملٌ،وبمبادئِه وبالعملِ بها يسعدُ الفردُ ، ويتحققُ الخيرُ للجماعة .

إن مبادىءَ الإسلامِ هى سبيلُ الحياةِ الكريمةِ ، ولا فَلَاحَ إلَّا بهذا

الدينِ الذى أكرمنا اللهُ به ، ولا خلاصَ للناس من مخاطرِ الشقاءِ فى الدنيا والآخرةِ إلّا به .

﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْـه وَهُوَ فِى الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِين ﴾(١) .

قال رسولُ اللهِ ﷺ : « لَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا مِنْ بَعْدِى . . كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِى » .

فاتَّقُوا الله ــ عبادَ الله ــ واسألوه سبحانه العونَ على طاعته وشكرِه وتوبوا إليهِ لعله يرحمكم .

وصلِّ اللهم على نبينا الهادى الحبيب وعلى آله وصحبه .

---

(١) آل عمران : ٨٥ .

وصيّة نبويّة
أكثر ما يدخل الناس الجنة

عن أبي ذر ، جندب بن جنادة ، وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضى الله عنهما ، عن رسول الله ﷺ قال : « اتَّقِ اللهَ حَيْثُمَا كُنْتَ وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها ، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ » .

هذه الوصيةُ وصيةٌ عظيمةٌ جامعةٌ لحُقوق اللهِ وحقوقِ عِبادِه ، فإنَّ حقَّ الله على عباده أن يتقوه حقَّ تقاتهِ ، فالتقوى وصية الله للأولين والآخرين ، قال الله تعالى : ﴿... وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ﴾ (١) .

وأصلُ التقوىٰ أن يجعلَ العبدُ بينه وبينَ ما يخافه ويحذره وقاية تقيهِ منه ، فتقوى العبد لربه : أن يجعلَ بينه وبينَ ما يخشاهُ من ربه من غضبه وسُخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهو فعل طاعته واجتناب معاصيه .

قال تعالى : ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٢) . أى اتقوا سخط الله وغضبه وهو أعظم ما يتقى ، قال تعالى : ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ (٣). أى هو أهل أن يخشى ويهاب ويُجَلّ ويعظم فى صدور

---

(١) النســاء : ١٣١ .
(٢) الحشر : ١٨ .
(٣) المـدثر : ٥٦ .

عباده حتى يعبدوه ويطيعوه ، لما يستحقُّه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة وقوة البطش وشدة البأْس .

ويدخل فى التقوى الكاملة فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات ، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات ، وهى أعلى درجات التقوى .

قال طلق بن حبيب : التقوى أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ، وترجو ثواب الله وأن تترك معصية الله على نور من الله وتخاف عقاب الله.

يقول ابن المعتز :

خَلِّ الذُّنوبَ صغيرَها وكبيرَها فهُو التُّقَى
وَاصْنَعْ كماشٍ فوق أَر ضِ الشوكِ يَحْذَر مايرى
لَا تَحْقِرَنَّ صـــغيرةً إنَّ الجِبالَ من الحَصَى

وقوله ﷺ : « اتَّقِ اللهَ حَيثُما كنتَ » أى فى السرِّ والعَلانية ، حيث يراه الناس ، وحيث لا يرونه ، كما قال عليه السلام لأبى ذر : « أُوصيك بتقوى الله فى سِرِّ أمرِك وعلانيتِه » .

فالمؤمن من يستحضر عظمة الله فى نفسه فى كل وقت ، وهذا هو السبب الموجب لخشية الله فى السر كما يخشاه فى العلانية فإن من علم أنَّ الله يراه حيث كان وأنه سبحانه يطلع على باطنه وظاهره ، وسره وعلانيته ، واستحضر ذلك دائماً فإنه يجتهد لتكميل نفسه بالطاعات ولزوم الفضائل ، والابتعاد عن كل ما يغضب الجبار .

يقول الله عز وجل : ﴿... واتَّقُوا الله الَّذِى تَسَاءلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكم رَقِيبًا ﴾ (١) .

---

(١) النســاء : ١ .

وتقوى الله فى السر هو علامة كمال الإيمان ، وله تأثير عظيم فى إلقاءِ اللهِ لصاحبهِ الثناء فى قلوب المؤمنين وَمَن صار له هذا الحال دائمًا أو غالباً فهو من المحسنين الذين يعبدون الله كأنهم يرونه فهم على حذر دائم من معاصيه وعلى رجاء قوى فى رحمته ومثوبته .

ولما كان العبد مأمورًا بالتقوى فى السر والعلانية مع أنه قد يقع منه أحيانًا تفريط فى التقوى إما بترك بعض المأمورات أو بارتكاب بعض المحظورات ، لهذا فإن الرسول ﷺ قال لمعاذ : « وأَتْبِعِ السَّيِّئَة الحسنةَ تَمْحُهَا » . أى افعل من الصالحات ما تمحو به السيئات .

قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وزُلَفًا من الليلِ إنَّ الحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرين ﴾ (١) .

وعن أبى ذر قال : قلت يارسول الله : علِّمنى عَمَلا يقرِّبنى من الجنة ويباعدنى عن النار . قال : « إذا عملت سيِّئةً فاعْمَلْ حسنةً ، فإنها عشرُ أمثالها » . قال : قلتُ يا رسول الله : أَمِنَ الحسناتِ « لا إِلٰه إلا الله » ؟ قال : « هِىَ أَحسَنُ الحسناتِ » .

وقد يُراد بالحسنةِ فى قوله عليه السلام : « وأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الحسنةَ » التوبةُ من تلك السيئة ، وقد جاء ذلك صريحًا من وصية الرسول لمعاذ ، ومنها : « واذكر اللهَ عز وجل عند كلِّ شَجَرٍ وحَجَرٍ ، وإن أَحْدَثتَ ذنْبًا فأَحْدِث عنده تَوبةً وإن سرًّا فسرٌّ وإن علانيةً فعلانية » .

قال تعالى : ﴿... وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدى ﴾ (٢) .

---

(١) هــود : ١١٤ .
(٢) طـه : ٨٢ .

وقد يراد بالحسنة ما هو أعم من التوبة ، أى أن التقرب إلى الله بعمل صالح مع إخلاص النية يكفر الله به الخطايا ، وقد جاء من حديث أبي بكر رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « مَا مِنْ رَجُلٍ يُذْنِبُ ذنبًا ثمّ يقومُ فيتطهّر ثمّ يُصَلِّى ثمّ يَسْتَغفر الله إلّا غفر اللهُ له » ، ثمّ قرأ هذه الآية : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِم وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾(١) .

وفى صحيح مسلم عن عثمان رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « مَنْ تَوَضَّأَ فأَحْسَنَ الوضوءَ خرجتْ خَطاياه من جَسَدِه حتى تَخْرجَ من تحتِ أظفاره » .

وقد ورد أن صيام رمضان مع إخلاص النية يكفر الذنوب ، وكذلك أداء فريضة الحج مع الصدق ومراعاة آدابه .

وفى المسند عن أم هانئ عن النبى ﷺ قال : « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ لا تتركُ ذنبًا ، ولا يَسْبِقُها عمل » . والأحاديث فى هذا كثيرة وهى تلفت المؤمنين إلى الإكثار من ذكر الله وتوحيده والتقرب إليه بصنوف الطاعات ليكسب العبد ثوابها ، ورجاء أن تكون سبباً فى غفران ذنوبه .

هذا مع اتفاق الأُمة على أن التوبة فرض لأنَّ اللهَ أَمر العبادَ بالتوبة والعزم على الطاعة ، وعدم الرجوع إلى المعصيةِ ، وجَعَلَ مَنْ لم يَتُبْ ظالماً ﴿ وَمَنْ لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ (٢) .

وعن عثمان رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « مَا مِنْ امرئٍ

---

(١) آل عمران : ١٣٥ .
(٢) الحجرات : ١١ .

مُسلمٍ تَحْضُره صلاةٌ مَكْتُوبةٌ فَيُحْسِن وضوءها وَخُشُوعَها وركوعَها إِلَّا كانت كفَّارةً لما قَبلها من الذُّنوب ما لم تُؤْتَ كبيرةٌ وذلك الدهرَ كلَّه » .

ذلك أَن الكبائر تكفرها التوبة أَو عفو الله عز وجل .

وعن أنس أَن رسول الله ﷺ قال : « إن سُبحانَ اللهِ والحمدُ للهِ ولا إلٰهَ إِلَّا الله واللهُ أَكبر ، تنفضُ الخَطايا كما تَنْفُضُ الشجرةُ ورقَها » .

وعن أَبى هريرةَ رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « والَّذِى نفسى بيده ما مِنْ عبدٍ يُصلى الصلواتِ الخمسَ ، ويصومُ رمضان ويُخْرج الزكاة ويجتنبُ الكبائر السبع ، إِلَّا فُتِحَتْ لهُ أَبوابُ الجنةِ ثمّ قِيلَ له ادْخل بسلام » .

وهذا يدل على أَن أَداءِ الفرائض واجتناب الكبائر دليلٌ على التقوى وسبيلٌ إِلى نيل رحمة الله ورضوانه .

ومن خصال التقوى : أَن يخالق المؤمن الناس بخلق حَسَن ، فعلى المؤمن أَن يحسن العشرة للناس ، وقد جعل النبى ﷺ حسن الخلق أَكمل خصالِ الإِيمان فى قوله : « أَكملُ المؤمنين إِيماناً أَحسنُهُم خُلقًا » .

وقال ﷺ : « إن حُسْنَ الخلقِ أَثْقَلُ ما يوضع فى الميزان وإِن صاحبه أَحبُّ الناسِ إِلى الله وأَقربُهم من النبيين مجلسا » .

فطوبى لمن اتَّقَىٰ ربَّه ونَدِم على ذَنْبِهِ وراقبَ الله فى السرِّ والعَلانِيَةِ وخَالَقَ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ .

وعن أَبى هريرة رضى الله عنه قال : سئلَ رسول الله ﷺ : ما أَكثرُ ما يُدْخِلُ الناسَ الجَنَّةَ . قال : « تَقْوَى اللهِ وحُسْنُ الخُلُق » .

فاتقوا الله عباد الله ، وراقبوه فى كل قول وعمل ، وسلوه محاسن الأَخلاق واستغفروه يغفر لكم .

للخطبة الثانية :

من عظات الرسول ﷺ للخطبة الثانية

قضاء الله نافذ فى وقته

عن الزُّهْرِىِّ قال : بَلَغَنَا عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه كان يقول إذا خَطب : « كُلُّ ما هو آتٍ قريبٌ ، وَلَا بُعْدَ لِمَا هو آتٍ . لا يُعَجِّلُ (١) اللهُ لعجلةِ أَحَدٍ ، وَلَا يَخِفُّ (٢) لأَمرِ الناس ماشَاءَ اللهُ لا ماشَاءَ النَاسُ . يُرِيدُ اللهُ أمرًا ويُرِيدُ النَاسُ أمرًا ،ما شاءَ اللهُ كانَ ولوْ كَرِهَ النَاسُ؛ ولا مُبْعِدَ لِمَا قَرَّبَ اللهُ ، ولا مُقَرِّبَ لما بَعَّد الله ؛لا يكونُ شىءٌ إلا بإِذنِ اللهِ جَلَّ وعَزَّ » .

---

(١) لا يعجل : بمعنى أن قضاءه سبحانه وتعالى لعبده نافذ فى وقته ولا تعجله رغبة العبد فى تعجيلـــه .

(٢) ولا يخف : بمعنى أنه سبحانه لا يعجل بالأمر لكون الناس يتعجلونه ويتلهفون عليه .
والمقصود : أن كل شىء عند الله بمقدار ، وأن قضاءه واقع لا محالة ، ولكن فى وقته الذى أراده الله عز وجل ، وقد فسرت الخطبة المراد بقوله صلى الله عليه وسلم : لا يعجل الله لعجلة أحد ، ولا يخف لأمر الناس » بقوله « ما شاء الله لا ما شاء الناس » . فكل الأمور بيد الله وحده ، وهو سبحانه يختبر عباده بالخير والشر وما أراده كان وما لم يرده لا يقع سبحانه وتعالى .

النفس المطمئنة واللوّامة والأمّارة

أما بعد :

فقد قال اللهُ تعالى :

﴿ يأيَّتُها النفسُ المُطْمَئِنَّة * ارْجِعِى إلَى رَبِّكِ رَاضِيَة مَّرْضِيَّةً * فادْخُلِى فى عِبَادِى * وادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ (١) .

يا أهـــل الإيمـــان :

هذه الآياتُ تُشَوِّقُ النفوسَ المخلصَة الصافيةَ إلى التَّحَلِّى بالكمالاتِ الإنسانيةِ وإلى لزوم طاعةِ اللهِ بالإتيانِ بما به أمر ، واجتنابِ ما عنه نهى وزجر . . . كما أنها تشوِّقُها إلى التَّخَلِّى عن كل معصيةٍ وخُلُق لا يَرْضَى عنه اللهُ ، إذ دَنَسُ المعاصى مجلبةٌ لغَضَبِ الربِّ .

إنَّ الآياتِ تُشَوِّقُنا إلى النفسِ التى أطمأَنَّت إلى اللهِ تعالى واثقةً بما عنده ، راضية بِقَضَائهِ ، قانعةً بعطائه ، موقنةً بلقائه ، مُسْلِّمَةً لأَمرِه ، متوكلةً عليه فى كلِّ شؤونها .

إنها النفسُ المؤمنةُ المخلصةُ ، نفسُ الشاكرِ فى الرخاء ، الصابرِ فى البأساءِ والضراءِ الحامدِ ربَّهُ فى كلِّ حالٍ لا يُضْعِفُ إيمانَه تغيُّرُ الزمانِ ، ولا يزعزعُه ما يفوتُه من الدنيا ، فهو مُطْمَئِنٌّ إلى أَنَّ ما أَخْطَأَه لم يَكُنْ لِيُصِيبَه ، وأنَّ ما أصابه لم يكنْ لِيُخْطِئَه .

إنها النفسُ التى آمنت بأَنَّ يومَ الفصلِ آتٍ لا ريبَ فيه ، يومَ يفصلُ اللهُ بين العباد فيقتصُّ للمظلوم ممَّن ظلمه ، ويأْخذُ للمحروم حقَّه مِمَّن حَرَمَه ، ويحاسبُ سبحانه كلَّ نفس بما كسبت ، فيَجْزِيها بالإحسانِ إحسانًا ، وبالسُّوءِ سوءًا ، لذا فإن صاحبَ النفسِ المطمئنة

(١) الفجر : ٢٧ - ٣٠ .

يفرُّ من الحرامِ ، ولا يأتى الدَّنيَّة ، ولا يطلبُ لغيره السوءَ والرزيَّة ، لإيمانِه بأن التفاضلَ فى الأرزاقِ والهِبَاتِ إنما يتمُّ على مُقْتَضَى عدلِ أحكمِ الحاكمين وحِكْمَتِه ، وأنه سبحانه إذا قَضَى أمرًا فلا رادَّ لِقَضائِه ، وأن المُتَسَخِّطَ إنما يُتعِبُ نفسَه ، ويُغْضِبُ ربه ، أما الراضى القانعُ فيعيشُ قريرَ العينِ ، مجتهدًا فى الاستعدادِ للقاءِ الله فى يومٍ لا ينفع فيه الندم .

إنها النفسُ المتعظةُ الذاكرةُ لا تُلهيها الفانيةُ عن الباقيةِ ، ولايَشْغَلُها العَرَضُ القريبُ عن الباقِى الدائِم . . . إنها النفسُ التى كان يطلبها الرسولُ الهادى ﷺ فى دعائه وسؤالِه ربه فيقول : «اللهمَّ إنِّى أسألُكَ نفسًا بِكَ مُطْمَئِنةً ، تُؤْمِنُ بلقائِكَ وتَرْضَى بقضائِكَ ، وتَقْنَعُ بعطائِكَ » .

إنَّ صاحبَ النفسِ المخلصة الموقنةِ المطمئنةِ يُبَشَّرُ عند موتِهِ بالخلودِ فى دارِ النعيمِ ، ويرى عند خروجِ رُوحه ما يُثْلِجُ صدرَه ، ويُزيلُ هَمَّه ، ويُدْخِلُ السرورَ على قلبِه ، فلا هو يحزنُ على ما خلَّفَ فى دنياه ، ولا هو يخافُ مِمَّا هو مُقْبِل عليه لأنه وَالَى طاعةَ الله وأدام الخوفَ منه فوالاه اللهُ بالمحبةِ والنصرةِ والتأييدِ وشمِلَهُ بعفوِه ورحمتِه : ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ إنَّ الَّذين قالُوا ربُّنا اللهُ ثُمَّ استقامُوا تَتَنزَّلُ عليهمُ الملائِكَةُ ألَّا تخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتى كُنْتُم تُوعَدون ﴾ (١).

قال عمرو بن العاص : إذا تُوفِّيَ المؤمنُ أرسلَ اللهُ إليه ملكين وأرسل معهما تُحْفَةً من الجنة فيقولان لها : اخْرُجى أيتُها النفسُ المطمئنةُ راضيةً مرضيةً ومرضيًّا عنكِ ، اخْرُجى إلى رَوْحٍ وَرَيْحَانٍ

---

(١) فصلت : ٣٠ .

وربٍّ غيرِ غضبان . يقولُ : فتخرجُ كأطيبِ ريحِ المِسْكِ وَجَدَ أَحَدٌ من أَنْفِه على ظهرِ الأرضِ .

أيها المؤمنون :

إن هذه الخاتمةَ الكريمةَ لحياة المؤمنِ الصالح بعد عمرٍ قضاه فى دنيا لا تسرُّ حتى تُحزن ، ولا تكادُ تَصفو لأنَّ ما يُعَكِّرُ الصَّفْوَ فيها كثير . . . إن هذه الخاتمة لَسلامٌ وَبَرْدٌ على القلوبِ التى حَرَّقَها الشَّوْقُ إلى مرضاةِ الربِّ ، فصَبَرَتْ على مُنَغِّصَاتِ الحياةِ الدنيا حامدةً شاكرةً .

إنها تحيةُ الربِّ الرحمٰنِ الرحيمِ لعباد عَرَفُوا حقَّه فماتوا طيِّبين طاهرين من الشرك زاكيةً أفعالُهم وأقوالُهم . . . ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِين تَتَوَفَّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبِينَ يقولُونَ سلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلوا الجَنَّةَ بما كُنتُمْ تَعْمَلُون ﴾ (١) .

قال محمدُ بنُ كعبٍ القُرَظى : إن مَلَكَ الموتِ يجىءُ للمؤمنِ عند موته فيقول له : السلامُ عليك ولىَّ اللهِ ، اللهُ يُقْرِئُك السلامَ . . . ثم قرأ :﴿الَّذِين تَتَوَفَّاهُم الملائكةُ طَيِّبين يقولونَ سلامٌ عليكُم..﴾ ويقال لهم : أَبْشِرُوا بالجنَّةِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون فى الدنيا من الصَّالحات .

يا أهــل الإسلام :

إن خاتمةَ صاحِبِ النفسِ المطمئنةِ كلُّها مباهجُ وسُرور خاليةٌ من المكدِّراتِ والآلامِ والأحزانِ مبشرةٌ بحياةٍ أَبديةٍ فيها نعيمٌ مقيمٌ وراحةٌ لا تُمَلُّ، فهى تُبَشَّرُ عند الموتِ بما يَسكُنُ له القلبُ ، ويقالُ لها عند البعثِ ارجعى إلى محلِّ عنايةِ ربك وموقفِ كرامتهِ لك حيثُ للسعداءِ قبلَ الحسابِ موقفٌ مخصــوصٌ فى المحشرِ يُكْرِمُهم اللهُ تعالى به ،

(١) النحــل : ٣٢ .

لا يَجِدُون فيه ما يجدُه غيرُهم فى مواقِفهم من النَّصَبِ ، ومنها يُنَادَى الواحدُ بعد الواحدِ للحساب :

﴿ ارْجِعِى إلى ربِّك راضيةً مَّرْضِيَّةً ﴾ رَحِمَ اللهُ النفسَ المؤمنَة الصالحةَ فَجَعَلها موضِعَ كَرَامَتِهِ وفى ظلِّ رحمتِه ، فى يومِ الفزعِ الأَكبرِ ، و هى لذلك راضيةٌ بعملها فى الدنيا وبمرجِعها فى الآخرةِ وهى مرضيةٌ ، لأَن من كانوا معها فى الدنيا راضُون عنها لحسن صنعِها ، واللهُ راضٍ عنها لصلاحِ عملها .

وزيادة فى تكريمها يقال لها :﴿فادْخُلِى فى عِبَادِى *وادْخُلِى جَنَّتِى ﴾ والعبادُ هم العبادُ المكْرَمُون ، حِزْبُ الله المفلحون أى ادخلى فى زمرة عِبادِى الصالحين المخلصين وانتظمِى فى سلكهم ، فكونى فى جُمْلَتِهم؛ وفى هذا إشارةٌ إلى سعادتِها لكمالِ استئناسِ النفسِ بالجليسِ الصالِح ، ثم تُفْتَحُ لأَولياءِ اللهِ أَبواب النعيم ، ويُؤْذَنُ لهم بِدُخُولها حيث يجدون راحةَ البالِ وسعادةَ البدن﴿ وإذا رأَيتَ ثَمَّ رأَيتَ نَعِيما وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴾ (١) .

هذه النفسُ المطمئنةُ الراضيةُ المرضيةُ تقابلُها النفسُ الأَمارةُ بالسوءِ المشتهيةُ الشرَّ وَبِضدِّها تَتَميزُ الأَشياءُ ، وفى هذه النفسِ يقولُ الحق تبارك وتعالى من سورة يوسف :

﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِى إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارةٌ بالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّى ﴾ (٢)

أَى إلا من عَصَمه الله من شرِّها ومن نزوعِها إلى السوءِ .

والنفسُ الأَمارةُ تميلُ إلى الطبيعة البدنيةِ وتُغوى باللَّذاتِ والشهواتِ الحسيةِ ،وتجذبُ القلبَ إلى ما فيه فسادُه فهى مأْوى الشرور ، ومنبعُ الأَخلاقِ الذميمة ، ومن سوءِ حظِّ المرءِ أَن يُتَابِعَ هواها ، وأَن يَنْقَادَ لها غافلا عن المصيرِ المحْتُوم حتى يوافيَهُ الأَجلُ ، أَما العاقلُ حَسَنُ الحظِّ

(١) الإنســان : ٢٠ . (٢) يوسف : ٥٣ .

فهو الذى يقمعُها عن غَيِّها ، ويردُّها إلى الصراطِ السوىِّ مهتديًا بنور الدين ، مسترشدًا بأحكامه وعظاته ، وفى التحْذِير من الانقياد لهوى النفس الأمارة يعظنا الرسول ﷺ فيقول : « ما تقولون فى صاحب لكم إن أنتم أكرمتموه وأطعمتموه وكسوتموه أفضى بكم إلى شر غاية ، وإن أهنتموه وأعريتموه وأجعتموه أفضى بكم إلى خير غاية ، قالوا يارسول الله ، هذا شرُّ صاحب فى الأرض ، قال فوالذى نفسى بيده ؛ إنها لنفوسكم التى بين جنوبكم » .

وصاحبُ النفسِ الأمارةِ يقولُ يوم لا ينفعُ الندم ولايُقْبَلُ عُذْرٌ: ﴿يَالَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾. ويقول :﴿ يَالَيْتَنِى كُنْتُ تُرَاباً ﴾. وَشَتَّان ما بين النفسِ المطمئنة والنفسِ الأمارة . . وهناك النفسُ اللَّوامَةُ التى نَوَّه اللهُ بشأْنِها بالإِقْسَام بِها فقال : ﴿وَلَا أُقْسِمُ بالنَّفْسِ اللَّوامَةِ ﴾. وهى التى تلوم نفسَها على ما فَرطَ منها ، وتندمُ على الشرِّ لِمَ فَعَلَتْهُ ، وتندمُ على الخيرلِمَ لَمْ تَسْتَكْثِرْ منه ، فهى لم تَزَلْ لائمةً ، وإن اجتهدتْ فى الطاعاتِ ، وهكذا شأْنُ البارِّ لا تراه إلا لائمًا نفسه ، أما المطموسُ على بصيرتهِ فهو الفاجرُ الذى يَمْضِى إلى الأمام لا يُعَاتِبُ نفسَه ، فالنفسُ اللَّوامةُ تستديمُ الخوفَ أن تكونَ قَصَّرت فيما يَجِبُ عليها لله .

فانظرْ أخِى المؤمن فى حالِ نفسِك وراقبِ اللهَ فى سرِّك وعلانيتِك ، واستعِنْ به على صلاحِ أمرِك ، وتأَملْ قولَ الرسول الحبيب ﷺ : « لَيْسَ من نفسٍ برَّة ولا فاجرَةٍ إلا وتلومُ نَفْسَها يومَ القِيامةِ إن عَمِلَتْ خيرًا قالت : كَيْفَ لم أَزْدَدْ منه وإن عَمِلَتْ شرًّا قالت : لَيْتَنِى قَصَّرتُ ».

فطوبى لمن اجتهد فى طاعة الله ، وأخلص العبادة لله ليكون من أصحاب النفوسِ المطمئنة .

واتقوا الله عباد الله واطلبوا مرضاته بأَداء فرائضه ، والوقوف عند حدوده ، وتوبوا إلى الله توبة نصوحاً إنه غفور رحيم .

البعث حق والجزاء حق

الحمدُ للهِ الذى خلق آدمَ من ترابٍ ، وخلقَ أبناءَه من نُطْفة من ماءٍ مَّهِين ثم هو سبحانه يُميتُهم ثُمَّ يُحْيِيهِمْ للحساب والجزاءِ سبحانه يقولُ للشيءِ كُنْ فيكون .

أَحْمَدُه سبحانه هو القوىُّ القادرُ لم يَخْلُقْنا عَبَثًا بَلْ لِحكمة وغاية ، وأَشْهَدُ أن لا إله إلَّا اللهُ الحىُّ القيومُ القائمُ على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ فيُجازِى المحسنَ بإحسانِهِ والمسىءَ بإساءَتِه ، وهو اللطيفُ الخبيرُ الذى لا يَعْزُبُ عنه مثقالُ ذَرَّةٍ فى الأَرضِ ولا فى السماء ، وأشهدُ أن نبيَّنا وهادِينا وحبيبَنا محمدًا دعا إلى الحق وخالصِ الإيمانِ وبشَّرَ وأَنْذَر ، اللهم صلِّ وسَلِّم عليه وعلى آله وصحبِهِ والمهتدين بهدْيِه إلى يوم الدين .

أما بعد . . . . فياعبـــاد الله :

خطب النبي ﷺ فقال فى خطبته : « . . . إن الرائدَ لا يكذبُ أهلَهُ واللهِ لتموتُنَّ كما تَنامُون ولتبعثُنَّ كما تَسْتَيْقظون ، ولتجزَوُنَّ بالإحسانِ إحسانًا وبالسوءِ سُوءًا وإنها لجَنَّةٌ أبدًا ، أو لنَارٌ أبدًا . . »

أيها المؤمنون :

إنها حقائق أنصعُ من بَيَاض النهار .

كلُّ ابنِ أُنثى سيموت ، وينتقلُ من هذه الحياة المحدودة الفانية إلى حياة أُخرى ممدودة باقية .

والبعثُ حقٌّ كما يستيقظ الإنسانُ بعد النوم . والجزاءُ حقٌ ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ؟ ﴾ (١) .

---

(١) القيـامة : ٣٦ .

والاعتقادُ باليوم الآخر والإيمانُ بما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الأعمال رُكنٌ من أركان الدين ، ولا يكون المرءُ مؤمنًا إلا إذا آمنَ بالبعث والجزاء .

وضلَّ قومٌ اعتقدوا أنه لا بعثَ بعدَ الموتِ . ضلُّوا واحتقرُوا عقولَهم فساءتْ عاقبتُهم ، ولنتدبَّر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿ وَقَالُوا : أَإِذَا ضَلَلْنَا فى الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهم كافرون * قلْ يَتَوَفاكُمْ مَلَكُ الموتِ الذى وُكِّلَ بِكُمْ ثم إلى رَبِّكم تُرجَعُون ﴾ (١) .

هذه طائفة وُجِدت وتُوجد فى كلِّ زمان تُنكر الحياةَ بعد الموت وتقول : ﴿ما هِيَ إلا حياتُنا الدُّنْيا نَمُوتُ ونَحْيا وَمَايُهْلِكُنَا إلا الدَّهرُ ﴾(٢)

وهؤلاء فى موقف الحساب يوم القيامة يغشى وجوههم الذل والصغار ويندمون أشد الندم . ولنتأمل موقفهم فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْ تَرى إِذِ المُجْرِمُون ناكِسُوا رُءُوسِهِم عِنْدَ رَبِّهم ربَّنَا أَبْصَرْنا وَسَمِعْنا فارْجِعْنَا نَعْمَل صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُون﴾ (٣) .

إن إنكار البعثِ والجزاءِ يستلزمُ الكفر بحكمةِ الخالقِ وعدله سبحانه وتعالى فى خلقه .

ويستلزمُ كُفْرَ المنكرِ بنعمةِ الخالقِ بخلقِه فى أَحسنِ تقويم وبتفضيل الإنسانِ على الكائناتِ المحيطةِ به ، وبتكريمه .

كما أَن هذا الإنكارَ يستلزمُ جهلَ المنكر بِما وَهَبَهُ اللهُ من المشاعِر والقُوى والعقلِ .

---

(١) السجدة : ١٠ ، ١١ .
(٢) الجاثيــة : ٢٤ .
(٣) السـجدة : ١٢ .

ومن لوازم هذا الجهلِ والكفرِ احتقارُ المنكرِ لنفسِه باعتقادِه أنه خُلق عبثا لا لحكمةٍ بالغةٍ ، واعتقادِه أن وجودَه فى الأرض موقوتٌ محدودٌ بهذا العُمْر القصيرِ المنغَّص بالهموم والآلام ، واعتقادِه أنَّ الإنسان يُتْرَكُ سُدًى فلا يثابُ المحسنُ على إحسانه ولا يُؤاخَذ المسيءُ بإساءته .

ولنتدبر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنا السَّماءَ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهما بَاطِلًا ذلكَ ظَنُّ الذِينَ كَفَرُوا فويلٌ لِلذِينَ كفرُوا مِنَ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كالمفسِدِين فى الأَرْضِ أَم نَجْعَلُ المتقين كالفُجَّارِ ﴾ (١) .

إنه الدليل الذى ينير الطريق أمام العقل يُرشده إلى أن الأمر لا ينتهى بالمساواة بين من أحسنوا فى دنياهم وبين من أساءوا وأفسدوا فى الأرض بِخُبثِهم وضَلالهم .

ولنتدبرْ قولَ الحكيم الخبير :

﴿ أَفَحَسِبْتُم أَنَّمَا خَلَقْناكُمْ عَبَثًا وأَنكُم إلينا لا تُرْجَعُون * فَتَعَالَى اللهُ المَلِكُ الحقُّ لا إلهَ إلا هُوَ ربُّ العرشِ الكريم ﴾ (٢) .

نعم . . لم يخلق اللهُ الإنسان عبثًا . . ولم يخلق هذا الكون لعبًا . . سبحانه وتعالى .

عباد الله :

إن اللهَ خلق الإنسان وهيَّأَ له الأسبابَ التى تمكنه من الاستقرار فى الأرض وعمارتها والانتفاع بخيراتها لغايةٍ جديرةٍ بحكمته ورحمته .

وجعل اللهُ الدنيا للإنسان مرحلةَ اختبار وابتلاءٍ ، ولم يتركه سُدى مُهمَلًا بلا مرشدٍ يُنير له الطريق ، ويزجُره عمّا يضرُّه ، ويبينُ له

---

(١) ص : ٢٧ و ٢٨ .   (٢) المؤمنون : ١١٥ ، ١١٦ .

ما ينفعه . بل أرسلَ إليه الرسلَ مبشرين ومنذرين ، وأنزل عليهم الكتب السماوية ، وأيدهم بالمعجزاتِ ليذكّروا الإنسان بنعمةِ الله عليه ، ويدفعوه على شكرها ، ويُبيِّنوا له ما يَجبُ عليه نحوَ ربِّه من توحيده وطاعتِه وعبادتِه ويرسمُوا له طريق النجاةِ والفوزِ والسعادةِ ... حتى يستعدَّ الإنسان للقاء ربه .

يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السمواتِ والأَرضَ وما بينهُمَا لاعِبين * ما خلقناهُمَا إلا بالحقِّ ولكن أَكثرَهُمْ لا يَعْلمُون * إنَّ يومَ الفصلِ ميقاتُهُم أَجْمَعِين * يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّولًى شيئًا ولا هُم يُنْصَرُون * إلا من رَحِم الله إنه هو العزيزُ الرحيمُ ﴾ (١) .

أيها المؤمنون :

إن الاعتقاد باليوم الآخر والإيمان بما يكونُ فيه من البعث والحساب والجزاءِ على الأَعمالِ يبعثُ المؤمنَ على العَمل الصالح ويُوقِفُه عِنْدَ حدود العدلِ ويردُّه لطريق الحق ويُطهِّر قَلْبَه من الآفاتَ فنجدُه صبُورًا عَفيفًا مُحبًّا للخير ، عَطُوفا بَرًّا رَحيمًا ، لا يَحْقدُ ولا يحسُد ولا يَطْمَعُ ولا يَغُشُّ .

الاعتقادُ بالبعث والجزاءِ يبعثُ فى النفس روحَ العملِ الطيب ويدفعُ بالإنسان إلى مدارجِ الكمالِ الإنسانى . فنجد المؤمنَ يتحلى بالفضائل ويستزيدُ من العبادات ، ويطهرُ نفسَه ويهذبها حتى تصلحَ لملاقاة ربِّها .

إن هذا الإيمانَ يدفعُ صاحبَه إلى الاجتهاد فى ملء صحيفته بخير ينفعُ وتسطيرِ كتابِه بعملٍ يُرضى ربَّه ، واغتنام حياته قبل انصرام الأَجل وانقطاعِ العَمل فيقضيها صالحًا مصلحًا مجتهدًا فى الخيرات

(١) الدخان : ٣٨ — ٤٢ .

ليفوزَ بالرضوان : ﴿ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مالٌ ولا بَنُون إلا مَنْ أَتَى اللهَ بقلبٍ سليم﴾(١) .

إن البعثَ حقٌّ والحسابَ حقٌّ والجزاءَ حقٌّ . وليتدبر العقلاءُ قول الرب القادرِ :

﴿ أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فخلقَ فسوَّى * فجعلَ منه الزَّوْجَينِ الذَّكَرَ والأُنْثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَى ؟ ﴾ (٢) .

وليتدبروا قولَ الحكيم الخبير :

﴿ وَضَرَب لَنَا مَثَلاً وَنَسِي خَلْقَهُ ، قَالَ : مَنْ يُحْيِي العِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الذِى أَنْشأَهَا أَوَّلَ مرَّةٍ وهوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيم ﴾(٣) .

وسبحان القوى القادر الذى يقول :

﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰواتِ والأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بقَادِرٍ عَلَى أَن يُحْيِيَ الموتَى بَلَىٰ إنه عَلَىٰ كلِّ شيءٍ قَدِيرٌ ﴾(٤) .

ولنسمع قوله سبحانه وتعالى :

﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِق * خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ من بَيْنِ الصُّلبِ والتَرائِبِ * إنَّه عَلَى رَجْعِه لقادرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرائِر ﴾ (٥) .

أَوَجد الله الإِنسان من العدم وحياتُه لا تنتهى بانتهاء هذه الحياةِ المحدودةِ الفانية . بل هناك الحياة الأَبدية . . هناك الثواب الأُخروى والعقابُ الأُخرويُّ ليجدَ كلُّ إنسانٍ جزاءَهُ بِما قدَّمت يداه .

---

(١) الشعراء : ٨٨، ٨٩ .
(٢) القيامة : ٣٦ — ٤٠ .
(٣) يس : ٧٨ ، ٧٩ .
(٤) الأحقاف : ٣٣ .
(٥) الطارق : ٥ — ٩ .

وقدرةُ الله مُطلقةٌ وأَمرُه نافذٌ ، فويلٌ لكل مُنكرٍ وجاحدٍ ومُلحدٍ إذا مَاتَ ولم يتبْ وَيَرْجعْ إلى ربِّه ، وطُوبى للمؤمنين الصَّالِحين .

﴿ فأَمَّا إنْ كَانَ مِنَ المقَرَّبين * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيم * وأَمَّا إنْ كَان مِنْ أَصحاب اليَمِين * فسلامٌ لكَ مِنْ أَصْحَاب اليَمِين * وأَمَّا إنْ كان مِنَ المكَذِّبينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِّن حَمِيم وَتَصْلِيَة جَحِيم * إنَّ هذا لَهُوَ حَقُّ اليقين * فَسَبِّحْ باسْمِ رَبِّكَ العَظِيم ﴾(١) .

(اللهم اجعلنا من عبادك الصالحين واكتب لنا الفوز برضاك يوم الدين)

عن أَبي يعلى شدَّادِ بنِ أَوس رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « الكيِّس مَنْ دَانَ نَفسَهُ وَعَمِلَ لما بعدَ الموتِ ، والعاجزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى على اللهِ الأَمانى » .

والكيِّس هو العاقلُ الذى يفكرُ فى العاقبةِ ، ويحاسبُ نفسَهُ قبلَ أن يُحَاسبَ ليمنعَها ما فيه هلاكُها ، وآمن بأَن البعثَ لا ريب فيه فأَعَدَّ لهذا اليوم العمل الصَّالحَ الذى يرجو به رحمة ربِّه .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إنَّ اللهَ عزَّ وجل يقبلُ توبةَ العبدِ ما لم يُغرغِر » .

أى قبل أن تصلَ الروحُ حلقومَه .

فاتقوا الله عبادَ الله وتوبوا إليه توبة نصوحًا وأَعدّوا أنفسكم ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم بالعمل الصالح وبالإخلاص لله .

---

(١) الواقعة : ٨٨ – ٩٦ .

للخطبة الثانية :

من عظات الرسول ﷺ للخطبة الثانية

اجتهدوا فى الطاعة قبل العجز والتقصير :

قال جابر : كان النبى ﷺ يوم الجمعة يخطب فيقول بعد أن يحمد الله ويصلى على أنبيائه : « أَيُّها الناسُ إنَّ لكُم مَعَالِمَ فانْتَهُوا إلى مَعَالِمِكُم ، وإنَّ لكُمْ نِهَايةً فانْتَهُوا إلىٰ نِهَايَتِكُم . إن العبدَ المؤمن بَيْنَ مَخَافَتَيْن : بَيْنَ أَجَلٍ قَدْ مَضَىٰ لا يَدْرِى ما اللهُ قاضٍ فيه ، وبينَ أجل قد بَقِىَ لا يَدْرِى ما اللهُ صانعٌ فيه . فَلْيأْخذِ العبدُ مِنْ نَفْسِهِ لنفسه ، ومن دُنْياه لآخرتِه ، ومن الشَّبيبةِ قبلَ الكِبَرِ ، ومن الحياةِ قبل المماتِ . والذى نفسى بيده ما بعدَ الموتِ من مُسْتَعْتَبٍ ، وما بَعْد الدُّنيا من دار إلا الجنةُ أو النارُ . أقول قولى هذا وأستغفر اللهَ لى ولكم » .

وفى أنفسكم أفلا تبصرون

أمـا بعـد :

فقد قال الله تعالى : ﴿ وَفِى أَنْفُسِكُم أَفَلا تُبْصِرُون ؟ ﴾ (١) .

دعانا الله عز وجل إلى إجالةِ الفكرِ فيما حولَنا من بديع صُنعِه ، وفى أنفسِنا ؛ لأن طالبَ الحقِّ إذا تـأملَ كتابَ الكونِ وتدبَّرَ فى خَلْقِ الإنسانِ استقرَّ يقينُه بالإيمانِ بوجودِ الخالِق وبوحدانيتهِ وعمومِ قدرتهِ وكمالِ حكمتِه واطمأنت نفسُه يقينًا بعظمةِ الخالق معترفًا ومقرًّا بواسعِ رحمتِه بعبادِه وعظيمِ لُطفِه وعدلِه .

وفى كلِّ شىءٍ لَهُ آيةٌ　　　　تَدُلُّ على أنَّه الواحدُ

نَدَبنا اللهُ إلى التفكُّرِ فى خلقِ الإنسانِ ، وفى أطوارِه ، وكيفيةِ تركيبه : فقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ مِمَّ خُلِق ؟ * خُلِقَ مِن ماءٍ دَافِق * يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلبِ والتَّرائِب ﴾(٢) .

فالإنسانُ الذى يضربُ فى الأَرضِ مُعْتَدِلَ الخَلْقِ ، تامَّ الأَعضاءِ ، أَصلُه نُطْفَةٌ كانت مُغَيَّبةً فى صُلْبِ الرجلِ وترائبِ المرأة ، لا يعلمُ بمكانِها إلَّا خالقُها ومدبِّرُ أمرِها ، وإلى ذلك يلفتُ الحقُّ تبارك وتعالى عبادَه :

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَىٰ الإنسانِ حينٌ من الدَّهْرِ لم يكُنْ شيئًا مَذْكورًا * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنْسانَ مِن نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيه فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (٣).

وأَصلُ البشرِ أبوهم آدمُ ، وآدمُ خُلِق مِنْ طِينٍ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً

---

(١) الذاريات : ٢١ .　　(٢) الطـارق : ٥ — ٧ .

(٣) الإنسـان : ١ ، ٢ .

فى قرارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنا العَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنا المُضْغَةَ عِظَاما فَكَسَوْنَا العِظَامَ لحْمًا ثُمَّ أنْشَأْناه خَلْقًا آخر فتبارك اللهُ أَحْسَنُ الخَالِقين ﴾ (١) .

فابنُ آدمَ خُلِق من نُطفةٍ ، وهى قطرةٌ من ماءٍ مَهِينٍ ضعيفٍ مُسْتَقْذَرٍ ، ساقها اللهُ عز وجل بقدرته إلى مستقرِّها فى رَحِم المرأةِ ، حيث القرارُ المكينُ الذى لا ينالُه هواءٌ يُفْسِدُه ، ولا بَرْدٌ يُجَمِّده ، ولا آفةٌ تَتَسَلَّطُ عليه ، ثم بقدرتِه قَلَبَ تلك النطفةَ علقةً حمراءَ ، ثم مُضْغَةَ لحم مخالفةً للعلقة فى لونِها ، وحقيقتِها ، وشَكْلِها ، ثم جعل المضغةَ عظامًا مجردةً لا كسوة عليها ، وهى مغايرةٌ للمُضْغةِ فى شكلِها ، وهيأتِها ، وقَدْرِها ، ولونِها ، ثم كسا سبحانه العظامَ لحمًا ، ثم تأَملْ كيف صار الإنسانُ بعد ذلك مُرَكَّبًا من أَجزاءٍ متناسقةٍ ، ومن أَجهزةٍ متعاونة وماذا نقول : عن الأَعصابِ والعروقِ والعِظَامِ والمفاصِلِ وأَجهزةِ التنفسِ والهضمِ ودورةِ الدمِ ، وكيف شقَّ لهذا الجسمِ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَفَمَهُ وَأَنْفَهُ ؟ ثم ماذا نقولُ عن مد اليدين والرجلين والأَصابعِ ، وعن الأَناملِ ، والأَسنانِ ، والأَضراسِ ، واللسانِ ، والحنجرةِ ، والأَحبالِ الصوتيةِ ، والكراتِ الحمراءِ والكراتِ البيضاء، والعقلِ ، والقلبِ، والمخِّ ؟ وماذا نقولُ عن المَعِدَةِ والكَبِدِ والطِّحَالِ والرئةِ ،وعن رحِمِ المرأةِ والمثانةِ؟ كيف تمَّ كلُّ ذلك وغيره ؟ وَهُيِّئَ فى قرارِه المكينِ فى ظلمات الرحم ؟ حتى خرج الإنسانُ ليستقبل الضوءَ ، ويبدأَ الجَولة إلى أن ينتهِىَ العُمْرُ وفى خلال ذلك عِبَرٌ وعِظَاتٌ .

أَلا يدلُّ كلُّ ذلك على وجودِ الخالقِ الحكيمِ الإِلٰه القادرِ العظيم ؟ ﴿ وفى أَنفسِكُم أفلا تُبصرون ﴾.

(١) المؤمنــون : ١٢ — ١٤ .

ولنتدبَّر قولَ الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿ اللهُ الَّذِىخَلَقَكُم مِّنْ ضَعْفٍ ثُم جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قوةً ثُمَّ جَعَل من بعدِ قوةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يخلقُ ما يشاءُ وهُو العليمُ القدير ﴾ (١) .

فالإنسانُ يخرجُ من بطنِ أُمِّه ضعيفًا نحيفًا واهنَ القُوى ثم يَشُبُّ قليلًا قليلًا حتى يكونَ صغيرًا ثم حَدَثًا ثم مُراهقًا ثم شابًّا ، وهو القوة بعد الضعف ثم يبدأُ الإنسانُ فى النقْص فيكتهلُ ، ثم يشيخُ ، ثم يهرمُ ، وهو الضعفُ بعد القوة فتضعفُ تبعًا لذالك الهِمَّةُ والحركةُ ، وتشيبُ الرأْس ، وتتغيرُ الصفاتُ الظاهرةُ والباطنةُ ولهذا قال : ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بعدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وشَيْبَة يَخْلُقُ ما يَشَاءُ﴾ أَى يفعل ما يشاءُ ويتصرف فى عبيده بما يريد ﴿ وهو العليمُ القديرُ ﴾ .

إن الإنسانَ لا ينبغى له أَن يغفُلَ عن النظر إلى نفسِه ، وتَأَمل ذاتِهِ فلم يُخْلَق الإنسانُ عَبثًا ؟ وإنما خُلِقَ لغاية ؟ فإذا لم تتحققْ فيه الغايةُ ضيَّعَ نفسَهُ وأَهلكَها . . يقول الحق تبارك وتعالى :﴿ وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلا لِيَعْبُدون * مَاأُرِيدُ مِنْهُم مِّن رزْقٍ وَمَا أُريدُ أَنْ يُطْعِمُون﴾(٢)

هل فكَّر الإنسانُ فى قول الحق تبارك وتعالى :﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَه عَيْنَين * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النجْدَيْن﴾ (٣) .

هلا نظر كيف حَسَّنَ اللهُ شكْلَ عينيه ومقدارَهما ، ثم جَمَّلَهما بالأَجفانِ غطاءً لهما وسِتْرا وحِفْظًا وزينة ، فهما يتلقَّيان عن العينِ الأَذى والقَذى والغُبار ويقيانها من البارِدِ المؤذى والحارِّ المُؤْذى ، ثم كيف غرس فى أَطرافِ تالك الأَجفانِ الأَهدابَ جمالًا وزينةً ولمنافع كثيرة ، ثم جعل فى العينين خاصيةَ النورِ الباصرِ الذى يخرقُ ما بين السماء

---

(١) الروم : ٥٤ .
(٢) الذاريات : ٥٦ ، ٥٧ .
(٣) البلد : ٨ — ١٠ .

والأَرض ، وكلُّ ذلك وغيرُه فى تلك الحدقة الصغيرة التى تُمَثِّلُ جزءًا ضيئًلا من جسم الإنسان . . ثم هلا تأَملَ الإنسانُ لسانَه وما فيه من صنوفِ النِّعَم والرحمة ، ثم هلَّا تأَملَ الإنسانُ رحمةَ ربِّه فى شفتيه وأُذنيه ورأْسِه . . وكيف يدخلُ طعامُه وشرابُه من مكان واحد ، ثم يخرجُ كلٌّ منهما من مكان خاصٍّ به . .

مَن المدبِّرُ لكلِّ هـذا ؟

أَليس المدبِّرُ هو اللهَ الخالقَ الرازقَ المنعمَ الربَّ المدبِّرَ الحكيمَ عظيمَ القدرةِ والسلطانِ الذى لا شريكَ له فى مُلكِه ، ولا مُعينَ له ، ولا زوجَ ولا ولد ؟

﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُم خَالِقُ كُلِّ شَىءٍ لا إِلٰهَ إِلَّا هُو فَأَنَّى تُؤفَكُون * كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُون * اللهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا والسَّماءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُم فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللهُ ربُّ العَالِمين﴾ (١) .

سبحانه وتعالى صوَّر الإنسانَ فأَحسنَ صورته ، خَلَقه فى أَحسنِ تقويم ، وجعل بينَ أَعضائِه من التناسقِ والانتظامِ والتعاونِ ما فيه عبرةٌ لمن اعتبر ؛ فيهتفُ من أَعماقِ قلبِه ومن كل عقلِه وشعوره :

﴿ هُوَ اللهُ الخَالِقُ البارِئُ المُصوِّرُ لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمٰواتِ والأَرْضِ وَهُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾ (٢) .

قال قتادةُ : من تفكَّر فى خَلْقِ نفسِه عرف أَنه إنما خُلق ولُيِّنَتْ مفاصلُه لعبادةِ اللهِ .

دعا اللهُ عبادَه إلى النظرِ والفكرِ فى مبدَإِ خلقِ الإنسانِ ، ووسطِه

---

(١) غافـر : ٦٢ — ٦٤ . (٢) الحشر : ٢٤ .

وآخرِه إذْ نفسُ الإنسانِ وخَلْقُه من أعظمِ الدلائِل على قدرة خالقِه وفاطِره ووجُودِه ووحدانيته :

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَم هُمُ الخَالِقُون ؟ ﴾ (١) .

أيمكنُ أن يُخْلَقَ الإنسانُ ويُوجدَ من غيرِ خالقٍ حيٍّ قادرٍ واحدٍ، أم أنَّ الإنسانَ هو الذى خَلَقَ نفسَه وأوجدها ؟

أى لا هذا ولا ذاك ، بل اللهُ هو الذى خَلَقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكورا .

أيها المسلمون :

إن أقرَب شيءٍ إلى الإنسانِ نفسُه ، وفيه من العجائبِ الدالةِ على عظمة اللهِ ما تقتضى الأعمارَ فى الوقوفِ على بعضه ؛ والإنسانُ غافلٌ عن الفكر ، مُعْرِضٌ عن التفكرِ والتأمُّلِ ، ولو فكَّر فى نفسِه لَزجَره ما يعلمُ من عجائبِ النفسِ ، وبديعِ صُنْعِها ، وإحكامِ تركيبِها عن الكفرِ والمعصية :

﴿ قُتِلَ الإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۞ مِنْ أَىِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ؟ ۞ مِن نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۞ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ ۞ ثُمَّ أَماتَهُ فَأَقْبَرَهُ ۞ ثُم إِذَا شَاءَ أَنْشَره.. ﴾ (٢) .

لقد كَرَّر اللهُ على أسماعِنا وأفهامِنا وعقولِنا لفظَ النطفةِ والعلقة والمضغة والترابِ ، لنتدبرَ ونتأملَ ونعِيَ فيزدادَ المؤمنُ يقينًا وإيمانًا ، ويرعوىَ الجاحدُ ، ويرجعَ إلى عقلِه ، ويتوبَ إلى ربِّه نادمًا على ما كان منه من غفلة .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُون ﴾ (٣) .

---

(١) الطـور : ٣٥ .

(٢) عبس : ١٧ — ٢٢ .

(٣) الزخرف : ٨٧ .

ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ ذَلِكَ عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ العَزِيزُ الرَّحِيمُ * الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَه وبدأَ خَلْقَ الإنسانِ مِنْ طِين * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّنْ مَّاءٍ مَّهِين * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ والأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُون * وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِى الأَرْضِ أَإِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيد بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُون ﴾(١) .

جحدَ الجاحدونَ لقاءَ ربِّهم فلم يتدبَّروا فى النشأَةِ الأُولى ، وخالقُهم الرَّحيمُ بهم يدعوهم إلى التأَمُّلِ والتدبُّر .

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُون * أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تُمْنُون * أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَه أَمْ نَحْنُ الخَالِقُون * نَحنُ قَدَّرنا بَيْنَكُمُ المَوْتَ وما نَحْنُ بِمَسْبُوقِين * عَلَىٰ أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُون * وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُون ﴾(٢) .

وما خَلْقُ جميعِ الناسِ وبَعْثُهم يوم المعادِ بالنسبةِ إلى قدرةِ اللهِ إلَّا كنسبةِ خَلْقِ نفسٍ واحدةٍ ، الجميعُ هَيِّنٌ عليه : ﴿ مَا خَلْقُكُم وَلا بَعْثُكُم إلَّا كَنفْسٍ واحدَةٍ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾(٣)... ﴿ إِنَّمَا أَمْرُه إذا أَرادَ شَيْئًا أن يَقولَ له كُنْ فَيكُون ﴾(٤) .

عن بُسْرِ بنِ جِحَاشٍ أن رسولَ اللهِ ﷺ بَصَقَ يَوْمًا فى كَفِّهِ ، فوضعَ عليها إِصْبَعَه ثم قال : قال اللهُ تعالى : « ابنَ آدمَ أَنَّىٰ تُعْجِزُنى وقد خلقتُكَ من مِثْلِ هذه حتَّى سَوَّيْتُكَ وَعَدَلْتُكَ مَشَيْتَ بينَ بُرْدَيْكَ وللأَرضِ منك وَئِيدٌ فجمعتَ ومنعْتَ حتَّى إذا بَلَغَتِ التَّراقى قُلْتَ : (أَتصدَّقُ) وأَنَّىٰ أَوانُ الصَّدَقةِ ؟ » .

فاتقوا اللهَ عبادَ الله وتوبوا إليه فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

(١) السجدة : ٦ — ١٠ .
(٢) الواقعة : ٥٧ — ٦٢ .
(٣) لقمان : ٢٨ .
(٤) يس : ٨٢ .

الخطبة الثانية :

عظة بليغة

قال ﷺ : قال الله تعالى : « يا ابنَ آدمَ قد أنعمتُ عليكَ نِعَمًا عِظَامًا لا تُحْصِي عَدَدَها ولا تُطيق شُكْرَها ، وإنَّ مِمَّا أنعمتُ عليك : أَنْ جعلتُ لك عينين تنظرُ بهما ، وجعلتُ لهما غِطاءً فانْظُرْ بعينيكَ إلى ما أحللتُ لك ، وإنْ رأيتَ ما حرَّمتُ عليكَ فأَطْبِقْ عليهما غطاءهما ، وجعلتُ لك لِسانًا ، وجعلتُ له غلافا فانْطِقْ بما أَمرتُكَ وأحللتُ لك ، فإن عَرَضَ لك ما حرمتُ عليك فأَغْلِقْ عليك لسانَك ، وجعلتُ لك فَرْجا وجعلتُ لك سِتْراً ، فأَصِبْ بِفَرْجِك ما أحللتُ لك فإنْ عَرَضَ لَكَ ما حَرَّمْت عليك فأَرْخِ عليك سِترَكَ .

يا ابنَ آدمَ إنك لا تَحْمِل سُخْطى ولا تُطِيقُ انتقامى » .

لا يعلم الغيب إلا الله

أمـا بعـد :

فقد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعة ويُنَزِّلُ الغَيْثَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَام ، وَمَا تدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١) .

عباد الله :

نزلت الآيةُ الكريمةُ فى الحارثِ بنِ عمر بن حارثة أتى النبيَّ ﷺ فقال : يارسولَ الله ، أخبرنى عن الساعة ، متى قيامُها ؟ وإنى قد ألقيتُ حَبَّاتى فى الأرض ، وقد أبطأت عنا السماءُ فمتى تُمْطرُ ؟ وأخبرنى عن امرأتى فقد اشتملتْ ما فى بطنها أذكرٌ أمْ أُنثى ؟ وإنى علمتُ ما عَملتُ أمس فماذا أعملُ غداً ؟ وهذا مولدى قد عرفتُه فأينَ أموت ؟

وعن ابن عباس رضى الله عنه : « مَنِ ادَّعى علْمَ هذه الخمسة فقد كذَب ، إيَّاكم والكهانةَ فإن الكهانةَ تدعو إلى الشرك، والشركُ وأهلهُ فى النـــار » .

أيها المؤمنون :

إن مفاتيحَ الغيبِ خمسٌ لا يعلمها إلا الله ، ومن ادعى علم شىءٍ منها فهو كاذب آثم مغضوب عليه .

إن الله عنده علم الساعة : ﴿أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ فالله عز وجل وحده يعلم متى تقوم الساعة ولم يؤت علمَ ذلك أحداً من خلقه، إذ لا فائدة للعباد فى معرفة وقتها ، وإنما عليهم أن يستعدوا لها بالخوف من الله وخشيته

(١) لقمان : ٣٤ .

وبالعمل الصالح ومداومة الطاعة . قال تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا * فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرَاهَا * إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا * إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا﴾ (١) . أى أنت يا محمدُ لم تُبْعَثْ لتعلمَهم بوقت الساعة الذى لا فائدةَ لهم فى علْمه ، وإنما بُعِثْتَ لتنذرَ من أهوالها من يكونُ إنذارك لطفاً له فى الخشية منها .

وقال الحق تباركَ وتعالى : ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾(٢)ويقول سبحانه : ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ * وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ (٣) .

فمتى تقوم الساعة ؟ ومتى ينتهى العالم ؟ عِلْمُ ذَٰلكَ عندَ اللهِ وحده لا يعلمهُ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ وَلَا مَلَكٌ مُقرَّب . والله يقول لنبيه : ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ * يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾(٤) .

والله عز وجَل هو الذى ينزل الغيثَ فى إبانه ووقته من غير تقديم ولا تأخير وفى بلد لا يتجاوزه به ، وهذا من الغيب الذى لا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالى : ﴿ وينَزِّلُ الغَيْث ﴾ .

وهو عز وجل يعلم ما فى الأرحام . . أذكر أَم أُنثى ؟ أتامٌّ أم ناقص ؟ أبيض أَم أحمر ؟ . وكذلك ما سوى ذلك من الأحوال : ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ

---

(١) النازعات : ٤٢ — ٤٥ .
(٢) فصلت : ٤٧ .
(٣) الملك : ٢٤ — ٢٦ .
(٤) الشورى : ١٧ ، ١٨ .

ما تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ ، وَمَا تَزْدَادُ وكلُّ شَيْءٍ عِنْدَه بِمِقْدَارٍ * عَالِمُ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الكَبِيرُ المُتَعَال ﴾ (١) .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِى الأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ * هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ العَزِيزُ الحَكِيمُ ﴾(٢) .

ثمّ إن المستقبل بيد الخالق العليم الخبير وحده ، وعلى العبد أن يأخذ بالأسباب مع التوكل على الله وحده ، أما ماذا يحدث غدا فهذا غيب لا يعلمه إلّا القادر الحكيم الذى يقول للشيء كن فيكون ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بَرَّة أَوْ فَاجِرَةٌ ، مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا مِن خير أو شر ، وربما كانت عازمةً على خير فعملت شرا ، وعازمة على شر فعملت خيرا . .
وقديماً قال الشاعر الحكيم :

وَأَعْلَمُ عِلْمَ اليَوْمِ وَالأَمْسِ قَبْلَهُ ... وَلَكِنَّنِى عَنْ عِلْمِ مَا فِى غَدٍ عَمِى

أجل إن الغد غيب ، والغيب مفاتيحه بيد علام الغيوب سبحانه وتعالى جل شأنه :﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللهِ ، وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ ولا أَقولُ لكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحَى إِلَيَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالبَصير ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُون ﴾(٣).

ويقول سبحانه : ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِى البَرِّ وَالبَحْرِ ومَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فى ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فى كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾(٤) .

ويقول عز وجل : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللهُ وَمَنْ مَعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * قُلْ هُوَ الرَّحْمٰنُ آمَنَّا بِهِ

(١) الرعد : ٨ ، ٩ .
(٢) آل عمران : ٥ ، ٦ .
(٣) الأنعام : ٥٠ .
(٤) الأنعام : ٥٩ .

وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾(١) .

لهذا فقد اشتدَّ غضبُ الله على السحرةِ والكهانِ والعرافين وغيرِهم من الدجالين الذين يُوهِمُون الناسَ أنهم يعرفون الغيبَ ويشاركونَ عَلَّامَ الغيوبِ فى معرفة المستقبل ألا ساءَ ما يدعون .

وقد تبرَّأ النبيّ ﷺ من كلِّ من يتعلقُ بغير الله ويَجْرى وراءَ الوهم والباطل ، فعن عمران بن حصين رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَو تُطُيِّر له أَو تَكَهَّنَ أَو تُكُهِّنَ له أَوْ سَحَرَ أَو سُحِرَ له ، ومَنْ أَتى كاهِنا فَصَدَّقَه بما يقولُ فقد كفَرَ بما أُنْزِلَ على محمدٍ ﷺ » .

فَلْيَحْذَرِ المُؤْمِنُ الجَرْىَ وَرَاءَ الأَوهام ، وَلْيَحْذَر الدجَّالِين والعَرَّافِين لأَنهُمْ كَذَّابون أَفَّاقون وليعتصم المُؤمِنُ بإِيمانِهِ بربِّهِ وحُسْنِ توكلِه عليه فى الأُمورِ كلِّها ، مع الأَخذ بالأَسبابِ التى أمر الله بها .

عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ أَتى كاهِنًا فصدَّقه بما يقول فقد بَرِئَ مِمَّا أُنْزِلَ على محمدٍ ﷺ ، ومَنْ أتاه غيرَ مصدِّقٍ له لم تُقْبَلْ له صلاةٌ أربعين ليلة » .

ومن سأَل كاهِنًا طُرِدَ من رحمةِ اللهِ ولا يُقبل له عمل .

فعن واثلة بن الأَسقع رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مَنْ أَتى كاهنًا فسأَله عن شىءٍ حُجِبَت عنه التوبةُ أَربعين ليلةً فإِن صدَّقه بما قال كفر » .

وأَمر الإِسلامُ بالأَخذِ بالأَسبابِ مع حسنِ التوكلِ على الله وحده وبالإِيمانِ بأَنه لا نافع ولا ضار إلا هو ، وأَن الأَمر بيده وحده سبحانه

(١) الملك : ٢٨ — ٣٠ .

وتعالى . فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « ما أنزلَ اللهُ داءً إلَّا أنزلَ لهُ شفاءً...» ومن حديث آخر : « تَدَاوَوْا ياعِبادَ اللهِ فإنَّ اللهَ تعالى لم يضعْ داءً إلَّا وَضَعَ له شِفاءً إلَّا السَّام » [أى الموت] .

وهكذا يحُثُّنا دينُنا الحنيفُ على الأَخْذ بالأَسباب ، وينهانا عن الجرى وراءَ الأَوهام والخرافاتِ ، ويحذِّرُنا من الدجَّالين والسحرةِ والكُهَّانِ وغيرِهم ممن غضب الله عليهم .

والموتُ حقٌ وعلى المؤمن أَن يضعَ أَمام عينيه الموتَ ، لا يغفل عن تذكُّره ليستعدَّ دائمًا للقاءِ ربِّه ولكن ﴿وما تدرى نفسٌ بأَىِّ أَرضٍ تموت﴾ . فربما أَقامَ المرءُ بأَرضٍ وضَرَب أَوتادَه بها ، وقال لا أَبرحُها حتى أُقبرَ فيها فترمى به مرامى الأَقدارِ حتى يموتَ فى مكانٍ لم يخطرْ بباله ولا حدَّثَتْهُ به نفسُه ، ذلك لأَن هذا غَيْبٌ عِلْمُه بيدِ صاحبِ الأَمر ، ﴿إنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . وفى الحديث : « إذا أَراد الله قبضَ عبد بأَرضٍ جعلَ له إليها حاجة » .

فسبحان الواحدِ الأَحدِ ، سبحان علام الغيوبِ ، القائمِ على كلِّ نفسٍ بما كسبت لا يَعْزُب عن علمه شئٌ فى الأَرض ولا فى السماءِ .

وطوبى للعبد المؤمنِ الصالحِ المتوكلِ على ربِّه . . طوبى للعبد المؤمنِ المقرِّ بعجز نفسِهِ أَمامَ كمالِ القدرةِ الإِلهية ، وكمالِ العلمِ الإِلهىِّ ، طوبى لمن يستعد للقاء العزيز الجبارِ بالعملِ الصالحِ واليقينِ الصادق .

قال رسول الله ﷺ : « مفاتيحُ الغيبِ خمسةٌ لا يعلمهم إلَّا اللهُ تعالى : لَا يعلمُ متى تقومُ الساعةُ إلَّا اللهُ ، ولا يعلم ما تَغِيضُ بهِ الأَرحامُ إلَّا الله ، ولا يعلمُ ما فى غد إلَّا اللهُ ، ولا يعلمُ بأَى أَرضٍ تموتُ إلَّا اللهُ ، ولا يعلمُ متى يَنْزِلُ الغيثُ إلَّا الله » .

فاتَّقُوا الله فى دينكم ، صونوه عن شوائب الشرك ، وأَخلصوا التوحيدَ لله ، وتوبوا إليه لعله يرحمكم .

الإسلام هو صراط الله المستقيم

الحمد لله ، إذا أراد بأُمةٍ خيرًا وفّقها للتمسك بدينها ، والمحافظةِ على كيانها . . والصلاةُ والسلام على نبينا وهادينا محمدٍ جاءَ بعقيدةِ التوحيدِ والتنزيهِ ، وأمر بالطاعةِ وحَثَّ على التحلِّي بأَخلاقِ الإِسلامِ العالية.

أحمدُ اللهَ وأستغفرُه ، وأشهَدُ أن لا إله إلَّا اللهُ ، خلق الأُممَ مختلفةً ، ولو شاءَ لجعلهم أُمةً واحدةً ، وأشهد أن الهادِيَ الحبيبَ محمدَ بن عبدِ الله هو رسولُ ربِّ العالمين إلى الناس كافةً ، وهو الإمامُ والقدوةُ . . اللهمَّ صلِّ على هادينا محمدٍ وعلى آله وأصحابه الذين اقتدوا به ، فأَحْيَوْا دِينَه ، ونَشَرُوا شريعَتَهُ الغَرَّاءَ .

أمـا بعـد . . . . فيا أيها المسلمون :

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ، وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا، وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾(١)

وقال عز وجل : ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ ، وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾(٢) .

أيها المسلمون :

قبلَ أن تُشرق على الدُّنيا أنوار الدعوة المحمدية ، كانَ البشر يعيشونَ فى حَيرةٍ وعمىً . . كانت العقائد زائغة باطلة ،والأَخلاق كانت فاسدة . . وأفكار البشر متضاربةً متخالفةً . . فتنافرت القبائلُ . .

---

(١) النســاء : ١٢٥ .

(٢) آل عمران : ٨٥ .

وتنابذت الأُممُ . . يأْكلُ قويُّها ضعيفَها . . وفشا الإثم والعدوان ، واضطربَ حبلُ الأَمنِ ، وحُرم الناسُ من نعمةِ الاستقرار والطمأْنينةِ . . وضلَّ سعيُهم فى الحياة الدنيا .

وأَراد اللهُ عز وجل أَن يهدى عباده إلى صراطه المستقيم ، وأَن يُنقِذَهم من الكفر والضلال والعمى والجهل .

أَراد الله عز وجل للناس أَن يعيشوا فى محبةٍ ، وكرامةٍ ، فأَرسلَ نبيَّه محمداً ﷺ برسالة الإسلام بعث الله عز وجل نبيَّه محمداً عليه السلام داعياً إلى دين الفطرة . . وهادياً إلى الحق ، ومرشداً إلى كل خير . . فنادى محمدٌ ﷺ فى الناس قائلا عن ربه عز وجل :

﴿ يٰأَيُّهَا النَّاسُ قدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ ، وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِينًا * فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنه وَفَضْل ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(١) .

نادى محمد عليه السلام فى الناس داعياً إلى الحق والخيرِ والهدى . . والناسُ فى لَهَفٍ شَديد ، إلى نورٍ جديد . . يُبَدِّد ظلماتِ المعتقداتِ الباطلة ، والأَفكارِ البشريةِ المُضِلَّةِ ، فأَقبلَ الناسُ على صوت الحق ، يدخلون فى دين الله أَفواجاً .

أَقبل الناس على دين الإسلام ، لأَنه الدينُ الذى يحقق لهم الخير فى الدنيا . . والفوز فى الآخرة .

فتعاليمُ الإسلام ونظُمه هى صراط الله المستقيم الذى لا عِوَج فيه ، ولا انحراف .

---

(١) النساء : ١٧٤ ، ١٧٥ .

الإسلام صراط مستقيم فى العقيدة إذْ دعا إلى التوحيد الخالص . . دعا إلى الإيمان بأن الله واحدٌ ، ولا معبودَ بحقٍّ سواه

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ • لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾(١) .

والإسلام صراطٌ مستقيم فى الأخلاق حثَّ على التحلِّى بالفضائل بلا إفراط ولا تفريط .. فلا جُبنَ ، ولا تَهَوُّر ، ولا استكبارَ ولا استخذاء : ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾(٢) .

والإسلام صراطٌ مستقيمٌ فى صلةِ الإنسان بالحياة ونعيمها ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾(٣) .

والإسلامُ صراطٌ مستقيم فى طريقة التشريع ، وَوَضْعِ القوانين التى تهدف إلى خيرِ الفرد والجماعة .. فالقرآن الكريم . . كتابُ الله عز وجل ، دستورٌ خالدٌ ، ومبادئه صالحةٌ لكل زمانٍ ولكل مكانٍ . . وقد أمرنا الله عز وجل وهو خالق البشر ، والعليمُ بما تَصْلُح به حياتُهم ، وتستقيمُ عليه أمورهم ، أمرنا سبحانه باتِّباع كتابه والعمل بسُنَّةِ نبيّه ﷺ والامتثال لما جاء به الوحى واتخاذه سبيلَ الحياة ودستورَها : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ﴾ (٤) .

ويقول عز وجل : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾(٥) .

---

(١) الأنعـــام : ١٦٢ ، ١٦٣ .
(٢) الإسراء : ٢٩ .
(٣) القصص : ٧٧ .
(٤) الأنعـــام : ١٥٣ .
(٥) الأعراف : ٣

أيها المسلمون :

الإسلامُ - يا عبادَ الله - هوَ دينُ الله الذى رضيه لعباده ، وتعاليمُ القرآن ، ومبادئُه هىَ صراطُ الله المستقيم الذى لا يضل سالِكُه ، ولا يهتدى تاركه . . ورسولُ الإسلام محمدُ بنُ عبدِ الله ﷺ هوَ رسولُ ربِّ العالمين إلى الناس كافةً . . أنقذ البشرَ برسالةِ الإسلام من الضلال .. ودعاهم إلى ما يُحقق لهم السعادة الكاملةَ فى كل جَوَانب حياتهم .

والمسلمون - يا عباد الله - بخيرٍ ما استمسكوا بكتابِ ربِّهم وسنةِ نبيِّهم ، ورجعوا إليها فى كل أُمورهم ، وجعلوا مبادئَ الإسلام أساس حياتهم .

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآتَيْنَاهُمْ مِّنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيماً * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيما ﴾ (١) .

وقال الهادى الحبيب ﷺ : « لقد تَرَكْتُكم عَلى المَحَجَّةِ البيضاء لَيْلُهَا كنهارها ، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِى إِلَّا هَالِكٌ » .

اللهم اهدِنا صراطَكَ المستقيم ، واتَّقوا اللهَ ، وتوبوا إليه ، وسلوا الله العافيةَ والمعافاة ، واطلبوا منه المغفرة يغفر لكم .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

---

(١) النساء : ٦٦ — ٦٨ .

الخطبة الثانية :

قال عليٌّ بنُ أبي طالب رضى الله عنه : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول « أَمَا إنها ستكونُ فِتْنَةٌ . قلتُ : فما المُخْرِجُ منها يا رسول الله ؟ قال : كتابُ الله تعالى ، فيه نبَأُ ما قبلَكُمْ وخَبَرُ ما بَعْدَكم ، وحُكْمُ ما بينكم ، هو الفصْلُ ليس بالهزْل ، مَنْ تركَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أَضلَّهُ اللهُ تعالى ، وهو حَبْلُ اللهِ المتينُ ، وهو الذِّكْرُ الحكيمُ ، وهو الصراطُ المستقيمُ ، وهو الذى لا تَزِيغُ به الأَهواءُ ، ولا تَلتبِسُ به الأَلسنةُ ، ولا تَشْبَعُ منه العلماءُ ، ولا يَخْلُقُ على كثرةِ الردِّ ، ولا تنقَضِى عجائبُه ،وهُو الذى لم تنتَهِ الجنُّ إذ سَمِعتْهُ حتى قالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا*يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ﴾(١). مَنْ قالَ بهِ صَدَق ، ومَنْ عملَ بهِ أُجر ، وَمَنْ حَكم بهِ عَدَل ، ومَن دُعِيَ إِلَيهِ هُدِى إلى صراطٍ مستقيم »(٢) .

---

(١) الجن : ١، ٢.   (٢) أخــرجه الترمذى

آية الكرسي تضمنت التوحيد النقي الخالص

الحمدُ للهِ ، نَحْمَدُه ونَستعينُه ونستغفِرُه ، ونعوذُ بهِ من شُرورِ أنفسِنَا . مَن يَهْدِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، وَمَن يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له ، ونَشْهَدُ أن لَا إِلٰهَ إلَّا اللهُ ، وأن محمداً عبدُه ورسولُه ، أرسلَه بالحقِّ بشيراً ونذيراً بينَ يَدَى الساعةِ . مَنْ يُطِعِ اللهَ ورسولَه فقد رَشَد ، ومن يَعْصِهما فقد غَوى . نسأَلُ اللهَ ربَّنا أن يجعلَنا مِمَّن يُطيعه ويُطيع رسولَه ، ويتَّبِعُ رضوانَه ويَجْتَنِبُ سخطَه ، فإنَّما نحنُ بهِ وله .

نحمده سبحانه أن هدانا للإسلام ، وجعلنا من أهل التوحيد الخالص ومن أتباع نبيه الهادى محمد صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى به ، وعمل بسنته وسلم تسليمًا كثيرًا .

يا عبــاد الله :

« كلُّ ما هُوَ آتٍ قريب ، ولا بُعْدَ لما هُو آتٍ . لا يُعَجِّل اللهُ لعَجَلَة أحدٍ ، ولا يَخِفُّ لأَمرِ الناس ، ما شاءَ اللهُ لا ما شاءَ الناسُ ، يُريد اللهُ أمرًا ويُريد الناسُ أمرًا ، ما شاءَ اللهُ كانَ ولو كَرِه الناسُ ، ولا مُبْعِد لما قرَّب اللهُ ولا مُقَرِّبَ لما بَعَّد اللهُ ، لا يكونُ شيءٌ إلا بإذنِ اللهِ جلَّ وعز » .

أمــا بعــد : . . . فيا أيها الموحــدون .

قال الله تعالى :

﴿ اللهُ لا إِلٰهَ إلَّا هُو الحيُّ القَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ ولا نَوْمٌ لَهُ ما فِي السَّمٰوات وما فِي الأَرْض مَنْ ذَا الذى يَشْفَعُ عندَه إلا بإذْنه يَعْلَمُ ما بيْنَ أَيديهِم وَمَا خَلْفَهُم ولا يُحِيطُون بِشَىءٍ منْ عِلْمِه إلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ

كُرْسِيُّه السَّمٰواتِ والأَرْضَ ولا يَئُودُه حِفْظُهُما وَهُوَ العَلِيُّ العظِيم ﴾ (١)

أفضل آيــة :

هذه آيةُ الكرسيِّ ، وهى ذاتُ شأنٍ عظيم ، إذْ تضَمَّنَت التوحيدَ ، وَنَفتْ عن الذات العَلِيَّة ما لا يليقُ بها ، وأثبتتْ لها صفات الكمالِ ونعوتَ الجلال ، وَبَينَتْ عظمةَ المُلْك ، وَدَلائلَ القدرة ، وبراهينَ الوَحْدَانية .

وعن أُبيٍّ بن كعب رضى اللهُ عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « يا أَبا المُنْذِرِ ، أتدرى أَىُّ آيةٍ من كتابِ اللهِ مَعَك أعظمُ ؟ قلتُ : ﴿ اللهُ لا إلٰهَ إلا هُو الحَىُّ القيُّوم ﴾ فضرب فى صدرى وقال : لِيَهْنِكَ العلمُ أبا المنذر » وقال : « والذى نفسى بيده إنَّ لها لِسانًا وَشَفتين تُقدِّس الملكَ عند ساقِ العرشِ » .

وكان عبد الرحمنِ بنُ عوفٍ إذا دخلَ بيتَه قرأ آيةَ الكرسيِّ فى زوايا بيتِه الأربع ، كأنه يَلْتَمِس بذلك أن تكونَ له حارسًا ، من جوانبِه الأربعة ، وأن تَنْفِى عنه الشيطانَ من زوايا بيته .

وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه صارع جِنِّيا ، فصرعَهُ عمر ، فقال له الجنِّى : خلِّ عنى ، حتى أُعَلِّمَكَ ما تَمْتَنِعُون به منَّا . فخَلَّى عنه ، وسأَله ، فقال : إنكم تَمْتَنِعُون منا بآيةِ الكرسيِّ .

واشتملت آيةُ الكرسىِّ على اسم « الله » واللهُ اسمٌ مختصٌ بالمعبود بالحقِّ ، لم يُطلقْ على غيرِه سبحانه وتعالى ، وَهُو عَلَمٌ عَلَى الذَّاتِ الواجبِ الوجودِ المستحقِّ لجميعِ المحامدِ ، وهو أعظمُ أسمائِه تعالى

---

(١) البقرة : ٢٥٥ .

لدلالتِه على الذاتِ العليةِ الجامعةِ لكل صفاتِ الألوهيةِ ، المنعوتةِ بنعوت الربوبية ، المنفردةِ بالوحدةِ فى الذاتِ والصفاتِ والأفعال .

﴿ لا إلٰـه إلا هُـو ﴾

إنها كلمةُ الإخلاصِ تدلُّ على نَفْى الإلٰهيةِ عن كلِّ ما سِوىٰ اللهِ تعالى كائنًا مَنْ كان وإثباتِ الإلهيةِ للهِ وحْدَه دون ما سِواه ، فهو سبحانه المنفرد بالإلٰهيةِ لجميع الخلائقِ ، وهذا هو التوحيدُ الذى دَعت إليه رسلُ اللهِ صلواتُ اللهِ وسلامُه عليهم أجمعين ، ودلّ عليه القرآنُ الكريم .

و « لا إلٰه إلا الله » أَصدقُ الكلام ، وأَهلُها العالمون بها ، العاملون بمقتضاها هم أَهلُ اللهِ وحِزْبُه ، والمنكرون لها هم أَعداءُ الله ، وأَهلُ لغضبه ونقمَتِه لأَنهم شِرارُ الناس .

﴿ الحىُّ القيُّوم ﴾ : ﴿ الحىُّ ﴾ : أَى المتصفُ بالحياةِ الأَبديةِ التى لا بدايةَ لها ولا نهايَة ، فهو سبحانه الباقى الذى لا سبيلَ عليه للفناءِ ، قال تعالى : ﴿ وَتَوكَّلْ عَلَىٰ الحىِّ الَّذِى لا يَمُوت ﴾ ، و ﴿ القيوم ﴾ : الدائم القيام بتدبير الخلق وحفظه ، فهو سبحانه القائم على كلِّ نفسٍ بما كسبتْ حتى يجازِيَها بعملِها من حيثُ هو عالمٌ بها لا يَخْفَىٰ عليه شىْءٌ من أُمورِها ، وهو سبحانه القائم الحفيظُ لكلِّ شىء ، والمعْطِى له ما بِه قوامه ، كما قال تعالى : ﴿ الَّذِى أَعْطَىٰ كُلَّ شَىءٍ خَلْقَه ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ .

ومن تمامِ القيُّوميةِ أَنَّه سبحانَه ﴿ لا تأْخُذُه سِنَةٌ ولا نَوْمٌ ﴾ والسِّنَةُ ما يَتَقَدَّم النعاسَ فإذا صار فى القلبِ سُمِّى نوما ، فهو سبحانه له الكمال المطلقُ لا يعتريه نقصٌ ولا غفلةٌ ولا ذُهولٌ عن خلقه ، وهو تأْكيدٌ للقيُّوم القائِم على كلِّ نفسٍ بما كسبت ، الحفيظِ لكل شىء لا يغيب عنه سبحانه شىء ، ولا تخفى عليه خافيةٌ .

﴿ له مَا فِى السَّمٰواتِ ومَا فِى الأَرض ﴾

وكلٌّ ما فى السموات والأَرضِ خاضعٌ لحكمِه ، واقعٌ تحت سلطانِه وقهرِه ، لا يشاركُه أحدٌ فى هذا الملكِ ، وليس لأَحدٍ معه أَمرٌ ولا نَهْىٌ ، ولنتدبرْ قولَه تعالى :

﴿ إن كُلُّ مَنْ فِى السَّمٰواتِ والأَرْضِ إلَّا آتِى الرَّحمٰنِ عَبْدًا ﴾ .

ولتأْكيدِ بيانِ هذا الملكوتِ العظيمِ تُقرِّر الآيةُ أَن أَحدًا لا يتمالك أَن يشفعَ لأَحدٍ يومَ القيامةِ إلَّا إذا أَذِنَ له الرحمن ﴿مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَع عِنْدَه إلا بإذْنِه ﴾ .

كما قال تعالى : ﴿ لَا يَتَكَلَّمون إلا مَنْ أَذِنَ لَه الرَّحْمَن ﴾ ثم إنَّهم ـ أَيضًا ـ لا يَشْفَعون إلا لِمَن ارْتَضَىٰ ، وهذا دليل عَظمتِه سبحانه وجلالِه وكبريائِه ، ومن حديث الشفاعةِ يقول الهادى الحبيب ﷺ : « . . آتى تحتَ العرشِ فأَخِرُّ ساجِدا ، فيَدَعنِى ما شاء الله أَن يَدَعَنِى ، ثم يقال : ارفَعْ رأْسَك واشْفَعْ تُشَفَّعْ ، ـ قال ـ فَيَحدّ لى حَدًّا فأُدْخِلُهم الجنَّة » .

وهو سبحانه ﴿ يعْلم ما بينَ أَيديهم وما خَلْفهم ﴾ :

وَعِلْم الله عز وجل محيط بجميع مخلوقاته ماضيها ، وحاضرِها ، ومستقبلها ، يعلم ما كان منهم وما سيكونُ ، ويعلم دنياهم وأُخراهم .

أَما علْم البشرِ فقاصرٌ مهما ارتقت علومهم ومعارفُهم ، فهم لا يعلمون إلا ما شاء الله أَن يعَلِّمهم ، وما علَّمه لعبادِه أَشبهُ بما يأْخذُ منقارُ العصفورِ من ماء البحرِ إذا قِيسَ بعلمِ الله تعالى ، وما أَراد اللهُ أَن يُمِدَّ به عبادَه من المعلوماتِ عَلَّمهم إياه ، وييسّر لهم سبلَ التحصيلِ ، فالأَمرُ بيده وحده ﴿ ولا يُحِيطُون بشىءٍ من عِلْمِه إلا بما شَاءَ ﴾ ولذا أدر

الله نبيَّه بقوله : ﴿ وَقُلْ ربِّ زِدْنِى عِلْما ﴾(١) .

﴿ وَسِعَ كرسيُّه السمٰواتِ والأَرْضَ ولا يئُوده حِفْظُهما ﴾ :

وتلك آيةٌ من آياتِه الدالَّةِ على عظيمِ قدرتِهِ عز وجل ، وممَّا يجبُ علينا أن نؤمنَ به من عَالَمِ الغيبِ الذى أَخبر اللهُ به فى كتابِه وعلى أَلسنِة رُسُلِه وفى الكرسىِّ يقول الرسولُ الحبيبُ ﷺ :« يا أبا ذر ، ما السمواتُ السبعُ مع الكرسىِّ إلا كَحَلْقَةٍ مُلقَاةٍ فى أَرضٍ فلاةٍ - صحراء- وفضلُ العرشِ على الكرسىِّ كفضلِ الفلاةِ على الحلقةِ » .

وهذا يُنبئُ عن عظم مخلوقاتِ اللهِ عز وجل ، فكيف يُعجِزُه حفظُ السموات والأَرض ومَن فيهما ، وما فيهما ، وما بينهما ، بل حِفْظُهما سهلٌ يسيرٌ لديه سبحانه وتعالى ، لا يَئُوده ذالك ، ولا يَشُقُّ عليه ، ولا يُثْقِلُه .

والكون البديعُ الجميلُ المحيطُ بنا بما فيه من تناسق ونظامٍ ، وما تناثر فيه من كواكبَ ونجومٍ ، وما جرى على يابستِه من بحارٍ وأَنهارٍ كلُّ هذا وغيرُهُ مضت عليه أُلوفُ السنين وهو مُسَخَّر لما خُلِقَ له ، لم يختلّ نظامُه ، ولا تصادمت أَجرامُه . . أَلا يدل ذالك كلُّه على وجود الخالقِ المدبِّرِ الحكيمِ القادرِ العالم ﴿ الَّذِى أَعْطَى كلَّ شىْءٍ خَلْقَه ثُمَّ هَدى ﴾(٢) .

﴿ وهو العلىُّ العظيمُ ﴾

حقًّا . . . إنه العلىُّ الشأْنِ الذى علا بذاته وبصفاته عن مداركِ الخلقِ بالكُنْهِ والحقيقةِ ، وتاهت الأَلبابُ فى جلالِه ، فهو عزَّ وجل

---

(١) طه : ١١٤ . (٢) طه : ٥٠ .

الأعلى من كلِّ شيءٍ ولذا أمرنا بقوله : ﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَىٰ ﴾ (١).

وهو سبحانه « العظيم » القدرةِ الذى لا تصلُ العقولُ إلى كُنْهِ ذاتِه ، ولا تُدركه الأَبصار ، فهو سبحانه أَعظم من كل عظيم فى ذاته ، ووجوده وَعِلْمه ، وقُدرته ، وسُلطانه ، وحِكمته ، ونفاذِ حُكمه : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىءٌ ﴾(٢) فسبحان ربِّى العظيم الآمر بقوله : ﴿ فسبِّحْ باسمِ ربِّكَ العَظِيم ﴾ (٣) .

فاتقوا الله – عباد الله – وأَخلصوا التوحيد ، واجعلوا عبادتكم خالصة لله وتوبوا إليه يتب عليكم ، واستغفروه يغفر لكم .

عن على بن أَبى طالب رضى الله عنه أَن رسول الله ﷺ قال : يقول الله عز وجل فى الحديث القدسى :

« إِنِّى أَنا اللهُ لا إِلٰهَ إِلا أَنا ، مَنْ أَقرّ لى بالتوحيد دَخَل حِصْنِى ، وَمَنَ دَخَل حِصْنى أَمِنَ عَذَبِى » .

وعن ابن عباسٍ رضىَ اللهُ عنه أَن رسُولَ الله ﷺ قال : يقولُ ربُّ العزَّة فى الحِديث القدسىِّ :

« مَنْ عَلِمَ أَنى ذو قُدْرة على مَغْفِرَةِ الذُّنوبِ ، غفرتُ له ولا أُبَالى ما لم يُشرك بى شَيئًا » .

أَقول قولى هذا وأَستغفر الله لى ولكم .

---

(١) الأعلى ١ .
(٢) الشورى ١١ .
(٣) الواقعة ٩٦ .

احفظوا أيمانكم ولا تحلفوا إلا وأنتم صادقون

قال الحقُّ تبارك وتعالى :﴿ ولا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيمانِكم أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ واللهُ سَمِيعٌ عليمٌ * لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ باللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُم وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَت قُلُوبُكُم واللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١) .

شُرِعت اليمين فى الشريعةِ المطهرة صيانةً للحقوق من الضياع عند عدم القدرةِ على إقامةِ البيِّناتِ ، وعند إنكارِ الخَصْم على ذى الحقِّ حقَّه ، ذلك أن الذى عليه الحقُّ ولا بينةَ عليه إذا طولب باليمين ليكُفَّ يدَ خَصْمِه ربما أدركته الخشيةُ من الله فيتصور عظمةَ شأنِ اللهِ القاهرِ فوق عبادِه ، فتحصُل عنده الإنابة وتَردّه إلى الحق الرهبة من عقاب البارئ عزَّت قدرتُه فيعطى الحقَّ لمستحقِّه وتنحسرُ المنازعاتُ .

هذه هى الحكمةُ التى لأَجلها شُرعت الأَيمان ، ولكن كثيرًا من الناس ذهبوا بها فى غير مذهبِها ، وتجاوزوا الحدَّ بها فى موضعِها وفى غيرِ موضعِها ، وجرت الأَيمانُ على أَلسنتهم عن قصد وعن غير قصدٍ ، وبمناسبةٍ وفى غيرِ مناسبة مع أَن المؤمنَ مأْمورٌ أَن يحفظَ أَيمانَه ، وبأَن يصونَ اسم الله عن كثرة الترداد ، وبأَلا يجعلَهُ مضغةً فى فمه .

ونحن حين نتدبرُ قولَ الله تعالى:﴿ولا تجعَلوا الله عرضةً لأَيمانكم﴾ نجد الآية الكريمة ترشدنا إلى ترك الحَلِفِ بالله تعالى إلا عند الحاجة إلى ذلك إذ معنى :﴿ ولا تجعلوا الله عرضةً لأَيمانكم ﴾ أى لا تكثروا الحلفَ باسمه تعالى ، ولهذا أَمر الله المؤمنين بحفظ أَيمانهم فقال

---

(١) البقرة : ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

﴿ واحْفَظُوا أَيْمَانكُم ﴾ (١) وذمّ سبحانه الشخص كثير الحلف فقال :
﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴾ (٢) .

والإنسان إذا أكثر الحلِفَ قلّت مهابتُه وكثُر حِنْثُه واتُّهم بالكذب وانعدمت ثقة الناسِ به ، وفاته ما يريدُ من قبول قولِه وتصديقه، قال بعضُ المفسرين : من مذامٍّ كثرة الحلف أنه يقلل ثقة الإنسان بنفسه وثقةَ الناسِ به ، فهو يشعرُ بأنه لا يصدَّقُ فيحلفُ ، ولهذا وصَفه اللهُ تعالى بالمهين ، وكثيرًا ما يُعَرِّضُ الحلافُ نفسَه للخطإ إذا حلف على المستقبل ، ثم إنه لا يكون إلا قليل الخشية والتعظيم لله تعالى ، لا يُهِمُّه إلا أن يُرضى الناس ويكونَ موثوقًا به عندهم ، فتعريضُ اسمِ الله تعالى للحلف بدون سبب قوى ولا حاجة داعية إليه ، ينشأ عنه فقد هيبة الله وإجلاله فى نفسِ الحلَّافِ ، وعلى هذا فيكون قوله تعالى : ﴿ أَن تَبرُّوا وتتَّقوا وتُصْلِحُوا بينَ النَّاسِ ﴾ علةً للنهى ، أى لا تجعلوا الله معرضا لأيمانكم إرادةَ أَن تَبَرُّوا وتتقُوا وتُصلِحُوا لأَن من يُكثِرُ الحلفَ بالله يجترئُ على الحِنْث إذ قد يعجز عن الوفاء بيمينه .

﴿ والله سميعٌ ﴾ أى لأقوال العباد ولما يلفظون به من الحلف وغيره .
﴿ عليم ﴾ بنياتهم وبما يصدرُ عنهم فعلى العبدِ أن يراقبَ ربَّه ، وأن يحاسبَ نفسَه عند كلِّ قول أو عملٍ ليكون من المفلحين .

إذا كان الله عز وجل قد نهانا عن أن نجعل اسمه الكريم عرضة لأيماننا ولو حقًّا فكيف يستبيح إنسانٌ الحلفَ بالله كذبًا ، لقد عظَّم الله سبحانه وتعالى جزاءَ الذين يشترون بأيمانهم ثمنا قليلاً ، وأوعدهم بحلول نقمتِه عليهم جزاءَ اجترائهم على الإقدام على الأيمان مع الإصرار

---

(١) المائدة : ٨٩ . (٢) القلم : ١٠ .

على الكذب فقال عز وجل: ﴿ إن الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأَيْمَانِهِم ثَمَنًا قَلِيلاً أُولئكَ لا خَلَاقَ لَهُمْ فى الآخرةِ ولا يُكَلِّمُهم اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِم يَوْمَ القيامَةِ ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَليمٌ ﴾ (١) .

إن الكذِبَ فى نفسِه جريمةٌ ، لأَنه قلبٌ للحائق ، وتعميةٌ على الناسِ وفيه ضلالٌ وإضلالٌ كما أَن الكذب داعية إلى فقدِ الثقةِ فى المعاملة وفى المحادثةِ فإن انضمَّ إليه تأْكيدُه بالأَيمانِ الكاذبةِ كانت الجريمةُ أَكبر ، ولنتدبر — أَيها المؤمنون — الوعيدَ الذى جاءَ فى الحديث الشريف .

يقول الصادقُ الأَمينُ ﷺ : « من حلف على يمينٍ صَبر (٢) وفى رواية : يمينٍ كاذبة ليقتطعَ بها مالَ امرئٍ مسلمٍ لقِيَ اللهَ وهُو عليه غضبان . وفى رواية فلْيتبوأْ مقعدَه من النار » .

فالحبيبُ الهادى ﷺ يُبيِّنُ لنا أَنَّ من أَقْدَمَ على حَلفِ اليمين الكاذبةِ ليهتضمَ بها حقوقَ الناسِ ، غضِبَ اللهُ عليه يومَ لقائِه ، ومن يَحْلِلْ عليه غضبُ الله عز وجل فقد خَسِر الدنيا والآخرة .

والذى يحلف بالله كذبًا متعمِّدًا سميت يمينُه غَموسًا ، لأَنها تَغْمِسُ صاحبها فى الإثم الذى يستحق به النار ، واليمينُ الغموسُ من الكبائر ولا يكَفِّرُها عِتْقٌ ولا صدقةٌ ولا صيامٌ ، بل لابد من التوبة الصادقة وأَداءِ الحقوق والاستقامة ، وقد جاءَ فى الحديث الذى رواه عبدُ الله ابنُ عمر رضى الله عنهما أَن رسول الله ﷺ قال : « الكبائرُ الإشراكُ بالله ، وعقوقُ الوالدين ، وقتلُ النفسِ ، واليمينُ الغموس» .

فليحذر المؤمنُ من غضب ربِّه ، وليحفظْ لسانه عن الحلِف ،

(١) آل عمران : ٧٧ .

(٢) يمين صبر ، وفى رواية « يمين مصبورة » وهى اللازمة لصاحبها من جهة الحكم ، فإذا كذب الحالف اشتد إثمه .

وليحذر الكذبَ فيه وبخاصة إذا كان القصدُ من الحلف أكل حقوق الناسِ بالباطل ، أو الخيانة والغشّ .

لقد كان من فضل الله علينا ورحمتِه بنا أن رفع عنا سبحانه وتعالى إثمَ الأيمان التى تجرى على اللسان من غير قصدٍ لليمين ، ولا إرادةٍ للحلفِ ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ باللَّغْو فى أَيْمانِكُم وَلَكِن يُؤَاخِذُكُم بمَا كَسَبَتْ قُلُوبكُم واللهُ غَفُورٌ حَلِيم ﴾ (١) .

واللغو هو الساقطُ الذى لا يُعتَدُّ به من كلامٍ وغيره ، واللغْو من اليمين هو الساقطُ الذى لا يُعْتدُّ به فى الأَيمان وهو الذى لا عَقْدَ مَعَه .

وفى اليمين التى هى لغو يقول ابن عباس رضى الله عنهما : هو قول الرجل فى دَرَجِ كلامه واستعماله فى المحاورة « لا والله وَبَلَى والله » دون قصد لليمين . وقال المروزى : لغو اليمين التى اتفق العلماءُ على أنها لغو هو قول الرجل: « لا والله وبلى والله » فى كلامه وحياته غيرَ معتقد لليمين ولا مريدِها .

وقال أبو هريرةَ رضى الله عنه إذا حلف الرجل على الشىء يظنُّه على ما حلف عليه ثم يَظْهَر خلافُه ،أى فإذا ليس هو فهو اللغو ، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه ، وقال به مالك ، ومثاله كما إذا حلف شخصٌ بالله أنه لا نقودَ معه الآن ظانًّا أنها ليست معه ، وهى معه ، أو حلف أنه ما ذهب إلى السوق أمس معتقداً صِدْقَ نفسِه مع أنه ذهب إليها .

قال مالك : أحسن ما سمعتُ فى هذا أن اللغو حلف الإنسان على الشيء يستيقنُ أنه كذلك ثم يُوجد الأمر بخلافِه فلا كفارةَ فيه ،

---

(١) البقـرة : ٢٢٥ .

والذى يحلفُ على الشىء وهو يعلمُ أنه فيه آثمٌ كاذبٌ ليرضى به أحدًا ، أو يعتذرَ لمخلوق ، أو يقتطعَ به مالاً فهذا أعظمُ من أن يكونَ فيه كفارةٌ ، وإنما الكفارة على مَنْ حلفَ ألا يفعلَ الشيءَ المباحَ له فعلُه ثم يفعله ، أو حلف أن يفعله ثم لا يفعلَه مثل أن يحلفَ ألا يبيعَ ثوبهُ بعشرةِ دراهمَ ثم يبيعه بمثل ذلك ، أو حلف ليسافرنَّ غدًا ثم لا يسافر.

والمعنى لا يؤاخِذُكم اللهُ أى لا يعاقبكُم بلغو اليمين الذى يَحلف أَحدُكم بالظنِّ ولكن يعاقبكم بما كسبت قلوبكم أى اقترفته من إثم القصدِ إلى الكذب فى اليمين وهو أن يحلفَ على ما يعلمُ أنه خلافُ ما يقولُه ، وهى اليمينُ الغمُوس . . . والمعنى لا يُؤاخِذُكم أى لا يُلْزمُكُم الكفارة بلغو اليمين الذى لا قصدَ معه ، ولكن يُلْزمكم الكفارةَ بما كسبت قلوبُكم ، أى بما نَوَت قلوبُكم وقصدت من الأَيمان ، ولم يكن كسبِ اللسانِ وحده ، وتِلك هى اليمينُ المنعقدة »﴿والله غفورٌ حليمٌ ﴾ حيث لم يؤاخذكم باللغو فى أيمانكم فضلا منه سبحانه وإحسانا ورحمة بعباده .

أيها المؤمنون :

إن المسلمَ إذا حلفَ فلا يحلِفُ إلّا باسمٍ من أَسماءِ الله تعالى أو بصفةٍ من صفاتِه ، ولا يحلفُ إلا وهو صادقٌ ، ولا يحلفُ إلا عند الحاجةِ الملجئةِ لِلْحَلِفِ لإظهار حقٍّ ، أو دفعِ تُهمةٍ وظلمٍ وإبطال باطل ، وليحذر التاجرُ المسلمُ الحلفَ فى البيع والشراءِ لأَن كثرةَ الحلفِ تفْقِدُ الثقةَ ، واللهُ أمرنا بأَن نحفظ أَيمانَنا .

إن الحلف تعظيم وتقديس ، والتعظيم والتقديس لله وحده ، وإن الحلفَ مع تعمُّد الحالفِ الكذبَ إثمُه عظيمٌ ، وعلى صاحبه أَن يتوب إلى الله توبةً نَصوحا نادمًا على ما كان منه وهذِه هى اليمينُ الغَموس ، أَما إذا حلف المسلمُ على أَمر مباحٍ يريدُ عملَه فى المستقبل العاجل أَو الآجل

ثم لم يعمله أو على شيءٍ أنه لا يفعله ، ثم فعله فهذه هى اليمينُ المنعقدة وفيها الكفارةُ عند عدمِ الوفاءِ بما حلف عليه بإطعامِ عشرةِ مساكينَ أو كسوتِهم ، أو تحرير رقبةٍ ، فمن لم يجد صام ثلاثة أيام .

قال الله تعالى : ﴿لا يُؤَاخِذُكُم اللهُ باللَّغْو فى أَيْمَانِكُم وَلَكن يُؤَاخِذُكم بما عقَّدتُّمُ الأَيْمانَ فكفارتُه إِطْعامُ عَشَرة مساكِينَ مِنْ أَوْسطِ ما تُطعِمُون أَهْليكُمْ أَوْ كِسْوتُهُم أو تَحْرِير رقبةٍ فَمنْ لمْ يَجِدْ فصِيَامُ ثلاثةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُم وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلكُمْ تَشْكُرون ﴾ (١).

ومن فضلِ اللهِ علينا أن تجاوز لنا عن الأَيْمَان التى تجرى على اللسان بدون قصدٍ ، ولا نيَّة ، ولا يُرادُ منها عزمُ الشخصِ على فِعْلِ شىءٍ أَو تركِه ، كما رحمنا بعدم المؤاخذة على اليمين يحلفها المسلم معتقداً صدقَ نفسِه ثم يتبين له أنه كان ناسيًا وهذه هى اليمينُ اللَّغو .

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : سمِعَ رسولُ الله ﷺ عُمَرَ رضى الله عنه يحلف بأبيه ، فقال : « إن اللهَ ينهَاكُم أَنْ تَحْلِفُوا بآبائِكُم ، فَمَن كان حالفا فليحْلِفْ باللهِ أَو ليصْمِتْ » .

وأمر رسول الله ﷺ المسلمين أن يقولوا:« وربِّ الكعبةِ » إذا أَرادوا أن يحلفوا ولا يقولوا « والكعبة » .

وعن إياس بن ثعلبة الحارثى رضى الله عنه : قال : قال رسول الله ﷺ : « مَن اقْتَطَعَ حقَّ امرىءٍ مسلم بيمينه فقد أَوجبَ اللهُ له النَّارَ ، وحرّم اللهُ عليه الجنَّةَ » قالوا ولو شيئًا يسيراً يا رسول اللهِ ؟ قال : « ولو كان قضيبا مِنْ أَرَاك » .

فاتقوا الله فى الأَيمان ، وراقبوه فى أقوالكم واخشوه فى كل شؤونكم وتوبوا إليه لعله يرحمكم .

---

(١) المـائدة : ٨٩ .

مَنْ أولياءُ الله ؟

أما بعد : فقد قال الله تعالى :

﴿ ألا إن أولياءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِم ولا هُمْ يَحْزَنُون *الَّذِين آمَنُوا وكانُوا يَتَّقُون ﴾ (١) ».

أيها المؤمنون :

يُخبر الله عز وجل أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون ، فكل من كان تقيا كان لله وليًّا .

كلُّ مَنْ آمن بالله وأطاعَهُ ووالاَهُ فأَحبَّ ما يُحبه اللهُ ، وأبغض ما يُبْغِضه اللهُ ، وائْتَمَرَ لما أمر به ، وانتهىٰ عمَّا نهى عنه ، ورضِيَ بما يَرْضَىٰ ، وأعطى مَنْ يُحِبّ أن يُعطي ، ومنع من يحب أن يُمنع ، فهو وليٌّ لله ، ومن كان كذلك فإن الله يتولى حفظَه ورعايته ويواليه بإحسانه فهو سبحانه : ﴿ يتولَّى الصالحين ﴾ .

والله عز وجل يقول : ﴿اللهُ وليُّ الَّذِينَ آمنُوا يُخْرِجُهُمْ من الظُّلماتِ إلى النُّور والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم من النُّورِ إلى الظُّلُمَاتِ أُولٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيها خَالِدُون ﴾ (٢) .

فالناس إما أولياء لله عزَّ وجل يواليهم بإحسانه ويُنيرُ بصائرهُمْ بالحقِّ ، وإما أولياءُ للطاغوت [الشيطان]يصدُّهم عن الهدى، ويُوردُهم مَواردَ الرَّدَى ، وإذا كان أولياءُ الله هم المؤمنين الصالحين الأَتقياء فإنه تبعًا لذلك تتفاوتُ درجاتُهم ، فمَنْ كان أكمل إيمانًا وأشدَّ تقْوى كان أكملَ

---

(١) يونس ٦٢ ، ٦٣ . (٢) البقرة : ٢٥٧ .

وَلَاية وذلك أن الناس يتفاضلون فى وَلاية الله عز وجل بحسب تفاضلهم فى التقوى والإيمان ، ولذا فإن أفضلَ أولياء الله هم أنبياؤه وأفضلَ أنبيائِه المرسلون منهم ، وأفضلَ المرسلين أولو العزم : نوحٌ وإبراهيمُ وموسى وعيسى ومحمدٌ عليهم صلواتُ الله وسلامه ، وإن أفضلَ أولى العزم محمدٌ ﷺ فهو سيدُ الأولياء ، وإمامُ الأنبياء ، وفى الحديث :

« . . . وأنا أكرمُ وُلْدِ آدمَ على ربِّى ولا فَخرَ » ، وقال : « أنا سيدُ وُلْدِ آدَمَ يومَ القِيامةِ » . وفضائلُه وفضائلُ أُمَّتِه صلى الله عليه وسلم كثيرة .

وأولياءُ الله يُوجَدون فى جميع مَنْ آمنَ بالنبىِّ محمدٍ ﷺ وأطاع الله ورسولَه ، ولم يكنْ من أهل البِدَعِ الظاهرة والفجورِ : فالأولياءُ يوجدون بين أهلِ القرآنِ ، وأهلِ العلمِ وفى أهل الجهاد ، كما يوجدون فى التجارِ والصُّناع والزُّراع وغيرِ هؤلاء من كلِّ مَنِ استقام واعتدلَ على طاعة اللهِ عَقْدًا وقَوْلًا وفِعْلًا وداوم على ذلك حتى يأتيَهُ اليقين ، قال الحقُّ تبارك وتعالى

﴿ إن الذينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُم استَقَامُوا تتنزَّلُ عليهم الملائِكةُ ألَّا تَخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأَبْشِرُوا بالجَنَّةِ الَّتِى كُنْتُمْ تُوعَدُونَ * نحنُ أولياؤُكم فى الحياةِ الدُّنيا وفى الآخِرَةِ ولَكُم فيها ما تَشْتَهِى أنفسُكُمْ ولكُمْ فِيها ما تَدَّعُونَ * نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رحِيم ﴾ (١)

فالأتقياءُ الصالحون أولياءُ الله لا يحزنون على ما خلَّفوا وراءهم فى الدنيا ، ولا يخافون مِمّا يستقبلون من أهوال الآخرة إذ : ﴿لهمُ البُشْرىٰ

---

(١) فصلت : ٣٠ — ٣٢ .

فى الحياةِ الدُّنيا وفى الآخرة ﴾ فالولىّ عند موته يقول له مَلَكُ الموت : « السلامُ عليك يا ولىَّ الله ، اللهُ يقرئك السلام » إنها تحيةٌ مباركة تملأُ القلبَ أمنًا وسرورًا ، يقول الله عز وجل :

﴿الَّذِين تَتَوفَّاهم الملائكةُ طيبِّين يقولونَ سَلام عليكُم ادْخُلوا الجَنةَ بما كُنْتُمْ تَعْمَلُون ﴾ (١) .

وفى حديثِ البراء : إنَّ المؤمنَ إذا حضره الموتُ ، جاءه ملائكة بيضُ الوجوه والثيابِ ، فقالوا : اخْرجى أَيتها الروح الطيبةُ إلى رَوْحٍ وَرَيْحَان وربٍّ غيرِ غَضبان ، فتخرجَ من فمِه كما تسيل القطرةُ من فَم السقاء » .

ومن بشْراهم فى الآخرة كما قال تعالى :

﴿لا يَحْزُنُهمُ الفزع الأَكبر وتتلقَّاهم الملائكةُ هَذَا يومكُم الَّذِى كُنْتُم تُوعَدون ﴾ (٢) .

يا أهـل الإيمـان :

ومن أَمارات أَولياءِ اللهِ أَنهم يستديمون الخوفَ من الله والخشيةَ من غضبه وانتقامِه إلى أَن تتنزلَ عليهم الملائكة لتبشرَهم ، وتُلْقِى عليهم السلام .

وإن الَّذِين بُشِّروا بالجنةِ من أَصحابِ رسولِ الله ﷺ لم يَزلْ خَوْفُهم بسببِ هذه البشْرى بل كانوا أَكثرَ تعظيمًا لله عز وجل ، وأَشَدَّ خوفًا وهيبةً .

والولىُّ ــ أَيضًا ــ تُذَكِّر بالله رؤيتُه ، فعن ابن عباس قال : قال رجل :

(١) النحل : ٣٢ .　　(٢) الأنبيـاء : ١٠٣ .

يا رسولَ الله ، من أولياءُ الله ؟ قال :«الذين إذا رءُوا ذُكِر الله »وفى رواية عن عمر رضى الله عنه : « الذين يُذْكَر الله برؤيتهم ».

والولىُّ يؤدِّى فرائضَ اللهِ لأَنَّها أَحبُّ الأَعمال إلى الله ، ويدخل فيها الفرائضُ الظاهرةُ والفرائضُ الباطنةُ ، أَما الظاهرةُ فهى ما أُمِرَ العبد بفعله كأَداءِ الصلواتِ ، وإخراجِ الزكاة ،وصومِ رمضانَ وحجِّ البيت من استطاع إليه سبيلاً ، وكذلك ما أُمر العبد بتركه كتركِ السرقة والزنى وشربِ الخمر والنميمةِ والغيبةِ وكلِّ ما حرَّمه الله على عباده ، ونهى عنه . . أما الفرائض الباطنةُ فهى المتصلة بالعقيدةِ كالعلمِ بالله والتوكلِ عليه وتوحيدِه والإيمانِ بكلِّ ما أَخبر به فى كتبه وعلى أَلسنةِ رسلِه . . فكلُّ من صحَّت عقيدتُه وطهُر باطنه وظاهِره واستقام على أَمر الله ، فهو ولىٌّ لله على تفاوتٍ فى درجاتِ الأَولياءِ تَبعًا لتفاوتِ درجاتِهم فى التقوى ومنازِلهم فى الإيمان .

يا أيها المؤمنون :

قال رسول الله ﷺ :« يقول الله عز وجل : من عَادَىٰ لى وليًّا فقد آذنتُه بالحرب ، وما تقرَّب إلىّ عبدى بشىءٍأَحبَّإلىَّمِمَّا افترضتُعليه» .

فإذا أَراد العبد أَن يترقى فى منازلِ الصالحين ، ويصعد فى مدارجِ الوَلَايةِ فعليه أَن يداومَ على أَداءِ الفرائضِ أَولا ، وأَن يكْثِرَ من النوافِل ثانيا فإذا فعل مع الإخلاص والرغبة فيما عند الله تولَّى الله أَمرَه ظاهِره وباطنَه وكفَّ حواسَّه عن الشرور والمعاصى وفى الحديث القدسىِّ :

« وما يزال عبدى يتقربُ إلىّ بالنوافل حتى أُحبَّه ، فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعَه الذى يَسْمع به ، وبَصَره الذى يبْصِر به ، ويَده التى يَبْطِشُ بها ، ورِجْلَه التى يمشى عليها ، ولئن سأَلنى لأُعْطِيَنَّه ولئن استعاذَ بى لأُعيذنَّه » .

أى تصير حواسه منقادةً لأمرِ الله ، خَيِّرةً دائمًا بتوفيقٍ من الله وفَضْل .

فإذا وصل العبد إلى هذه المنزلةِ كان المعادى له معاديًا لله عز وجل ، ومن عاداه فقد حاربَه وفى الحديث :« فَبِى يَسْمَعَ وَبى يبْصِر وَبِى يَبْطِش وبِى يَمْشِى» وفى حديث قدسى :« إنِّى لأَثْأَرُ لأَولِيَائِى كَمايَثْأَر اللَّيثُ الحَرِب »

والمؤمن التقىُّ يُحِبُّ أَهلَ التَّقــوى والصلاح ، ويؤاخِيهم لله ، وفى هؤلاءِ يقول النبىُّ ﷺ « إنَّ من عبادِ الله عبادًا ما همْ بأَنبياء ولا شهداءَ تغبطُهم الأَنبياءُ والشهداءُ يومَ القيامة لمكانهم من الله تعالى ، قيل: يا رسولَ الله ، خبِّرنا مَنْ هم ؟ وما أَعمالُهم فلعلَّنا نُحِبُّهم ؟ قال : هم قَومٌ تَحَابُّوا فى اللهِ على غيرِ أَرحامٍ بينهم ولا أَموالٍ يَتعاطَوْنها ، فوالله إن وجوهَهم لنورٌ ، وإنهم على منابرَ من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ، ولا يَحْزنون إذا حزِن الناس ، ثم قرأَ : ﴿ أَلا إنَّ أَولياءَ الله لا خوفٌ عليهم ولا هم يَحْزنون ﴾ » .

أيها المؤمنون :

إن أَولياءَ الله المتقين هم المقتدون برسولِ الله ﷺ ، فيفعلون ما أَمر به ، وينتهون عما نَهَى عنه وزجر ، ويتَّبعون سنَّته ، ولا يخرجونَ على شريعته ، فيؤيدهم الله بملائكته وروحٍ منه ، وينير قلوبَهم بهدايتهِ ، ولهم الكراماتُ التى يكرِم الله بها أَولياءَه المتقين وخيارَ أَولياءِ الله ، وهذه الكراماتُ إنما تحصل بِبَركةِ اتِّباعِ النبىِّ المصطفى ﷺ ، وبهذا يكونون من أَهل النعيم .

عن تميم الدارى عن النبى ﷺ قال :

« يقول الله لمَلَكِ الموتِ : انْطَلِقْ إلى وَلِيِّى فلان فأْتِنِى به فإنَّه قد جرَّبْتُه بالسَّراءِ والضَّراءِ فوَجدتُه حيثُ أُحِبُّ ائتِنِى به فلأُريحنَّه » .

فطُوبى لمن سَلك طَريقَ التُّقى والهُدى ، وأَقامَ الفرائضَ واجتهد فى سائر الطاعات ، وداوم على الإخلاص ليكون ذا منزلة بين أَولياءِ الله الصالحين .

واتقوا الله وتوبوا إليه — عباد الله — فالتائب النادم كمن لا ذنب له .

منزلة السنة النبوية من القرآن الكريم *

أما بعد . . فيا أيها المؤمنون :

قال الله تعالى : ﴿ ومَا آتَاكُم الرَّسول فَخُذُوه وَما نَهَاكُمْ عَنْه فَانْتَهُوا ﴾ (١) .

وقال جل شأنه : ﴿ وأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ للنَّاسِ مَانُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾(٢)

وقال سبحانه :﴿ فَلْيَحْذرِ الَّذِينَ يخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهمْ فِتْنَةٌ أَوْ يصِيبَهمْ عَذَابٌ أَليم ﴾ (٣) .

أيها المؤمنون :

إن هذه الآياتِ دلت على وجوب اتِّباع أمر النبيِّ محمد ﷺ والأخذِ عنه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لكلِّ ما جاء به فلا يسع أحدًا ردُّ أمرِهِ لفرض الله طاعتَه .

وقد قرن الله طاعتَه بطاعةِ نبيِّه فى آياتٍ كثيرة وجعل طاعَتَهُما سبباً للنجاة والفوز برضوان الله ، والإعراضَ عنهما سببًا للعذاب والهلاك .

قال تعالى :﴿ وَمَنْ يطِعِ اللهَ وَرَسولَه يدْخِلْه جَنَّاتٍ تَجرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنهَار وَمَنْ يَتَوَلَّ يعَذِّبْه عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ (٤) .

ذكر ابن عبد البر فى كتابٍ له عن عبد الرحمن بن زيد : أنه رأى محرِمًا عليهِ ثيابه ، فنهى المحرم . فقال : ائتنى بـآية من كتاب الله تنزع ثيابى ــ أى تـأمر بـأن ينزع الرجل المحرم المخيط ــ قال : فقرأ عليه : ﴿ وَمَا آتَاكُم الرَّسول فَخُذُوه ومَا نَهَاكُم عَنه فانتَهوا ﴾ .

---

* مختار من كتاب « مع القرآن الكريم » للمؤلف بشيء من التصرف .

(١) الحشـر : ٧ . (٢) النحـل : ٤٤ .

(٣) النـور : ٦٣ . (٤) الفتـح : ١٧ .

أيها المؤمنون :

إن تشريع الرسولِ ﷺ بِوَحْيٍ وإن لم ينزلْ قرآن . . فقد روى أبو داود عن المقدام بن معديكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ألَا وإنى أُوتيت الكتاب ومثلَه معه ، ألَا يوشك رجلٌ شبعان على أريكة يقول : عليكم بهذا القرآنِ فما وجدتُم فيه من حلالٍ فأَحِلُّوه وما وجدتُم فيه من حرام فحرِّموه ، ألا لا يَحِلُّ لكم الحمار الأَهلِىُّ ولا كلُّ ذى نابٍ من السباع ولا لُقَطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها ومن نزل بقوم فعليهم أن يُقْروه فإن لم يُقْروه فله أن يُعْقِبَهُمْ بمثلِ قِراه » .

فقولُه ﷺ :أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه معناه أنه أُوتى من الوحْى الباطنِ غيرِ المتلوّ مثلَ ما أُعطى من الظاهر المتلوِّ .

وأنه أُوتِىَ الكتابَ وحيًا يُتْلى ، وأُوتِىَ من البيانِ مثلَه ، أى أُذِن له أن يبين ما فى الكتاب فيعمَّ ويخصَّ ويزيدَ عليه ، ويشرعَ ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلوِّ من القرآن .

وقوله : « يوشِكُ رجلٌ شبعان » الحديث ، يحذِّر بهذا القولِ من مخالفةِ السُّنَنِ التى سَنَّهَا مما ليس له فى القرآنِ ذكر .

[والأَريكة : السرير] وأَراد أَصحابَ الترفُّهِ والدَّعَة الذين لَزِموا البيوتَ ، ولم يطلبوا العلم من مَظَانِّه . وقوله : « فله أن يُعقِبَهُمْ(١) بمثل قِرَاهُ »(٢) : هذا فى حالِ المُضطَرِّ الذى لا يجدُ طعاما ويخافُ التلفَ على نفسِه فله أن يأْخذ من مالهم بقدرِ قِراه — أى ما يكفى طعامه وسدّ جوعه — عِوَضَ ما حَرَمُوه من قِراه ، أى من الطعام يقدمونه له .

---

(١) يعقبهم : من المعاقبة ويروى مخففاً ومشدداً .

(٢) القرى : بكسر القاف ما يقدم للضيف .

وفى هذا الحديث دلالة على أنه لا حاجة بالحديثِ إلى أن يُعْرَض على الكتاب ، فإنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ كان حجةً بنفسه .

وفى الحديث أيضا حرَّم النبيّ ﷺ الحمارَ الأهليَّ وكلَّ ذى ناب من السباع ولقطةَ المعاهد إذا لم يستغن عنها، ولم يرد لذلك نصٌّ صريحٌ فى القرآن ، وقال رسول الله ﷺ يحذر المعرضين عن سنّته : « يوشك أن يقْعد الرجلُ على أريكته يُحَدِّث بحديثى فيقول : بينى وبينكم كتابُ الله فما وجدنا فيه حلالا استحللناه، وما وجدنا فيه حرامًا حرَّمناه ألا وإن ما حرَّم رسولُ الله ﷺ مثْلُ ما حرَّمَ الله » .

قال البيهقى : وهذا خَبَرٌ من رسولِ اللهِ ﷺ عمّا يكونُ بعده من ردِّ المبتدعةِ حديثَه فَوُجِدَ تصديقُه فيما بعده .

ومن الآياتِ السابقةِ وغيرها ومن الحديثين السابقين يتضح لنا : أَن المسلم لا يستطيعُ أن يعبدَ اللهَ حقَّ عبادتِه ، وأن يؤدىَ فرائضه على الوجه الذى طلبه اللهُ من عباده إلا إذا عمِل بالسنَّةِ النبوية .

أن الذين تعلَّقوا بظاهر القرآن الكريم — قديماً وحديثاً — وتركوا السنةَ التى قد ضُمِّنَتْ بيانَ الكتاب ضالُّون مُضِلُّون وليسوا على طريق الإسلام ، وإن ماتوا على إنكارهم السنةَ الصحيحةَ ماتوا على الكفر والعياذُ بالله .

أخرج البيهقىُّ بسنده عن شبيب بن أبى فضالة المكّى ، أن عمرانَ ابنَ حُصَين رضى الله عنه ذكر الشفاعة ، فقالَ رجلٌ من القوم : يا أبا جنيد إنكم تُحدِّثُونَنا بأحاديث لم نجد لها أصلًا فى القرآن ، فغضب عمران وقال للرجل : قرأتَ القرآن ؟ قال : نعم .قال : فهل وجدتَ فيه صلَاةَ العِشاءِ أربعاً ، ووجدت المغرب ثلاثًا ، والغداة ركعتين والظهر أربعاً ، والعصر أربعاً ؟ . قال الرجل : لا .

قال عمران : فعن من أخذتم ذلك ؟ ألستم عنّا أخذتموه(١) وأخذناه عن رسول الله ﷺ ؟ . أوجدتم فى القرآن من كل أربعين شاة شاة ، وفى كُلِّ كذا بعيرا كذا ، وفى كل كذادرهما كذا ؟

قال الرجل : لا . قال : فعن من أخذتم ذلك ؟ ألستم عنا أخذتموه ، وأخذناه عن النبي ﷺ ؟

وقال : وجدتم فى القرآن ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ (٢). أوجدتم فيه : « فطوفوا سبعاً واركعوا ركعتين خَلْفَ المَقَامِ » . ثمّ قال عمران : أما سمعتُم اللهَ قال فى كتابه : ﴿ وما آتاكُم الرسولُ فخذوه وما نهاكُمْ عنه فانتهُوا ﴾ .

أيها المؤمنون :

إن البيان من النبيّ ﷺ لما جاء فى القرآن الكريم يقعُ على ضربين وهما :

بيانٌ لمجمَلٍ فى الكتاب الحكيم ، كبيانه للصلوات الخمس فى مواقيتها وسجودها وركوعها وسائر أحكامها .

عن حسان بن عطية قال : كان جبريل عليه السلام ينزل على رسول الله ﷺ بالسنة كما ينزل عليه بالقرآن يعلّمه إياها كما يعلّمه القــرآن .

وقال الإمام أحمد : إن السنة تفسر الكتاب وتبيِّنُه .

وبيانٌ آخر وهو زيادةٌ على حكمِ الكتاب كتحريم نكاحِ المرأة على

---

(١) أى عن الصحابة لمن بعدهم لأن الصحابة واسطة بين النبى صلى الله عليه وسلم ومن جاءوا بعدهم من التابعين .

(٢) الحج : ٢٩ .

عمّتِها وخالتِها ، وتحريمِ الحُمُر الأَهليةِ وكلِّ ذى نابٍ من السباع ، والقضاء باليمين مع الشاهدِ وغيرِ ذلك .

قال الإمام الشافعى : فرض اللهُ على الناس اتباعَ وَحْيه وسنن رسولِه فقال فى كتابه : ﴿ لقَد مَنَّ اللهُ عَلَى المؤمِنينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وَإِنْ كانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مبينٍ ﴾(١) مع آى سواها ذكر فيهن الكتابَ والحكمةَ . . .

قال : فَذَكَرَ اللهُ الكتابَ وهو القرآن ، وذَكَرَ الحكمةَ فسمعتُ من أرضاه من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنةُ النبىِّ ﷺ .

وقال تعالى : ﴿ يأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولى الأَمْرِ مِنْكُم ، فَإِنْ تَنازَعْتُمْ فى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ والرَّسُولِ ﴾(٢) .

﴿ فإن تنازعتُم ﴾ يعنى اختلفتم فى شىءٍ ﴿ فرُدُّوه إلى الله والرسول ﴾ ، يعنى — والله تعالى أعلم — إلى ما قال الله والرسول .

قال الشافعى : فأَعْلَمَهُمْ أَن طاعةَ رسولِ اللهِ ﷺ طاعتُه فقال : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٣) .

وإن ما رواه بعضهم من أن النبىّ ﷺ قال : « إذا جاءكم الحديثُ فاعْرِضوه على كتاب اللهِ فإن وافقه فخُذوه ، وإن لم يوافقه فاتركوه » باطل لا أصل له فهو حديث موضوع .

قال البيهقى : إن هذا الحديث ينعكس على نفسه بالبطلان ؛ فليس فى القرآن دلالة على عرض الحديث على القرآن .

(١) آل عمران : ١٨٥ (٢) النساء : ٥٩ .
(٣) النساء : ٦٥ .

وقد ألزمنا اللهُ عز وجل بالعمل بالكتاب والسنة معاً . قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴾(١)

وروى ابنُ عباسٍ أن رسول الله ﷺ خطب الناس فى حَجَّة الوداع فقال : « إنى قد تركتُ فيكم ما إن اعتصمتُم به فلن تَضلُّوا أبدًا ، أمرين اثنين : كتاب الله وسنة نبيِّكم ، أيها النّاس ، اسْمَعُوا ما أقول لكم تعيشوا به » .

وهذا الحديث ورد بعبارات متعددة وكلُّها تحضُّ المسلمين على التمسك بالكتاب والسنة .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : « من أحيا سنتى فقد أحبَّنى ، ومن أحبَّنى كان معى فى الجنة » .

وعن المطلب بنِ حنطب أن رسولَ الله ﷺ قال : « ما تركتُ شيئًا مما أمركم اللهُ به إلا وقد أمرتُكم به ، ولا تركتُ شيئاً مما نهاكم اللهُ عنه إلا وقد نهيتكم عنه » .

فاتقوا الله — عبادَ الله — واستغفروه يغفر لكم ، وتوبوا إليه لعلكم ترحمون .

---

(١) محمد : ٣٣ .

الخطبة الثانية

إن طاعةَ رسول الله ﷺ طاعةٌ لله ، يقول تعالى : ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فقَدْ أَطَاعَ اللهَ﴾ (١) .

وأخرج البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « كلُّ أُمتى يدخلون الجنةَ إلا من أَبَى ، قالوا : يا رسولَ الله وَمَنْ يأْبى ؟ قال : مَنْ أطاعَنى دخلَ الجنةَ ومَنْ عصانى فقد أَبَى » .

وإن السنةَ مع الكتاب أُقيمت مقام البيانِ عن اللهِ فهى مُبَيِّنَةٌ لأحكامه ومفصلةٌ لمُجْمَلاته كما قال تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾(٢) . وإن العملَ بالسنة النبوية فرضٌ لازم .

قال الإمام أحمد بن حنبل : السنةُ عندنا آثار رسول الله ﷺ ، والسنةُ تفسرُ القرآن ، وهى دلائلُ القرآن .

---

(١) النساء : ٨٠ .

(٢) النحل : ٤٤ .

الحياء لا يأتي إلا بخير

الحمد لله ، نستعينه ، ونستهديه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيِّئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادى له ، ونصلِّى ونسلِّم على رسول الهدى والحق محمدِ ابنِ عبدِ الله وعلى آله وأصحابهِ الأطهارِ الأبرار .

فى الصحيحين عن أبى هريرةَ رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ أنه قال : « الإيمان بِضع وستون – أو بِضع وسبعون – شعبة ، أعلاها قولُ لَا إلهَ إلَّا الله ... وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق والحَياءُ شُعْبَةٌ من الإيمـــان » .

أيها الإخوة المؤمنون :

جاءَ الإسلامُ بعقائدَ وخِصالٍ ، هى أركانٌ لبناءِ الأُمة ، وأُسسٌ لسعادتِها وعمادٌ مُحْكَم لبناءِ مدنيتِها الطاهرةِ الصحيحةِ . . وفى كل فضيلة ، وفى كلِّ خَصلة من الخصال التى جاءَنا بِها هذا الدينُ الحنيفُ . . باعثٌ للأُمة على استكمالِ مقوماتِ حياتِهَا الراقية ، وَمُحَرِّكٌ للهمم إلى إسعادها .

ومن الخصال الجليلة التى حث عليها الإسلامُ خَلَّةُ الحياءِ وهو تـأَثُرُ النفسِ ، وانفعالُها من كل ما يَعِيبُهُ الدينُ ، أولا يَرضَى عنه ذوقُ المؤمنين الصادقين الذين يخشَوْن اللهَ ويرجون رحمتَه .

« والحياءُ لا يـأْتى إلَّا بخير » ، لأَن منْ كان الحياءُ له زينة فإنه يرتدع عن القبيح ، ويمتنع عن مجاوزةِ الحدودِ التى رسمها له الدين ، ويعود دائمًا إلى الحق والعدل والإنصاف.. فكأَنَّ الحياءَ لصاحبِه رقيبٌ على أفعاله ، وحاجز يردُّه عن الآثام . . يردُّه عن الفسوق والعصيان ،

لذا كان الحياءُ من أَجلِّ الأَخلاق التى يمنحها الله عبده ويجبله عليها .
فصاحب الحياءِ يتحلَّى بالفضائل ، ويتخلَّى عن الرذائل ، صاحب الحياء لا يجور ولا يفسق ، ولا يؤذى أَحداً بيدٍ أَو بلسانٍ ، يخجل ويستحْيِي من إغضاب الله عز وجل ولا يَرْتكب ما يُغْضِب الرحمٰنَ ، ثم هو يَخْجَل من الناس . . ويذوب خجلًا من نفسه إذا حدَّثته بكسر حجاب الفضيلة ، وولوج بابِ الرذيلة . . صاحب الحياء يراقب الله دائما ، ويحاسب نفسه .

قال الراغب : الحياءُ انقباضُ النفسِ عن القبائحِ ، وهو من خصائصِ الإنسان ، وجعله الله سبحانه فى الإِنسان — أَى سَجِيةٌ من سَجاياه — ليرتدعَ به عمَّا تنزع إليه النفس من القبائح .

وقيل فى بيان معنى الحياء كذلك : الحياءُ وَسَطٌ بين الخَجَلِ والوقاحة . . أَمَّا الخجل فهو حَيْرَةُ النفسِ لفرط الحياءِ ، ويُحْمَد الخَجَل فى النِّسَاءِ والصبيان ، ويذَمُّ فى الرجال .. وأَما الوقاحةُ فهى مذمومةٌ بكلِّ إنسان — رجلٍ كانَ أَو امرأَةٍ — إذ الوقاحةُ انسلاخٌ من الإِنسانيةِ وحقيقتُها لَجَاجُ النفسِ — أَى تماديها — فى تعاطى ما يُغضب اللهَ .

وقال الماوردى : الحياءُ فى الإِنسان ثلاثة أَوجه . أَحدها : حياؤه من الله تعالى . والثانى : حياؤه من الناس . والثالث : حياؤه من نفسه .

فأَمَّا حياءُ الإِنسانِ من الله فيكون بامتِثال أَوامرِه ، والكفِّ عن زواجره ، وهذا يكون من صحة الدين ، وقوة اليقين .

وقد روى عن النبىّ ﷺ أَنه قال : « اسْتَحْيوا من الله عزَّ وجل حقَّ الحياءِ . فقيل : يارسولَ الله : إنا لنستحيِى من الله ، والحمدُ لله ، قال : ليس كذلك ، ولكنْ الاستحياءُ من الله حقَّ الحياءِ : أَن تحفظَ

الرأسَ وما وعَى(١) ، والبطن وما حَوَى(٢) ، وتذكُرَ الموتَ والبِلَى ، وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةَ ترك زينةَ الحياةِ الدنيا ، وآثرَ الاخرةَ على الأُولى ، فَمَنْ فعلَ ذلك ، فقد استحْيا من الله حقَّ الحياء » .

فصاحبُ الحياءِ يكون دائمًا على خشيةٍ من الله عزَّ وجل فهو يُؤمن بالحقِّ ، ويتَّبِعه ، ويُنكر الباطلَ وينبذُهُ ، ويأْنفُ من تعاطى المنكَرَاتِ ، ويَغارُ على الحقوق ، ويصونُ الحُرُمَاتِ .

والإنسان الصدوقُ حَيِيٌّ ، والعفيفُ حيِيٌّ .. فالحياءُ كُلُّه خيرٌ ، وثمراتُه الطيبةُ تعودُ على الفردِ وعلى الجماعةِ بكلِّ خير .

قال الرسول الهادى ﷺ : « الحياءُ نظامُ الإيمانِ ، فإذا انحلَّ نظامُ الشيءِ تبدَّد ما فيه وتفرّق » .

وأَما حياءُ الإِنسان من الناس . . فيكون بكفِّ أَذاه عنهم ، ورعايةِ حقوقِهِم ، كما يكونُ بترك المُجَاهَرَةِ بالقَبيح . . فالمرءُ إذا كملت مروءتُه استحيا من الناس ، وحسُنت سيرته فى المجتمع ، ووثق به المحيطون به وأَحبُّوه .

وقد أَكَّدَ الحبيبُ الهادى ﷺ ، قُبْحَ صنيعِ مَن يُجاهر بالمعصية ، ويُظْهِرُ على الملإِ عدمَ المبالاةِ ، بقولٍ أَو بفعلٍ مِمَّا لا يُرضى اللهَ عز وجل ، مِنْ تلك الأَقوال والأَفعال التى تُنافى كمالَ المروءةِ وحُسْنَ الخلق . . فقالَ ﷺ فى تقبيح ذلك : « كُلُّ أُمَّتى مُعَافًى إِلَّا المجاهرين ، وإنَّ مِنَ المَجَانةِ أَن يعملَ الرجلُ بالليل عَملًا ، ثمّ يُصْبحُ وقد سَترهُ اللهُ فيقول : يا فلانُ عَمِلْتُ البارحةَ كذا وكذا ، وقد باتَ يستره ربُّه ، ويُصْبحُ يَكْشِفُ سترَ اللهِ عنه » .

---

(١) ما وعى الرأس : السمع والبصر واللسان .

(٢) ما حوى البطن : المأكول والمشروب ، أى طلب الحلال من الرزق واستعمال جوارح الإنسان فى طاعة الله .

وأمَّا حياءُ المرءِ من نفسِه فيكون بالعفةِ ، وصيانةِ خَلَواتِه ، وهذا قد يكونُ من فضيلةِ النفس وحسنِ السريرة ، والشعورِ الدائمِ بأَن اللهَ عزَّ وجلَّ يعلم سرَّ العبدِ ، وعلانيتَه ، ولا يَخْفَى عليه سبحانه خافيةٌ .

فالحياءُ لا يأْتى إلا بخير ، ويَصون المرءَ من كلِّ شرٍّ ، وقد قيل : متى كمل حياءُ الإنسانِ من وجوهه الثلاثةِ ، أى حياؤه من الله ، وحياؤه من الناس ، وحياؤه من نفسه ـ فقد كملت فيه أَسباب الخيرِ ، وانتفت عنه أَسباب الشر ، وصار بالفضل مشهوراً ، وبالجميل مذكورا .

والحياءُ للإِنسان بمثابة الماء للزرع ، فكما أَن الزرع إذا نال حاجته من الماءِ نما وصارت له نضارةٌ وبهاء ، فكذلك المؤمن الحيىُّ نرى فى وجهه بهاءَ الخيرِ ، وسماتِ الصلاح ، ونلمح فى أَفعاله ما يدلُّ على نماءِ الإِيمان وقوةِ اليقين فى قلبه ، ولذا كان المؤمن الحيىُّ من أَهل النعيمِ الأُخروى ، أَما أَهل الجرأَةِ على القبيح الذين لا يجدون من الحياءِ ما يزجرهم عن ارتكاب المحظورِ فإِنَّهم أَهل البذاءِ وهؤلاءِ يقول فيهم الحبيب المصطفى ﷺ فى الحديث رواه أَبو هريرة رضى الله عنه : « الحياءُ من الإِيمان والإِيمانُ فى الجَنَّة ، والبذاءُ من الجفاء ، والجفاءُ فى النار » .

وعن أَنس رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « ما كانَ الفُحْشُ فى شىء إلَّا شانه ، وما كان الحياءُ فى شىءٍ إلا زانَه » .

ذلك أَن عدم حياءِ المرء يجره إلى أَن يسايرَ هواه ، وإلى أَن يقتحمَ حدودَ الله ، وفى مثل هذا يقول النبىُّ ﷺ : « إن مما أَدركَ الناس من كلامِ النبوةِ الأُولى : يابنَ آدمَ إذا لم تستحى فاصْنَعْ ما شِئْت » .

وفاقد الحياءِ يموت فى نفسه الشعور بالخجل من فعل الشرِّ ومن إتيانِ القبيح ، ولذا تجده ساقطَ الهمة ، قليلَ المروءة، عيَّابًا فحَّاشًا ، يتجنب أَهل الخير مخالطتَه ، ولا يرضى ذو مروءة معاشرته ، ولا يؤتمن على

عرض أو مال أو سرٍّ ، فهو بغيض إلى الله ، بغيضٌ إلى الناس لما له من جرأة على المعاصى ، يقول الحبيب المصطفى ﷺ : « إذا أبغضَ اللهُ عبداً نزع منه الحياءَ فإذا نزع منه الحياء لم تَلْقه إلَّا بَغيضا مُبغَّضًا ».

ومن أمارات أهلِ الصلاح أن الواحدَ منهم إذا عُرضت عليه أفعالُه التي يَهُم بفعلها فإنه يجعلُ حياءَه حَكَمًا عليها فإذا لم يَرَ فيها ما يُستحيا منه لحسنها وجمالها وموافقتها لما يُرضى الله فإنه يُقْدِم عليها ، وفى هذا المعنى جاءَ قولُ النبي ﷺ : « ما أحببتَ أن تسمعَه أُذناك فأْتِه ، وما كرِهْتَ أن تسمعَه أُذناك فاجْتَنِبْه » . وسُئلَ حكيم عن المروءة فأجاب : ألَّا تعملَ فى السرِّ شيئًا تستحيي منه فى العلانية .

إن معرفة المؤمن بالله ومعرفتَه بعظمته عز وجل وبقُربه من عباده ، واطلاعه عليهم ، وعلمِهِ بخائنةِ الأعين وما تُخفى الصدور لمن أعلى خِصال الايمان .. بل من أعلى درجات الإحسان ، ذلك أن زيادةَ العلم بالله والشعورَ الدائمَ بمراقبته سبحانه وتعالى ، يجعلُ المؤمنَ يَسْتَحْيي أن يراه ربُّه حيث نهاه ، ويخشى أن يُعَرِّضَ نفسَه لغضبِ اللهِ ، فيُقْبِل على الخير ويتزودُ بكل ما هو جميل ومحبوب من الفضائل والآداب ، ويُحِبُّ أن يراه رَبُّه حيثُ أمره .

قال الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَكِنَّ عَذَابَ اللهِ شَدِيدٌ ﴾(١) .

عن زيد بن طلحةَ رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ لِكُلِّ دينٍ خُلُقا وَخُلُقُ الإسلامِ الحياءُ » .

فاتقوا الله عباد الله ، وتوبوا إليه إنه هو التواب الرحيم .

---

(١) الحج : ١ ، ٢ .

القسم الثالث

١٣ ـ الصلوات المكتوبات .
« من خطب النبي صلى الله عليه وسلم » للخطبة الثانية
١٤ ـ صلاة الجمعة (فضلها ـ حكمها ـ آدابها) .
ـ خطبة أخرى فى الجمعة
١٥ ـ أم الكتاب .

للخطبة الثانية

١٦ ـ الزكاة ركن الإسلام .
١٧ ـ شهر الخيرات والبركات .
١٨ ـ السنن الرواتب .
١٩ ـ فرض على المستطيع .
٢٠ ـ بيوت الله .
٢١ ـ صيام التطوع .

للخطبة الثانية

٢٢ ـ عيد الفطـــر .
٢٣ ـ التطهر والنظافة فى حياة المسلمين .
٢٤ ـ الصبر والمصابرة والمرابطة والتضحية .
عناصر أساسية لتحقيق النصر .

الصلوات المكتوبات

يقول الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَآتُوا الزَّكَاةَ ، وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ تَجِدُوه عندَ اللهِ ، إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١) .

ياعباد الله :

فى الآية الكريمة السابقة ، يأمر الله عباده بإقامة الصلاة ، وبإيتاءِ الزكاة ، والأَمرُ معناه الوجوب ، وإقامةُ الصلاةِ : أداؤُها بأَركانها ، وسُنَنِها ، وهيئاتها فى أَوقاتها على النحو الذى بَيَّنته سُنَّةُ النبىّ الهادى ﷺ . والصلاةُ عِماد الدين الذى لا يقوم إلا به ، وهى من أعظم أَركان الإِسلام ، مَن حافظ عليها فهو السعيدُ الرّابح ، ومن أَضاعها فذلك الشقىُّ الخاسر .

قال رسول الله ﷺ : « رأْسُ الأَمر الإِسلامُ ، وعمُودُه الصلَاةُ ، وذِروةُ سنامِه الجهادُ فى سبيل الله » .

والصلاة نور وبهاء للعبد يوم يلقى ربه ، عن أَبى مالك الأَشعرى رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « الطَّهورُ شَطْرُ الإِيمان ، والحمدُ لله تملأُ الميزان ، وسبحانَ اللهِ ، والحمدُ لله تملآن أَو تملأُ ما بين السماءِ والأَرضِ ، والصلاةُ نورٌ ، والصدقةُ بُرهان، والصبرُ ضِياء ، والقرآنُ حُجَّةٌ لك أَو عليك » .

وقد فرض الله عز وجل الصلاة على كل مسلم بالغ عاقل ، وأَمرَنا

---

(١) البقـرة : ١١٠ .

سبحانه بالمحافظةِ عليها ، وعدم التهاون بأمرها ، أو التكاسل عن أدائها، أو التفريط فيها . . فالمسلم مطالب بأدائها ما دامت روحُه فى جسده : الصحيحُ والمريضُ فى ذالك سواء ، وكذلك المسالم والمحارب ، والمقيم والمسافر ، والرجل والمرأة - إلا فى حالى حيض المرأة ونفاسها - .

قال الله عز وجل : ﴿ حَافِظُوا عَلَىٰ الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الوُسْطَى ، وَقُومُوا للهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ، فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَّا لَمْ تكُونُوا تَعْلَمُون﴾(١) . والأمر فى قوله تعالى : « حافظوا » خطاب لجميع المكلفين ذكوراً وإناثًا والآية أمرٌ بالمحافظة على إقامة الصلوات فى أوقاتها بجميع شروطها ، والمحافظة : هى المداومةُ على الشىء ، والمواظبة عليه . وفى الآية السابقةِ دليلٌ على أنَّ الصلاةَ لا تسقطُ عن المسلم فى حال الخوف من عدوٍّ أو غيرِه ، فأحرى ألا تَسْقُطَ بغيره من مرضٍ أو سَفرٍ أو نحوِهما .

وبهذا تميَّزت الصَّلَاة عن سائر العِبادات . . ولهذا قال العلماءُ : « إنَّ تاركَ الصلاة يُقتل ، لأنها أشبهت الإيمان الذى لا يَسْقط بحال » . وقالوا فيها كذلك : « الصلاةُ إحدى دعائم الإسلام لا تجوز النيابةُ عنها ببدن ولا مالٍ فيقتل تاركُها » .

ولما كان للصلاة هذه المنزلةُ ، فإن الإسلام شدَّد النكير على من يفرِّط فيها وهدَّد الذين يضيعونها . قال الله عز وجل : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِم خَلْفٌ أَضاعوا الصلاةَ ،واتَّبَعوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْف يلْقَوْنَ غَيًّا * إلا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدخُلُونَ الجَنَّةَ وَلَا يظْلَمونَ شَيْئًا ﴾(٢) .

---

(١) البقــرة : ٢٣٨ ، ٢٣٩ .   (٢) مريم : ٥٩ ، ٦٠ .

فَمَنْ ـ إذن ـ هؤلاءِ الذين أَضاعوا الصلاة ؟ . وما معنى إضاعتهم الصلاةَ حتى توعَّدهم الله بالويل إلّا إن تابوا ، وعادوا إلى الحقِّ بإقامةِ الصلاة ؟ . قال ابن عباس رضى الله عنهما : هم اليهود تركوا الصلاة المفروضة . وقال غيره : هم أُولئك الذين أَضاعوها بالتأْخير .

ويفسر ذلك قول سعيد بنِ المسيِّبِ رحمه الله : هو أَلَّا يصلِّىَ الظهرَ حتى يأْتِىَ العصر ، ولا يصلىَ العصرَ حتى يأْتى المغرب ؛ ولا يصلىَ المغربَ إلى العشاء ، ولا يصلى العِشاءَ إلى الفجر ، ولا يصلى الفجر إلى طلوع الشمس ، فمن مات وهو مصِرٌّ على هذه الحالةِ ولم يتُبْ توَعده الله بغَىٍّ ، وهو وَادٍ فى جهنَّمَ بعيدٌ عمقُه ، خبيثٌ طعمه . وقيل : غَىّ ، وادٍ فى جهنم تستعيذُ منه أَوديتُها . . والمعروف فى لغةِ العرب أن الغَىَّ يطلق على كل شرٍّ ونقيضُه الرشاد فهو يطْلَق على كلِّ خيرٍ . . فينبغى لمن يتهاون فى أَمر الصلاة ، بتركها أَو تأْخيرها عن أَوقاتها بدون عذر شرعىٍّ أن يسرع إلى التوبة والإنابةِ . ولنتدبر الوعيدَ والتهديدَ للمتهاونينَ فى أَمر الصلاة فى قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّين*الَّذِينَ همْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهون﴾(١) . أَى فويلٌ للمصلين الذين يَسْهون عن الصلَاة قلة مبالاةٍ بها ، حتى تفوتَهم ، أَو يخرج وقتُها . .

وعن عثمان قال : سمعت الرسولَ ﷺ : يقول : «لا يتوضأُ رجلُ فيحسِن وضُوءَه ثم يصلى الصلاةَ إلا غفَر الله له ما بينها وبين الصلاة التى تليها » فَطُوبى لمن أَدى الصلاة بتمامها وكمالها وخشوعها وحافظ عليها حتى يفارق الدنيا ، والويل لمن فرّط فيها ، واستكبر عن أَدائها ، ثم خرج من الدنيا ولم يسجد لرب العالمين . الويل له ﴿يوْمَ يُكْشفُ

---

(١) الماعون : ٤ و ٥ .

عَنْ سَاقٍ ، وَيدْعَوْنَ إِلَىٰ السُّجودِ فَلَا يَسْتَطِيعون * خَاشِعَةً أَبْصارُهُم تَرْهَقُهُم ذِلَّةٌ وقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُون ﴾ (١) .

نعم . . . إنهم لا يُدْعون إلى السجود يومَ القيامة تعبُّدا وتكليفًا ، ولكن توبيخًا وتعنيفًا على تركهم السجودَ فى الدنيا وهى دار الابتلاء والعمل ، فتخشع إذ ذاك أبصارهم فلا تعود تُرفع ، ويَغْشَى الذلُّ وجوهَهُم ، ويذكرون أنَّهم ﴿ كَانُوا يُدْعَوْن إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُون﴾ أى وهم أصحاءُ قادرون فجحدوا وأَبَوْا ، واستكبروا ، وكذَّبوا .

وقد صرحت الأَحاديث الشريفة بكُفر تارك الصَّلاة تكاسلا أو أو تشاغلا عنها بما لا يعَدُّ فى الشرع عذرًا ، كما قررت الأَحاديثُ وجوبَ قَتْلِه ، فعن جابر قال قال رسول الله ﷺ « بَيْنَ الرجلِ وبينِ الكُفرِ تركُ الصلاةِ » .

وعن بريدة قال : قال رسول الله ﷺ : « العهد الذى بيننا وبينهم الصلاةُ ، فمَن تَركَها فقد كَفر . . » ومن الأَحاديث المصرحة بوجوب قتل تارك الصلاة عمدًا من غيرِ عذرٍ ، ما رواه ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى ﷺ قال : « عرى الإسلامِ ، وقَواعد الدينِ ثلاثةٌ ، عليهنَّ أُسِّسَ الإسلامُ ، مَن ترك واحدةً منهن فهو بها كافرٌ حلالُ الدم : شهادةُ أن لا إلَه إِلَّا اللهُ ، والصلاةُ المكتوبة ، وصومُ رمضان » .

وعن ابن عمر أَن النبى ﷺ قال : « . . . أُمرت أَن أُقاتل الناسَ حتى يشهدوا أَن لا إلهَ إِلَّا اللهُ وأَن محمدًا رسولُ الله ، ويُقيموا الصلاةَ ، ويُؤتوا الزكاةَ ، فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا منِّى دماءَهم وأموالَهم إِلَّا بحقِّ الإسلامِ ، وحسابُهم على الله عز وجل . . » .

---

(١) القلم : ٤٢ ، ٤٣ .

وهذه الأحاديثُ الشريفةُ تدل على عِظَمِ فضْلِ الصلاة ، وعلى وجوب المحافظةِ عليها ، وأدائِها فى أوقاتها ، وقد أخبرنا الحبيبُ الهادى ﷺ أنَّ من حَافَظ على الصلاة وأدَّاها بتمامها وكمالها مع الخشوع فيها كانت له نورًا وبرهانًا ونجاةً يومَ يقوم الناسُ لرب العالمين .

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص عن النبى ﷺ : أنه ذكر الصلاة يومًا فقال :« من حافظ عليها كانت له نُورًا وبُرهانًا ونَجَاةً يومَ القيامة ، ومَنْ لم يُحافظ عليها لم يكن له نور ، ولا بُرهانٌ ولا نجاةٌ ، وكان يومَ القيامة مع قارونَ وفرعونَ وهامانَ وأُبَىِّ بنِ خلف »

وعن عبادةَ سمِعتُ رسول الله ﷺ يقول : « خمسُ صلوات افترضهُنَّ اللهُ مَنْ أَحْسَنَ وضوءَهُنَّ وصلَّاهُنَّ لوقتهِنَّ وأَتَمَّ ركُوعَهُنَّ وسُجُودَهُنَّ وخُشوعَهُنَّ كان له على الله عهدٌ أن يَغْفِرَ له وَمَنْ لم يَفعل فليس على الله عهدٌ إن شاءَ غَفَر له وإن شاءَ عَذَّبه » .

والصلاةُ أَولُ ما يُحاسب به العبدُ يومَ القيامة من عمله ، فإن صلَحَت فاز ونجا وإن فَسدت خاب ورُدَّ عليه سائرُ عمله . .

عن أَبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : إن أَولَ ما يُحاسب به العبدُ يومَ القيامةِ من عمله صلاتُه ، فإن صلَحَت فقد أفلح وأَنجح ، وإن فَسدت فقد خاب وخَسِرَ ، فإن انتقص من فريضته شىء قال الربُّ عزَّ وجل : انظروا هل لعبدى من تطَوُّع فيكمل بها ما انتقص من الفريضة ثم تكون سائرُ أَعماله على هذا .

ومن دعاء الأَنبياء :﴿ربنا إِنِّى أَسكنْتُ مِن ذُرِّيتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ المُحَرَّمِ ربَّنَا لِيُقيمُوا الصَّلاةَ﴾(١)،﴿ربِّ اجْعَلنى مُقيم الصلاةِ وَمِنْ ذريتى ربَّنا وَتَقَبلْ دعَاء ﴾ (٢) .

---

(١) إبراهيم : ٣٧ . (٢) إبراهيم : ٤٠ .

وعن عثمانَ بنِ عفان رضى الله عنه قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « ما من امرىء مسلمٍ تحضرُه صلاةٌ مكتوبةٌ فيُحْسِن وضوءها وخشوعَها ، وركوعَها إلا كانت كفارةً لما قبلها من الذنوب ما لم تُؤْت كبيرة ، وذلك الدهر كله . . » .

وروى أحمد والشيخان وأبو داود والنسائى : « أَحبُّ الأَعمالِ إلى اللهِ الصلاةُ لوقتِها ثُمَّ بِرُّ الوالِدَين ، ثم الجهادُ فى سبيل الله . . » .

فاتقوا الله - عباد الله - وتوبوا إليه ، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

* * *

الخطبة الثانية :

لقد أَمر الله عز وجل جميع أَنبيائه ورسله بالصلاة ، وفرضها على المؤمنين فى كل العصور ، فهذا رسول الله عيسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام يقول حين أَشارت إليه أُمه وهو فى المهد صبيًا :﴿قال إِنِّى عبْدُ اللهِ آتَانِىَ الكِتَابَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا * وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَينَما كنتُ وأَوْصَانِى بالصلاةِ والزَّكاةِ ما دُمْتُ حيًّا . .﴾ (١) .

ولنتدبر ما جاء فى وصية لقمان الحكيم لابنه : ﴿يابُنَىَّ أَقِمِ الصَّلاةَ ، وأْمُرْ بالمعْرُوفِ وانْهَ عنِ المُنْكَرِ واصْبِرْ عَلَىٰ ما أَصابَكَ إنَّ ذَلكَ من عَزْمِ الأُمُورِ﴾ (٢) .

---

(١) مريم : ٣٠ ، ٣١ .

(٢) لقمـــان : ١٧ .

لنرى كيف أن الصلاة لم تزل عظيمةَ الشأن ، سابقة القدم على ما سواها ، مُوصى بها فى الأديان كلِّها ـ وقد أمر الله عز وجل رسولَه الهادى وخاتم رسله ﷺ بأن يُقبلَ هو وأهله على عبادة الله والصلاة فقال سبحانه وتعالى : ﴿ وأْمُرْ أَهْلَكَ بالصَّلاةِ واصْطبِر عليها ، لا نسألُكَ رِزْقًا نحنُ نَرزُقُكَ والعَاقِبةُ للتَّقْوى ﴾ (١) . وأمر الله عز وجل عباده المؤمنين بإقامة الصلاة ، والإنفاق مِمّا رزقهم الله انقيادًا لأمر الله وابتغاء وجهه الكريم قال تعالى : ﴿ قُلْ لعبادِى الَّذِين آمنُوا يُقِيمُوا الصلاةَ ، ويُنْفِقُوا ممَّا رزَقْناهُم سرًّا وعَلَانِية مِن قَبْل أن يَأْتِىَ يومٌ لا بَيْعٌ فيه ولا خِلَال ﴾ (١) .

وممَّا ينبغى أن يلتفت إليه المؤمنون أن يأمروا أبناءهم بالصلاة إذا بلغ الابن سبعَ سنين ، ويعنِّفه عليها إذا بلغ عشرا ليتمرن الولدُ عليها ويعتادها بعد البلوغ ، بهذا أمرنا الهادى الحبيب ﷺ فى قوله : «مُروا أولادَكم بالصلاة إذا بلغوا سبعا ، واضربُوهم عليها إذا بلغُوا عَشْرًا ، وفرِّقوا بينهم فى المضاجع . . » .

---

(٥) طـه : ١٣٢ .

(١) إبراهيم : ٣١ .

صلاة الجمعة
فضلها - حكمها - آدابها

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ .. يٰأَيُّها الَّذِينَ آمنُوا إذا نُودِىَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فاسْعَوْا إلىٰ ذِكْرِ اللهِ وذَرُوا البَيْعَ ذَلِكُم خَيْرٌ لكُمْ إنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُون . . ﴾ (١)

خير أيام الأسبوع :

أيها المسلمون :

يومُ الجمعةِ يومٌ مبارَكٌ ، وهو خيرُ يومٍ من أيامِ الأسبوع ، كما أخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ .

عن أبي لبابةَ بنِ عبد المُنذر رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ « . . إن يومَ الجمعةِ سيدُ الأيامِ وأعظمُها عندَ اللهِ وهو أعظمُ عند الله من يوم الأضحى ، ويوم الفطر ، وفيه خمس خلال : خَلق الله فيه آدم ،وأهبط الله فيه آدم إلى الأرض ، وفيه توفَّى اللهُ آدم ، وفيه ساعةٌلايسأل اللهَ فيها العبدُ شيئًا إلا أعطاه إياه ، ما لم يسألْ حراما ، وفيه تقُوم السَّاعةُ ، ما من مَلَكٍ مُقَرَّبٍ ولا سَماء ، ولا أرضٍ ولا رياح ولا جبالٍ ولا بحرٍ إلا وَهُنَّ يُشفِقْن من يومِ الجُمعة » .

أى أن هذه المخلوقاتِ يَخَفْنَ فى هذا اليومِ فَيُكْثِرْنَ من تسبيحِ اللهِ وتحميدِه ويخشيْن النشرَ وقبضَ الأرضِ وَنَفْخَ الصُّور ، وفى هذا اليومِ تقومُ الساعة .

أفضـــل الصلوات :

وكما أن يومَ الجمعةِ أفضلُ الأيام ، فإنَّ صلاة الجمعةِ أفضلُ الصلواتِ ، وهى فرضٌ بالكتاب والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمة . قال تعالى :

---

(١) الجمعة : ٩

﴿ يٰأَيُّها الَّذينَ آمنُوا إذا نُودِى للصلاةِ من يومِ الجُمُعَةِ فاسْعَوا إلى ذكرِ اللهِ . . ﴾ .

التحذيـر من التهـاون بشأن صـلاة الجمعـة :

وفى الحديث عن أبى هريرة وابن عمر أنهما سمعا النبى ﷺ يقول على أعواد منبره : « . . لينْتَهينَّ أقوامٌ عن وَدْعِهِم – أى تَرْكِهم – الجُمُعَاتِ أو ليختِمَن على قُلوبهم ثم ليكُونُنَّ من الغَافلين . . » .

ومعنى « ليختمنالله على قلوبهم» أى يطبع على قلوبهم ، ويحُول بينهم وبين الهُدى والخير . . وفى رواية « رَواح الجمعة واجبٌ على كل مسلم » .

ولقد حذَّر الحبيب المصطفى المؤمنين من التهاون فى شأن صلاة الجمعة وعدم السعى إليها والتفريط فى أدائها مع الجماعة بغير عذر شرعى ، فقال ﷺ :

« من تَرك ثلاثَ جُمَع تهاوُنًا بها طَبع اللهُ على قلبِه » .

وتارك الجمعة ثلاثَ مراتٍ من غير عذر أو ضرورة يُكتب من المنافقين .

فعن أُسامةَ رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ « . . مَن تَرَكَ ثلاثَ جُمُعَاتٍ من غيرِ عُذْر كُتِب من المنافقين » .

ولنتدبر هذا النذير الذى رواه ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه قال : إن النبىَّ ﷺ قال لقوم يتخلَّفون عن الجمعة :« لقد هممتُ أن آمر رجلاً يصلِّى بالناس ، ثم أُحَرِّقَ على رجال يتخلفون عن الجمعة بيوتَهُم».

وجوبها :

أيها المؤمنون :

وصلاةُ الجمعة تجبُ على المسلم الحُرِّ العاقل البالغ المقيم القادر على السعي إليها الخالي من الأعذار المبيحة للتخلُّف عنها . .

قال رسول الله ﷺ : « الجمعةُ حقٌّ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ في جماعةٍ إلا أربعةً : عبدٌ مملوك ، أو امرأةٌ ، أو صبيٌّ ، أو مريضٌ » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال : « من سَمع النداءَ فلم يُجبْهُ ، فلا صلاةَ له إلا من عذر ، قالوا : يا رسولَ اللهِ وما العذرُ ؟ قال : خوفٌ أوْ مرض » .

وقد روى موقوفًا على ابن عمر رضى الله عنهما: « لا جمعَة على مسافر » فاحرِصْ يا أخى المؤمن – على أداءِ الصلواتِ وحضورِ الجماعاتِ ، واحرص على السعْى يومَ الجمعة لأَداء صلاتِها وإياكَ والتهاونَ بشأْنها . . وقد جاءَ الوعيد الشديد للمفرطين فيها على لسان الصادق الأَمين ﷺ .

فضلهـا :

أَما من أدى الصلوات الخمس وصلَّى الجمعاتِ فإن الحبيب المصطفى ﷺ بشَّره بتكفير ذنوبه بشرط أَن يجتنبَ كبائرَ الإثم والفواحشَ كترك ركنٍ من أَركان الدين كالزكاةِ والصيامِ ،أو ارتكابِ ما حَرَّم الله كالسرقةِ وقتلِ النفسِ بغيرِ حقٍّ،والربا وشربِ الخمرِ والزنى وشهادةِ الزور ، وما إلى ذلك مِمَّا يشتدُّ فيه مقتُ اللهِ وغضبه إذا لم يصِرّ على الصغائر ، فإن الإصرار عليها يحيلُها إلى كبائر .

فعن أَبى هريرةَ رضى الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال :

« . . الصلوات الخمس والجمعةُ إلى الجمعةِ كفارةٌ لما بينهنَّ ما لم تُغشَ الكبائِر » .

فطُوبَىٰ لمن أدَّى صلاَة الجمعة وحافظ عليها وعلى آدابِها وسنَنِها . . طوبى لمن اجتهد فى الدعاء والتضرعِ يومَ الجمعةِ ، ففيها ساعةٌ لا يوافقها عبدٌ مؤمن يسأل اللهَ شيئًا إلا حقّق رجاءه . .

فعن أَبِى هريرةَ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ ذكر يومَ الجمعةِ فقال : « فيها ساعةٌ لا يوافقُها عبدٌ مسلمٌ وهو قائمٌ يصلِّى يسأَل اللهَ شيئا إلا أعطاه » – وأشار بيده يقلِّلها –

التبكير إلى المساجد للجمعـــة :

ويستحب للمؤمنين المبادرةُ والتبكير إلى المساجدِ يومَ الجمعةِ وعليهم السكينة والوقار ، ففى الحديث :« إذا كان يوم الجمعةِ قعدت الملائكةُ على أَبواب المسجدِ بأَيديهم صحفٌ من فضةٍ وأَقلامٌ من ذهب يكتبون الأَولَ فالأَولَ على مراتِبهم » وقد قيل إن أَولَ بِدعةٍ فى الإسلام ترك البكُور إلى الجمعةِ وإن الشياطين ينتشرون يومَ الجمعة يثبطون عزائم المسلمين ، ويغْرونهم بالاستمرار فى البيع والشراء أَو غيرِها رجاءَ ضياع التبكير . . فاحذروا – أَيُّها المؤمنون – كيدَ الشياطين وبادروا إلى المساجد مبكرين لتحظوا برضوان ربِّ العالمين ، وقد جاءَ فى الحديث الذى رواه علىٌّ بن أَبى طالب رضىالله عنه :« إذا كان يوم الجمعةِ خرجت الشياطين يُرَبِّثُون النَاسَ إلى أَسواقِهم . . » الحديث أى يؤخرون الناس ويُغْوونهم كى يتأَخروا عن أَدائها .

عن جابر رضى الله عنه : أَن رسول الله ﷺ قال فى خطبة له :

* النص فى نهاية تفسير سورة الجمعة فى كتاب الجامع لأحكام القرآن « تفسير القرطبى » .

« يا أيُّها الناسُ تُوبوا إلى اللهِ قبل أن تَموتوا ، وبادِرُوا بالأعمالِ الصالحة قبل أن تُشْغلوا ، وَصِلُوا الذى بينكم وبينَ رَبِّكم بكثرةِ ذِكْرِكُم له ، وكثرةِ الصدقةِ فى السرِّ والعلانية تُرزَقُوا ، وتُنْصَروا ، وتُؤْجَروا .

واعلمُوا أن اللهَ قد فَرَضَ عليكم الجمعةَ فى مقامى هذا ، فى شَهْرى هذا ، فى عامى هذا إلى يوم القيامة ، فَمنْ تَركها فى حياتى أو بعدَ مَماتى وله إمامٌ عادلٌ أو جائرٌ استخفافًا بها ، أو جُحودًا لها ، فلا جَمَعَ اللهُ شَمْلَه ، ولا باركَ له فى أمرِه ، ألا ولا صلاةَ له ، ولا زكاةَ له ؛ ولا حجَّ له ، ألا ولا صومَ له ، ولا بِرَّ له حتى يتوبَ ، فمن تابَ تَابَ اللهُ عليه .

ألا لا تؤمَنَّ امرأةٌ رجلا ، ولا يؤمّ أعرابىٌّ مهاجرًا ، ولا يؤمّ فاجر مؤمنًا إلَّا أنْ يقهره سلطان يخاف سيفه أو سوطه ، استَعِينوا بطاعةِ اللهِ على نَيْلِ ما عندَه من خَيرى الدُّنيا والاخرة .

فاتقوا الله — عباد الله — وحافظوا على الجمعة والجماعات وتوبوا إلى الله لعله يرحمكم .

من آداب الجمعة

— خطبة أخرى فى الجمعة :

أيها المؤمنون :

عن عبد الله بن بُسْرٍ رضى الله عنهما قال : جاءَ رجلٌ يتخطَّى رقاب الناسِ يومَ الجمعة والنبيُّ ﷺ يخطبُ فقال النبي ﷺ : «اجْلِسْ فقد آذيتَ وآنيْتَ » أى تأخرتَ وأبطأْتَ . .

والحديث الشريف يدلُّ على كراهة تخطِّى الرقاب يوم الجمعة والنهى عن ذلك ، كما فيه النهى عن التأَخُّرِ والإبطاء فى الحضور للجمعة فينبغى للمؤمن أن يحرصَ على التبكيرِ وأن يبتعدَ عن كلِّ ما مِنْ شأْنِه يُؤذى المصلين ويُستثنى من ذلك الإمام ، أَوْ مَنْ كان بين يديه فُرجَةٌ لا يَصِلُ إليها إلا بالتخَطِّى ، وَمَنْ يريد الرجوعَ إلى موضعه الذى قام منه لضرورة .

وعن معاذِ بنِ جبل رضى الله تعالى عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « مَنْ تخَطَّى رقابَ الناسِ يومَ الجمعةِ اتَّخذ جِسْرًا إلى جهنم » .

فعلى الداخل إلى المسجد أن يجلسَ حيث انتهى به المجلسُ مكملا الصفوف الناقصةَ شاغلاً الأَماكنَ الخاليةَ ، وليس له أن يتخطَّى رقابَ الناسِ ، ولا يجلسَ فى مؤخرة المسجد مع وجود تلك الأَماكن الخاليةِ حتّى لا يعرِّضَ نفسَه وغيرَه بِتَخَطِّى الرقابِ للعقابِ الشديد ، وهو اتخاذُه جسرًا إلى جهنم . .

كما ينبغى للمؤمن أن ينصتَ للخطبة ويتدبرَ معانيَها ويَعِى الموعظةَ ولا ينشغلَ عن الإنصات وَلْيحذر الكلامَ والإمامُ يخطب .

فعن أَبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا قلتَ لصاحِبك يومَ الجُمعَةِ والإمامُ يخطبُ أَنْصِتْ فقد لَغَوْتَ . . » .

ومعنى لغوت : خِبْتَ من الأَجر . . وقيل : أَخطأْتَ ، وقيل بَطَلَتْ فضيلةُ جُمعتك .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال:قال رسول الله ﷺ : « مَنْ تكلَّم يومَ الجمعةِ والإِمامُ يخطبُ فهو كَمَثَلِ الحمارِ يَحْمِلُ أَسْفارًا ، والذى يقول له أَنْصِتْ ليس له جُمعَةٌ » .

أَى أَن قلبه خالٍ من خشية اللهِ وهو غافلٌ عن وعظِ الإِمام ، وعن فائدةِ الجمعة لهذا شُبِّهَ بالحمار يحملُ الكتبَ ولا يعِى ما فيها .

وعن أَبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إِذا كان يوم الجمعةِ كانَ على كلِّ بابٍ من أَبوابِ المسجدِ ملائكةٌ يكْتُبون الأَولَ فالأَولَ ، فإِذا جَلس الإِمامُ طَوَوا الصُّحُفَ وجَاءُوا يستَمِعُون الذِّكر » .

والذكُر : خطبة الجمعة .

ما يستحب يوم الجمعـــة :

أَيها المؤمنون :

ويُسْتَحَبُّ للمؤمن أَن يَغْتَسِل وينظفَ بدنَهُ ويلبَس أَحسنَ الثيابِ ويتطيب بالطيب ويتنظفَ بالسواك ونحوهِ .

فعن ابن عباسٍ رضى الله عنهما قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إِن هذا يومُ عيدٍ جعله اللهُ للمسلمين ، فمن جاءَ الجمعةَ فلْيغتسِلْ وإِن كان عِنْدَه طِيبٌ فلْيَمسَّ منه وعليكُم بالسواك » .

ويُستحب كثرةُ الصلاة على النبيِّ ﷺ فى يوم الجمعة وليلته . . . وقد وردت الأَحاديث فى الحث على ذلك منها قوله ﷺ : « أَكْثِرُوا من الصلاةِ علىَّ يومَ الجمعةِ وليلتَه » .

كما يُستحب أن يحافظَ المؤمنُ على قراءةِ سورةِ الكهف يومَ الجمعةِ وليلتَه فإنَّ مَنْ فعل ذلك أضاء اللهُ قلبه بالطاعات وشرح صدرَهُ للعبادات، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: «.. من قرأ سورةَ الكهف يومَ الجمعة أضاءَ له من النور ما بين الجمعتين».

فضـــل الجماعـــات :

إن حضور الجماعات فيه مرضاةُ الربِّ سبحانه وتعالى وفيه تأليفُ القلوب بالمحبة ويبعثُ على التواضع والمؤاخاةِ والتعاطفِ والتراحم، والجماعاتُ مظهرٌ لتأكيد الأخوة بين المؤمنين والمساواةِ بين المسلمين، فهم يقفون صفوفًا بين يدى الخالق عز وجل فى ذلٍّ وانكسار يرجون رحمتَه، ويخشَون عذابه، ويذكرون موقفَهُم بين يديه سبحانه وتعالى حيث لا ينفع العبدَ إلا عملُه الصالح، فترتجفُ منهم القلوبُ، ويعظم لديهم الرجاءُ فيتجهون بكل مشاعرهم إلى خالق الأرض والسمواتِ قائلين: ربَّنا اجعلنا مِمَّن قلتَ فيهم: ﴿إنَّ الَّذِينَ آمنُوا وعمِلُوا الصالحاتِ كانت لهم جناتُ الفردوسِ نُزُلًا • خالدِينَ فيها لا يَبْغُون عنها حِوَلًا﴾.

فيَاَ أيُّها المؤمن: إن الرسولَ الحبيبَ ﷺ يريدُ منك أن تَشتغلَ بالدعاءِ والاستغفارِ والتسبيح والصلاةِ على المصطفى ليلةَ الجمعةِ وبتلاوة القرآنِ وذكْرِ اللهِ وبأن تغتسلَ مبكّرا وتشتغلَ فى ضحوتِها بطاعةِ الله، ثم تتزيَّنَ وتَتَنظَّفَ وتتطيبَ، ثم تسعى إلى الجمعة خاشعًا متواضعًا ناويًا للجلوس فى المسجد، وأن تصلِّى من النوافل ما شئتَ قبل خروج الإمام، ويتحقَّقُ ذلك بالبُكور ففضلُه عظيمٌ، كما يريد الرسولُ ﷺ منك أن لا تمرَّ بين أيْدِى الناسِ، ولا تتخطَّى رقابَهُم بل تُسْرع

فى الجلوس فى الصف الأَول ثم الذى يليه وهكذا .. ثم تشتغل بجوابِ المؤذنِ وتنصِتُ إلى الخطبة ولا تشتغل بشىءٍ ساعتها .

وعن عبدِ الله بن عمرو بنِ العاص رضى الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال: « مَن اغتَسلَ يوَم الجُمعِةِ وَمسَّ من طِيبِ امرأتهِ إنْ كان لها ولبِسَ من صالح ثيابِه ثم لم يَتَخطَّ رِقَابَ الناسِ ولم يَلْغُ عندَ الموعظةِ كان كفَّارة لما بَيْنَهما ومن لَغَا وتخَطَّى رقابَ الناس كانت له ظُهرًا » .

وعن حفصةَ رضى اللهُ عنها قالت : قال رسولُ الله ﷺ : « على كلِّ مُحْتَلِمٍ رَواحٌ إلى الجمعةِ ، وعلى كلِّ مَنْ راح إلى الجُمعَةِ الغُسل » .

فاتقوا الله — عباد الله — وسلوه العونَ على طاعته وأكثروا من الدعاءِ فى هذا اليوم المباركِ ، وتوبُوا إليه توبة نَصُوحا فإنه توابٌ رحيم .

أُمّ الكتاب

الحمدُ للهِ ربِّ العالمين. الرّحمن الرَّحيم . أنعم علينا فهدانا وجعلنا مسلمين ، نحمده سبحانه ونستعينُه ، ونستغفرُه ، ونتوبُ إليه ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ، وأشهد أن حبيبَنا وهادينَا محمدًا رسولُ الله بعثه ربُّه رحمةً للعالمين لينقذَ الناس من الضلال ، ويَهْدِيَهُم إلى الصراطِ المستقيم حتى لا يكونوا من الضالين ، ولا من المغضوب عليهم .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على حبيبك الأمين ، وعلى آله وأصحابه ومن تَبِعَهُم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد : فيا أيها المؤمنون :

قال الله تعالى فى الحديث القدسى :

« . . ابن آدم ، أنزلت عليك سبع آيات ، ثلاثٌ لى ، وثلاث لك ، وواحدة بينى وبينك فأما التى لى : ﴿فالحمد لله رب العالمين *الرحمن الرحيم *مالك يوم الدين ﴾ . والتى بينى وبينك . ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ . منك العبادة ، وعلىَّ العون ، وأما التى لك : ﴿. . . اهدنا الصراط المستقيم *صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين . . ﴾ .

يرشدنا الحديث القدسى إلى أن الله تعالى أنزل سبع آيات هى فاتحة الكتاب وثلاث منها مختصة بالله تعالى ، وأولها « الحمد لله رب العالمين » والحمد على الحقيقة لا يكون إلا لله جل اسمه ، وتنزهت

صفاته ، لأن النعم منه سبحانه وتعالى وإليه وفى الحديث: « اللهم لك الحمد كله » وقال « أفضل الدعاء الحمد لله » وقد أجمع المسلمون على أن الله عز وجل محمود على عظيم فضله ، وجميع نعمه ، ومنها نعمة الإيمان التى هى أجل النعم .

وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « . . إذا قال العبد ﴿ الحمد لله ﴾ قال صدق عبدى الحمد لى . . » .

أيها المؤمنون :

والحمد أفضل ما يُرْزَقُه العبد المؤمن . .

فعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « . . لو أن الدنيا كلُّها بحذافيرها بيد رجل من أُمتى ثم قال « الحمد لله » ، لكانت الحمد لله أفضلَ من ذلك » .

والمعنى أن المؤمن لو أعطى الدنيا ثم أعطى على أثرها هذه الكلمة حتى نطق بها حامدًا ربه فإن هذه الكلمة تكون أفضلَ من الدنيا كلها ، لأن الدنيا فانية ، والكلمةَ باقية من الباقيات الصالحات . .

قال تعالى : ﴿ الْمَالُ والبَنُونَ زِينَةُ الحَياةِ الدُّنْيَا والباقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(١) . .

و﴿الرحمٰن﴾ اسم عام فى جميع أنواع الرحمة فهو سبحانه العاطف على البر والفاجر من خلقه .

والثانية :﴿ الرحمن الرحيم ﴾ . فهو سبحانه وتعالى الرحمٰن أى المنعم بجلائل النعم ، والرحيم أى المنعم بدقائقها، والرحيم إنما هى رحمته بالمؤمنين خاصة قال تعالى : ﴿ وكان بالمؤمنين رحيمًا ﴾ .

---

(١) الكهف : ٤٦ .

وأكثر العلماء على أن الرحمن مختص بالله عز وجل ، لا يجوز أن يُسمَّى به غيرُه قال تعالى: ﴿ قُلْ ادْعُوا الله أَو ادْعُوا الرَّحْمٰن ﴾(١) . فعادل الاسم الذى لا يشركه فيه غيره .

سبحانه وتعالى ، جل شأنه هو رب العالمين أى مالكهم ، وهو سبحانه مدبر لخلقه ومربيهم : ﴿ . . قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ العَالَمِينَ * قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين ﴾ (٢) .

وهو سبحانه الرحمن الرحيم الذى إذا سُئل أعطى وإذا لم يسأل غضب .

الله يغضب إن تركت سؤاله   وبُنَىّ آدم حينُ يُسأَل يغضب

الثالثة : « مالك يوم الدين » . أى مالك يوم الحساب والجزاء أى يوم يدين اللهُ تعالى العبادَ بأعمالهم ، ويجازى كل شخص بما كسب .

﴿ فمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرةٍ خَيْرًا يَرَه * ومَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾(٣)

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « يقبض الله الأرض يوم القيامة ويطوى السماء بيمينه ثم يقول : أنا الملك أين ملوك الأرض ؟ » .

و﴿مالك يوم الدين﴾ : لا يُدعى به إلا الله تعالى وكذلك مِلِك يوم الدين ومالك الملك وملك الأملاك ومثلها شاهان شاه .. . أما الوصف بمالك وملك فيجوز أن يُوصف بهما من اتصف بمفهومهما قال الله العظيم :

﴿ إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً . . . ﴾ (٤) .

فهذه الثلاث ﴿ . . الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين ﴾ لله وحده . . . فالحمد لله وحده ، وهو مالك الملك

(١) الإسراء : ١١٠ .
(٢) الشعراء : ٢٣ ، ٢٤ .
(٣) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٤) البقرة : ٢٤٧

ومربى الخلق والمنعم عليهم وهو الرحمن الرحيم وهو سبحانه مالك يوم الدين أى فى يوم القيامة لا يكون مالك ولا قاض ولا مجاز غيره سبحانه لا إله إلا هو .

فطوبى لمن يستعد للقاء ربه بالإيمان الصادق والعمل الصالح ، طوبى لمن دان نفسه وحاسبها وعمل لما بعد الموت .

أيها المؤمنون :

جاء فى الحديث : «والتى بينى وبينك : . . ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِين ﴾ . منك العبادةُ وعلىَّ العَوْنُ » .

ومعنى ﴿ . . . إياك نعبدُ ﴾ أى لا نعبدُ غيرَك ؛ ﴿ وإياك نَستعين ﴾ أى لا نستعينُ إلا بك .. فنحنُ نخصُّك ياربَّنا بالعبادة والاستعانة فكل عبادة لغيرك تكون إشراكا بك وأنت يا ربنا أغنى الأغنياء عن الشرك : ﴿ ألا لله الدين الخالص ... ﴾(٢) والاستعانة لا تكون إلا بك جل اسمك وعظم سلطانك فمن استعان بغيرك أو أشرك معك سواك فقد كفرك وجحد نعماءك ، وضل عن سواء السبيل فمنك – ياربنا – العون ومنا لك العبادة أى غاية الذل مع غاية الخشوع ، وهذا معنى أن هذه الآية مشتركة بين الله تعالى وعبده .

وأما الآيات الثلاث الخاصة بالعبد فأولها ﴿.. اهدنا الصراط المستقيم ﴾ . أى أرشِدْنَا وَوَفِّقْنَا إلى الدينِ الحقِّ الواضِح الذى لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف ، وإلى الصراطِ السويِّ الذى هو دينُ الإسلام .. قال تعالى :

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوه ﴾ (١) .

وقال القرطبي : اهْدِنا دعاءٌ ورغبةٌ من المربوبِ إلى الربِّ ، والمعنى

---

(١) الزمر : ٣   (٢) الأنعام : ١٥٣ .

دلّنَا على الصراطِ المستقيم وأَرْشِدْنا إليه وأَرِنا طريقَ هدايَتِكَ الموصّلة إلى أُنسِك وقُربك » .

وقال محمدُ بنُ الحنفية « . . ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ المُسْتَقِيم ﴾ . هو دينُ اللهِ الذى لا يَقْبَلُ من العباد غَيْرَهُ . . . . . .

ومن ذلك قولُ الله تعالى :﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وهُوَ فى الآخِرةِ مِنَ الخاسِرين ﴾ . (١) .

والثانية من الآيات الثلاث الخاصة بالعبد ﴿ صراط الذين أنعمت عليهم . . ﴾ أى صراط النبيين والصديقين والشهداء والصالحين . . قال تعالى . . . ﴿ . . وَمَن يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّين والصِّدِّيقينَ والشُّهدَاءِ والصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولئكَ رَفِيقًا ﴾ (٢) .

والثالثة :﴿ غيرِ المغضوب عليهم ولا الضالين . . ﴾ أى غير الذين فسدت إرادتهم فعلموا الحقَّ ثُمَّ عدلوا عنه ، وغير الذين فقدوا العلمَ فهم هائِمون فى الضَّلالةِ لا يهتدون إلى الحقِّ ذلك أن النصارى فَقَدُوا عِلمَ الدين ، وأساسُه التوحيدُ .

وورد أن المغضوبَ عليهم هم اليهود الذين قال الله فيهم : ﴿ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللهِ ﴾ (٣) . وقال ﴿ . . وغَضِبَ الله عليهم ﴾ (٤) . والضالين النصارى الذين حَكَم اللهُ عليهم بالضلال فقال . . ﴿ قَد ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ﴾ (٥)

---

(١) آل عمران : ٨٥
(٢) النساء : ٦٩ .
(٣) البقرة : ٦١ .
(٤) الفتح : ٦
(٥) المائدة : ٧٧ .

أيها المؤمنون :

جاء من حديث رسول الله ﷺ قوله : « الحمد لله رب العالمين هى السبع المثانى والقرآن العظيم الذى أُوتيته .. » ومعنى كونها مثانى أنها تثنى وتعاد فى كل ركعة من الصلاة لفرضيتها فيها وقيل معناه أنها يثنى فيها على الله تعالى بما أمر .

وهى القرآنُ العظيمُ سُمِّيت بذلك لتضمُّنها جميعَ علومِ القرآنِ وذلك أنها تشتملُ على الثناء على اللهِ عز وجل بأوصافِ كمالِه وجلالِه وعلى الأَمرِ بالعباداتِ والإخلاصِ فيها والاعترافِ بالعجزِ عن القيام بشىءٍ منها إلا بإعانتِه تعالى وعلى الابتهال إليه فى الهداية إلى الصراط المستقيم وكفاية أحوال الناكثين وعلى بيان عاقبة الجاحدين . .

وعن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الحمد لله أمُّ القرآن وأمُّ الكتاب والسبعُ المثانى » .

فاتقوا الله وتوبوا إليه وسلوه العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

* * *

الخطبة الثانية :

١ — عن أبى سعيد بن المعلى قال : كنت أُصلى فدعانى رسول الله ﷺ فلم أجبه حتى صليت وأتيت ، قال : ما منعك أن تأْتينى ؟ قال : قلت يارسول الله إنى كنت أُصلى ، قال : ألم يقل الله ﴿ يأَيها الذين آمنُوا استجِيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يُحْيِيكم ﴾ ثم قال : لأُعلمنك أعظم سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد . قال :

فأخذ بيدى ، فلما أراد أن يخرج من المسجد قلت : يا رسول الله إنك قلت لأُعلمنك أعظم سورة فى القرآن ، قال : « نعم » ، الحمدُ لله رب العالمين ، هى السبع المثانى والقرآنُ العظيم الذى أوتيته » .

٢ — وفى الحديث القدسى ، يقول رب العزة :« قسمت الصلاة بينى وبين عبدى نصفين ولعبدى ما سأل فإذا قال العبد :﴿الحمد لله رب العالمين﴾: قال الله حمدنى عبدى وإذا قال : ﴿ الرحمن الرحيم﴾ قال : أثنى علىّ عبدى وإذا قال : ﴿مالك يوم الدين ﴾ قال : مجّدنى عبدى وإذا قال العبد : ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾ قال : هذا بينى وبين عبدى ولعبدى ما سأل . فإذا قال:﴿ اهدنا الصراط المستقيم ... ﴾ قال : هذا لعبدى ولعبدى مَا سأل .

* * *

الزكاة ركن الإسلام

قال الله تعالى : ﴿ خُذ مِنْ أَموالِهِم صَدَقةً تُطهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وصلِّ عَلَيْهِم إنَّ صلاتَك سكَنٌ لهُمْ واللهُ سميعٌ عليمٌ * أَلَمْ يعْلَمُوا أَنَّ الله هُوَ يَقْبَلُ التوبَةَ عنْ عِبَادِه ويَأْخُذُ الصدقَاتِ وأَنَّ اللهَ هُو التَّوابُ الرَّحيمُ ﴾ (١) .

يأْمر الله عز وجل بِأَخْذ زكاةِ الأَموال من القادرين لإنفاقها فى وُجُوه استحقاقِها ولسدِّ حاجةِ الفقراءِ والمساكين وأَبناءِ السبيل إذ تقومُ الحياةُ فى المجتمع الإسلامى على أَساس وثيق من المحبةِ والإخاءِ والمساواةِ والتكافلِ والتعاطفِ ، وتلك ميزةٌ تحقق الخيرَ للناس جميعًا وتنزعُ ما فى الصدور من أَحقادٍ وضغائنَ ، وتطهر النفوسَ من البُخل والشحِّ والقسوة وتزكِّيها بالخيرات والبركات وتنمِّيها بالرحمة والبرِّ ونورِ التوفيق والسداد والرشاد : ﴿خُذْ مِنْ أَموالِهم صدقةً تطهرُهم وتزكِّيهم بها﴾.

وفى الزكاةِ والصدقة تحصينٌ للأَموال ، وصيانةٌ لها ، فهى سببٌ لنماءِ المال بالبركةِ فى الدنيا ، ويضاعف الله ثوابها لصاحبها فى الآخرة .

وفى الحديث الذى رواه الحسن أَن النبى ﷺ قال : « حَصِّنُوا أَموالَكُم بالزكاة ، وداووا مَرْضاكم بالصدقة ، واسْتقبِلوا أَمواجَ البلاءِ بالدعاء والتضرع » .

والزكاةُ ركن من أَركان الدين ، وقاعدة فى بنائه المتين ، فرضها الله فى كتابه على عباده ووضَّحتها السنَّة النبويةُ المطهرةُ ، وأَجمعت على

---

(١) التوبة : ١٠٣ ، ١٠٤ .

فرضيتها الأمةُ ، ومنكر فرضية الزكاة كافرٌ مرتد، لأنها معلومة من الدين بالضرورة ، ولم يَخْبُ لها نورٌ فى أى عصر من عصور الإسلام .

والله عز وجل يقول : ﴿ وأقيموا الصلاةَ وآتُوا الزكاة ﴾ (١) .

وفى الحديث الذى رواه ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له : « إنك تقدم على قوم أهلِ كتاب فليكنْ أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى، فإذا عرفوا الله تعالى ، فأَخبِرهم أن الله تعالى فرضَ عليهم زكاة تُؤخذ من أغنيائهم وتُرَدّ على فقرائهم » .

وأكد الإسلام أن الزكاةَ حقٌّ الفقير فى مال الغنى لا يجوز حبسه عنه ، ويحرم البخل به ، ويشتد الوعيد على من يتهاون بأمر الزكاة وقد وجبت عليه ، والحق تبارك وتعالى يقول :

﴿ وفى أموالِهم حقٌّ للسَّائِلِ والمحْروم ﴾ (٢) .

والحقُّ المعلوم هو الزكاةُ التى بيَّن الشرع قدَرها وجنْسها ووقتها وفى التحذير من منع الزكاة والتخويف من عواقب ذلك يَروى أنس رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « ويلٌ للأغنياء من الفقراء يومَ القيامة ، يقولون : ربَّنا ، ظلمونا حقوقَنا التى فَرضْتَ لنا عليهم فيقول الله تعالى : وعزَّتى وجَلالى لأُقرِّبَنَّكُم ولأُبعِدَنَّهم ، ثم تلا رسول الله ﷺ ﴿ وَفِى أَمْوالِهم حقٌّ معلوم * للسَّائِل والمَحْروم ﴾ .

وجاء فى الموطإ عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه كان يقول : « مَنْ كان عنده مالٌ لم يؤدِّ زكاتَه مثِّلَ له يومَ القيامة شُجاعًا أقرعَ — أى أفعى عظيمة السُّم — له زبيبتان يطلبه حتى يمكنه ، يقول له : أنا كَنزُك » .

---

(١) المزمل : ٢٠ .   (٢) الذاريات : ١٩ .

وقدروى هذا المعنى موفوعًا إلى النبي ﷺ .

وعن أبي هريرة — أيضًا — أن رسول الله ﷺ أنذر بأن المال الذى لا تُؤدى زكاته سيكون وبالا على صاحبه فى يوم لا ينفع فيه درهم ولا دينار ، ولا ذهب ولا فضة فيقول :

« ما مِنْ صاحبِ ذهب ولا فضةٍ لا يؤدِّى منها حقَّها — أى زكاتها — إلا إذا كان يوم القيامة صفِّحت له — أى هذه الأموال — صفائح من من نار فأُحمى عليها فى نار جهنم فيكوىٰ بها جنبه ، وجبينُه ، وظهره كلما بردت أُعيدت له فى يومٍ كان مقدارُه خمسين ألف سنة : حتى يُقضى بين العباد ، إمّا إلى الجنَّة وإما إلى النَّار » .

وأخبرنا النبي ﷺ أن الشُّح لا يتفق مع صدق الإيمان، وصحةِ اليقين فقال : « لا يجتمعُ الشُّح والإيمانُ فى قلبِ عبدٍ أبدًا » .

والله عز وجلّ يقول :﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(١)

فطوبى للأسخياء الذين لا يبخلون بما آتاهم الله من فضله ويَرْعون حقّ اليتيم والأرمل والمسكين ، ويحرصون على أداء الزكاةِ وإقامةِ هذا الركن الذى فرضه الله على عباده المؤمنين تحقيقًا للعدل الاجتماعى ، وامتحانًا لإيمان المسلم ، ولذا كان المؤدون زكاة أموالهم من الناجين المفلحين يوم يندم المفرطون ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى :

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾ (٢) .

إن المؤمنَ حقا هو الذى يبادر إلى الخيرات ، ويسارع إلى الصالحات وينفق مما آتاه الله ، ولا يبخل بالزكاة المفروضة ، ولا يسوِّف ،

---

(١) الحشر : ٩ .   (٢) المؤمنون : ١ — ٤ .

ولا يغفُل ، حتى لا يندمَ فى ساعة لا ينفع فيها الندم ، ولا تُقبل توبة ،. ولنسمع الله عز وجل يقول :

﴿ وأنفِقُوا مِمَّا رزقْناكم من قَبْل أن يأْتِى أحدَكُم الموتُ فيقولَ ربِّ لولا أخَّرتَنى إلى أجَلٍ قَرِيبٍ فأصدَّق وأكن مِّنَ الصَّالحين * ولن يُؤَخِّرَ اللهُ نفْسًا إذا جاءَ أجلُها واللهُ خبيرٌ بما تَعملُون ﴾ (١) .

وفى هذا دليلٌ على وجوب تعجيل الزكاة ولا يجوز تأْخيرُها إذا تعين وقتُها مثل سائر العباداتِ والذى يتهاون حتى يوافيَهُ الموتُ فإنه يَسْأَل الرجعةَ إلى الدنيا ليعمل صالحًا .

يقول ابن عباس رضى الله عنهما :«تصدَّقُوا قبل أن ينزل عليكم سلطان الموتِ فلا تُقبل توبة ، ولا ينفعُ عمل ، ويقول: ما يمنعُ أحدَكم إذا كان له مالٌ أن يزكى ، وإذا أطاق الحجَّ أن يحج من قبل أن يأْتيه الموت فيسأَل ربَّه الرجعة فلا يُعْطاها » .

إن المرءَ لن ينفعَهُ فى حياته الأبدية إلا ما قدمه من عمل صالح وصدقةٍ خالصةٍ لوجه اللهِ ، فما يؤخره المرءُ بعد موته إنما هو لورثته ، وما يقدمه فى وجوهه ابتغاءَ رضوان الله فهو لنفسه ، « يقول ابنُ آدم : مالى ، مالى ، وليس لك من مالك إلا ما أكلتَ فأفنيتَ ، أو لبست فأبليتَ ، أو تصدَّقت فأبقيت » ، فالصدقةُ الخالصة لوجه الله عز وجل هى الذخر الباقى الذى يدوم نفعه كما لفتنا الحبيب المصطفى ﷺ ، وذلك أن النفقة فى سبيل الله سرًّا وعلانية هى التجارة التى لا تبور ولا تكسدولا تخسر وإنما هى فى ربح دائم : بركةٍ فى الدنيا : ﴿وَمَا أنفقْتُم من شىء فهو يُخْلِفُهُ وهو خَيْرُ الرَّازِقينَ ﴾ (٢) . . ورحمةٍ ونعيم فى الآخرة . . ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى :

(١) المنافقــون : ١٠ ، ١١ .   (٢) سـبأ : ٣٩ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كتابَ الله وأَقامُوا الصلاةَ وأَنفقُوا مِمَّا رزقْناهُم سرًّا وعلانِيَةً يرجُونَ تِجَارةً لَنْ تَبُورَ * لِيُوفيَهُم أُجورَهُم ويَزِيدَهُم من فضْلِه إنه غفورٌ شَكُورٌ ﴾ (١) .

إن الزكاةَ ركن لا يتم إسلام المرء إلا به فمن أداها كان مسلمًا حقًّا ، ومَن تركها فقد هدم ركنًا من أركان الدين وهذا رسول الله ﷺ يبين لبعض القبائل ما يجب عليهم بعد إسلامهم فكان مِمَّا قاله : « إن تمامَ إسلامكم أن تؤدُّوا زكاةَ أموالِكم » .

وعن جرير بن عبد الله رضى الله عنه قال : « بايعتُ رسولَ الله ﷺ على إقامِ الصلاةِ وإيتاء الزكاةِ والنُّصْحِ لكلِّ مسلمٍ » .

فاتقوا الله وأَخرجوا زكاةَ أَموالكم ، وتوبوا إلى الله واستغفروه يغفرْ لكم .

---

(١) فاطـر : ٢٩ ، ٣٠ .

شهر الخيرات والبركات

أما بعد :

فقد قال الله تعالى : «﴿ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُم الشَّهْرَ فَلْيَصمْه ﴾(١) » .

أيها المؤمنون :

الشهر هو شهر رمضانَ(٢) المباركِ ، وقيل إنَّما سمِّى رَمضانَ لأنه يَرْمَضُ الذُّنوبَ أى يَحْرِقُها بالأعمالِ الصَّالحةِ ، من الإرْمَاضِ وَهو الإحْراقُ .

وهو شهر رحمةٍ ونعمةٍ فيه تَلِين القلوبُ من حَرارةِ الموعظةِ ، وتتجهُ النفسُ إلى الفكرِ فى أمرِ الآخرةِ والاستعدادِ لها ، وفيه تخِفُّ وطأةُ الشهوات على النفسِ المؤمنة ، ويُحْفَظُ النادمون من شَرِّ الشيطانِ ونَزْغِه ، ويعظمُ الرجاءُ فى عفو اللهِ وجودِه وَبِرِّه وكَرَمِه ، وتُسْكَبُ العَبَراتُ لتغسلَ أدرانَ المعاصى والموبقاتِ ، وتُرْفَعُ أكفُّ الضراعة بالليل والنهارِ لتستقبلَ الرحَمَات .

يقول أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسول الله ﷺ : « أتاكم رمضانُ شهرٌ مباركٌ ، فَرَضَ اللهُ عز وجل عليكم صِيَامَهُ ، تُفْتَحُ فيه أبوابُ السَّماءِ ، وتُغلقُ فيه أَبوابُ جهنم ، وتُغَلّ فيه مَرَدةُ الشياطين ، لله فيه ليلةٌ خيرٌ من ألفِ شهرٍ مَنْ حُرِم خَيْرَها فقد حُرِم » .

فما أعظمَ رحمةَ الله على عباده الصالحين فى هذا الشهر الكريم ، وطوبى للتائبين العابدين الشاكرين الذين يشملُهم فضلُ الله العظيم فى

---

(١) البقرة : ١٨٥ .

(٢) ورمضان مأخوذ من رمض الصائم يرمض إذا احترق جوفه من شدة العطش ، والرمضاء : شدة الحر .

* فى الأسبوع الأول من رمضان .

هذه الأيام والليالى المباركات وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة رضى الله عنه : « إذا جاء رمضانُ فُتِّحَت أبوابُ الرحمةِ وغُلِّقَتْ أبوابُ النارِ وصُفِّدَت الشياطينُ » .

فرض الله عز وجل صيامَه على المكلفين فقال آمرًا بذلك : ﴿ فَمَنْ شهِدَ مِنْكُم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه ﴾ .

أى من كان مقيما عند دخول الشهر من المسلمين البالغين العقلاء الأصحّاء وجبَ فى حقِّهِ الصومُ ، وفى الحديث الذى رواه عبدُ الرحمن ابن عوف رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « إن اللهَ تعالى فرضَ صيامَ رمضانَ — عليكم — وسَنَنْتُ لكم قيامَه فَمَنْ صَامهُ وقَامَهُ إيمانًا واحتِسَابًا خَرج مِن ذُنُوبِه كيوم وَلَدَتْهُ أُمُّه» .

والصومُ فى الشرع هو الإمساكُ عن المفطِّرات مع اقترانِ النية به من طلوع الفجر إلى غروبِ الشمسِ ، وتمامُه وكمالُه باجتنابِ المحْظُوراتِ وعدمِ الوقوع فى المُحَرَّمات لقوله ﷺ : « مَنْ لم يَدَعْ قولَ الزورِ والعملَ به فليس لله حاجةٌ فى أن يَدَعَ طَعَامَهُ وشَرابَه من أَجْلِه » .

فليس غايةُ صومِنا أن نُمْسِكَ عن الطعام والشرابِ ونحوِهما من المفطِّرات ، وإنما أن يكونَ الصائمُ مراقِبًا ربَّه ، مُتَّقيًا غَضَبَه ، راجيًا رحمتَه وعفْوَه ، لذا يكفُّ جوارحَه عن معاصى الله ويُمسكُ لسانه عن فضولِ الكلامِ وحرامِه ، فلا يشهدُ زورا ، ولا يكذب ، ولا يَشْتُمُ أحدًا ، ولا يتكلمُ إلا بخير ، وفى الحديث الذى رواه أبو هريرَة رضى الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « الصِّيامُ جُنَّةٌ ، فإذا كان أحدُكم صائِمًا فلا يَرْفُثْ ولا يَجْهَلْ (١) فإن امْرُؤٌ قَاتَلَه أو شاتَمه فليقُلْ : إنِّى صائمٌ » .

---

(١) يجهل : يسفه ويستطيل على الناس .

والرَّفَثُ هو الفحشُ فى القول ، والجهلُ هو السفهُ والاستطالةُ على الناس ، وحَثَّ الرسولُ ﷺ المؤمنين الصائمين على التَّحَلِّى بمكارمِ الأَخلاقِ، وعدمِ مجاوزة حدِّ الأَدَبِ بالتعدِّى على الناسِ بالفعلِ أَو بالقولِ، بل يَنبغى لهم أَن يقابلوا الإِساءَةَ بالتجاوُزِ والصفْحِ وليقُلِ الصائمُ حينئذ : إِنِّى صائمٌ إِنِّى صائمٌ ليُذَكِّرَ نفسَه بأَنه صائمٌ فلا يخوضَ مع السَّفيه ، ولا يكافِئهُ على شَتْمِه ، لئلا يَفْسُدَ صَوْمُه ويحْبَطَ أَجْرُ عَمَلِه .

فعلى المسلمِ إِذا أَرادَ أَن يجنِىَ أَعظمَ الثمرات فى هذا الشهرِ المبارك ، ويخرج منه بغنيمة هى أَعظمُ من الدنيا وما فيها من متاع وزينة ، عليه أَن يداوم على طاعة الله ، وأَن يجتنب كلَّ ما يُغضب الله ، وأَن يغضَّ بصرَه عن الحرام ، وأَن يلهجَ لسانُه بذكرِ الله وشكرِه ، وأَن يُكثِرَ من تلاوةِ القرآنِ الكريم وسماعِه وتدبُّرِ آياتِه ومعانيه وأَن يَغْشىٰ مجالسَ العلمِ ، وأَن يجالس الأَتقياءَ الحلماءَ ، ويبتعدَ عن أَهلِ اللهوِ والطيشِ ليلَه ونهارَهُ .

وعلى المسلم فى شهرِ الصوم المباركِ أَن يَبَرَّ أَهلَه ، وأَن يَصِلَ رَحِمَهُ ، وأَنْ يُصافىَ مَنْ عاداه من المؤمنين ، وأَن يصالحَ مَنْ خاصَمه ، وأَن يتحبَّبَ إِلى أَهلِ الفقرِ والمسكنةِ بمواساتِهم وإِظهارِ المودةِ لهم ، وتقديمِ العونِ لهم ، وبذلِ ما يَقْدِرُ عليه فى سبيلِ الله .

وطُوبى للمؤمنِ إِذا حرص على أَداءِ الصلوات فى أَوقاتها وشهِد الجُمعة والجماعاتِ ، ولم تَفتْه ليلةٌ دون أَن يقدم خيرًا لنفسه من صلاةٍ وصدقة وذكْرٍ وسائرِ القربات ، فالعملُ الصالح فى هذا الشهر المبارك يضاعَفُ ثوابُه ، يقولُ النبيُّ ﷺ : « جَعلَ اللهُ صيامَه فريضةً ، وقيامَ ليلهِ

تِطوُّعًا ، من تقَرَّب فيه بخصْلةٍ من الخيرِ كان كمَنْ أَدَّى فريضةً فيما سِوَاه ، ومن أَدَّى فريضةً فيه كان كمَنْ أَدَّى سبعين فريضةً فيما سواه . . »

فطوبى لمن كسا عاريا ، وفَطَّر صائمًا ، وسعى بالخيرِ والبرِّ ، وجعل عملَه لله خالصًا ، وطوبى لمن يحافظُ على فضائلِ الصومِ وآدابِه ليحظى بما أعدَّ اللهُ للصائمين من الثوابِ والمنزلةِ ، يقول الهادى الحبيب ﷺ مخبرًا عن ربِّه : « يقولُ الله تبارك وتعالى : « كلُّ عمَلِ ابن آدمَ له إلا الصومُ فإنه لى وأنا أجزى به » الحديث .

وإنما خَصَّ الصوم بأَنه له وإن كانت العباداتُ كلُّها له لأَمرين بَايَنَ الصومُ بهما سائرَ العبادات ، أَحدهما : أَن الصومَ يمنعُ من ملاذِّ النفسِ وشهواتِها مالا يمنعُ منه سائرُ العبادات .الثانى: أَن الصومَ سِرٌّ بين العبد وبين ربِّه لا يظهر إلا له ، فلذلك صار مختصًّا به وما سواه من العبادات ظاهرٌ ربما فعله تَصنُّعًا ورياءً فلهذا صار أَخصَّ بالصوم من غيرِه.

يا أتباع رسول الله ﷺ :

إن هذا الشهرَ المبارك عظيمُ الخيرِ ، والموفقُ هو الذى يحرصُ على الاستزادةِ من فضل اللهِ فيه ، ولهذا يُنَبِّهُ المُصطَفى ﷺ المؤمنين إلى ذلك فيقول : « لو عَلِمَتْ أُمَّتِى ما فى رمضانَ من الخير لتمنَّت أَن يكونَ رمضانُ السنةَ كلَّها » .

وإن أفدحَ الخَسَارة أَن يُفطِر المسلمُ يومًا من رمضان عامدًا بلا عُذر ، وفى هذا يقول الرسول ﷺ :

« من أَفْطَرَ يومًا من رمضانَ من غيرِ رُخْصةٍ ولا مَرَضٍ لم يعوِّضْهُ صومُ الدهرِ كلِّه » .

فليتَّقِ اللهَ المسلمُ فى صيامه فإن العبادة أَمانةٌ ، واللهُ رقيبٌ على عباده ومحاسبُهم ومجازيهم .

وليحذرِ المؤمنُ أن يكونَ ممَّن قال فيهم رسولُ الله ﷺ : « كم مِنْ صائِم حَظُّه من صيامِه الجوعُ والعطَشُ » وهؤلاء هم الذين لا يراقبون اللهَ ، ولا يتورعون عما حرَّم الله ، ولا يحفظون ألسنتَهم بل يطلقونها بِفحْشِ القول وسيِّىء الكلام ، ولا يتزينون بالفضائلِ التى يُحِبُّها الله .

كان رسول الله ﷺ إذا رأى الهلال قال : « اللَّهُمَّ أهِلَّهُ علينا بالأَمنِ والإيمانِ والسلامِ والإسلام ربِّى وربُّك اللهُ تعالى » وكان إذا نظر إلى الهلال قال : « اللهُم اجعلْه هلالَ يمْنٍ وَرُشْد ، وآمنتُ باللهِ الذى خلقك فَعَدَلَك ، فتبارك اللهُ أحسن الخالقين » .

فطوبى لمن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا ، وأمسك لسانَه عن لغوِ الكلامِ وباطله ، وحافظ على الصلوات فى أوقاتها ، وأقبل على ذكر الله وشكرِه .

واتقوا اللهَ - عبادَ الله - وتوبوا إليه ، إنه تواب غفور رحيم .

السنن الرواتب

قال الله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسولُ فَخُذُوه ﴾ (١) .

عن عائشة رضى الله عنها قالتْ : قال رسولُ الله ﷺ « مَنْ ثابرَ على ثنتى عشرةَ ركعةً من السُّنَّة بَنىٰ اللهُ له بيتًا فى الجنَّة : أربعِ ركعاتٍ قبلَ الظهر ، وركعتين بعدها ، وركعتين بعد المغرب ، وركعتين بعد العشاء ، وركعتين قبل الفجر » .

فرض الله عز وجل على المؤمنين خمسَ صلواتٍ فى اليوم والليلة ، وأمرهم بالمحافظة عليها ، وعدم التهاون بشأنها ، وأَحَبُّ عملٍ يتقرب به العبد المؤمن إلى ربه هو أداء فرائضه ، وفى الحديث القدسى : « وما تقَرَّبَ إلىّ عبدى بشىء أحبُّ إلىّ مما افترضت عليه » وللترق فى مدارج الخيرِ والفلاح والصلاح شرع اللهُ لعباده النوافل والسنن ، وأوحى بها إلى نبيه ﷺ ، والنافلة تكون من جنس فريضة ، وفى الحديث القدسى : « وما يزال عبدى يتقربُ إلىّ بالنوافل حتى أُحبَّه » .

والنوافلُ مجالٌ عظيم للخير ، وفيه يتنافس المتنافسون ، وتتفاوت منازل الصالحين ، وأعلى المقاماتِ بين الناس هو مقامُ النبوة ، وكان النبىُّ الهادى ﷺ أصبر الناس على طاعة الله ، وأشدهم خوفًا ، وأعظمهم إخلاصا ومحبةً ، حتى لقد كانت قدماه تتورمان من طول القيام بين يدى الرحمٰن فيُسأَل عن ذلك إشفاقًا عليه فيقول : « أفلا أكون عبدًا شكورًا »

وكان من سُنَّته ﷺ المداومةُ على ثنتى عشرةَ ركعة موزعة قبل الفرائض وبعدها فى اليوم والليلة ، وكانت تزيد على هذا أحيانا

(١) الحشر : ٧ .

على النحو الذى بينه بعضُ أزواجه ﷺ وبعضُ الصحابة رضوانُ الله عليهم ، والرسولُ ﷺ هو قدوتنا فى طريق الخير والهدى والنور ، وينبغى للمؤمنين أن يحرصوا دومًا على الاقتداء بالحبيب الهادى ﷺ ، وأن يعضوا على سُنَّته بالنواجذ ، وقد ثبت أنه ﷺ كان يثابر على الصلاة قبل الظهر وبعده ، وبعد المغرب ، وبعد العشاء ، وقبل الصبح ، كما ثبت أيضا أنه كان يصلى قبل صلاة العصر ، وبعض هذه السنن كان يصليها عليه السلام ثنتين أو أربعا أو ستا .

وقد سأل عبد الله بن شفيق رحمه الله أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن تطوع رسول الله ﷺ فقالت : « كان صلى الله عليه وسلم يصلى فى بيته قبل الظهر أربعًا ، ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيصلى ركعتين ، وكان يصلى بالناس المغرب ثم يدخل فيصلى ركعتين ، ويصلى بالناس العشاءَ ويدخل فيصلى ركعتين ، وكان يصلى من الليل تسعَ ركعات فيهنّ الوتر . . ثم قالت : وكان إذا طلع الفجر صلى ركعتين ثم يخرج فيصلى بالناس صلاة الفجر » .

وعن على رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ كان يصلى فى إثر كل صلاةٍ مكتوبة ركعتين إلا الفجر والعصر .

إن المثابرة على أداءِ هذه السنن الرواتب ثوابُها عظيم ، لأن فيها تقربا إلى الله عز وجل ، واقتداءً بنبيه الهادى ﷺ . . ولنتدبر ما يقوله النبي ﷺ فى ركعتى الفجر : « ركعتا الفجر خيرٌ من الدنيا وما فيها » ويقول عنهما : « لَهُما أَحبُّ إلىَّ من الدنيا جميعًا » وفى حثٍّ المؤمنين على الحرص عليهما يقول : « لا تَدَعُوهمَا ولو طَرَدَتْكُم الخيل » .

وَمَنْ دخل المسجدَ والمؤذنُ يقيم لصلاةِ الصبحِ أو وجد الجماعةَ قائمة ولم يكن صلى ركعتى الفجر فعليه أنْ يصلِّيهما بعد طلوع الشمس وارتفاعِها فنى الحديث الشريف:« مَنْ لم يُصلِّ ركعَتَى الفجرِ فَلْيصَلِّهما بعد ما تطلعُ الشمس » .

وثبت لدى مالكٍ رضى الله عنه أن ابنَ عمر فاتته ركعتا الفجر فقضاهما بعد أن طلعت الشمس .

ورُوِى أيضا أن الرسول ﷺ لم يَنْهَ مَنْ صلّاهما بعد صلاةِ الصبح وقبل الشروق ، فقد روى محمدُ بنُ إبراهيم التيمى عن قيس بن عمر وقال : خرج رسولُ الله ﷺ فأُقيمت الصلاة ، فصليتُ معه الصبحَ ، ثم انصرف النبىُّ ﷺ فوجدنى أصلى ، فقال :«مهلا ياقيسُ ، أصلاتان معًا ؟ فقلت يارسول الله إنى لم أكن ركعت ركعتى الفجر ، فقال : فلا إذن » .

أما الراتبةُ قبل الظهر فقد صلاها النبى ﷺ ثنتين كما صلاها أربعا ، وكذلك كان يفعل فى الراتبة بعد الظهر ، ورغب ﷺ فى صلاتها أربعًا ، ففى حديث أم حبيبة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال : « من صلى قبل الظهر أربعًا ، وبعدها أربعًا حَرّمه اللهُ على النار » .

وفى رواية عبد الله بن السائب : أن رسول الله ﷺ كان يصلى أربعًا بعد أن تزول الشمس قبل صلاة الظهر ، وقال :

« إنها ساعةٌ تُفتح فيها أبوابُ السماءِ وأُحب أن يصعدَ لى فيها عملٌ صالح » .

أما قبل فريضة العصر فقد جاء أن الرسول ﷺ صلى ركعتين قبلها كما أنه صلى أربع ركعات بتسليمتين ، يقول ابن عمر قال

رسول الله ﷺ : « رحم الله امرأً صلى قبل العصر أربعًا » ويقول على رضى الله عنه :« كان رسول الله ﷺ يصلى قبل العصر أَربع ركعاتٍ يفصل بينهنّ بالتسليم على الملائكة المقربين ومن تبعهم من المسلمين والمؤمنين » .

وجاء الترغيب فى التعجيل بصلاة ركعتين بعْد صلاة المغرب ، وقال ابن عمر رضى الله عنه : « صليتُ مع النبى ﷺ ركعتين بعد المغرب فى بيته » .

أَما النافلة بعد الغروب وقبل الإقامة لصلاة المغرب فقد بين النبى ﷺ أَنها « لمَنْ شاءَ » ولم ينهَ عنها من رآهم يصلُّونها فى مسجده حين خرج إليهم لصلاة المغرب .

أَما راتبة بعد العشاء فمؤكدة ، وقد ورد أَنها ثنتان ، كما ورد أنه ﷺ صلاها أَربعًا وستًّا ، قالت عائشة رضى الله عنها فى جواب سؤال : « ما صلى العشاء قط فدخل بيتى إلا صلى أَربعَ ركعاتٍ أَو ستَّ ركعات » .

أَما عن الراتبة بعد صلاة الجمعة فقدجاءَ عن ابن عمر رضى الله عنه : « وكان لا يصلى بعد الجمعة حتى ينصرفَ فيصلِّيَ ركعتين فى بيته » .

كما جاءَ الترغيب فى صلاة أَربع ركعات بعد الجمعة فى الحديث : « مَن كان مصلِّيًا بعد الجمعةِ فليصلِّ أَربعًا » . . وَمَنْ صلى النافلَة فى المسجد بعد الجمعة فليفصل بينها وبين الفريضة بِذِكْرٍ ونحوه ، وليغيِّر موضعَه وكذلك يفصل بين الفريضة والتطوع بمقدار خَتْم الصلاة ونحوه .

وصلاةُ الوتر يحبها الله عز وجل ، وثابر عليها النبيُّ ﷺ والسلف

الصالح وفى الحديث : « إن الله وتر يحِبُّ الوتر فأوتروا يا أهلَ القرآن »
وقال عليه السلام : « اجْعَلُوا آخر صلاتكم بالليل وترًا » .

أما عدد ركعات الوتر فهى واحدة أو ثلاثٌ أو خمس أو سبع أو تسع .

وقد جاء من حديث أم مسلمة رضى الله عنها : كان النبى ﷺ يوتر بسبع أو خمسٍ لا يفصل بينهنّ بتسليم » وكان ﷺ يقول بعد التسليم من الوتر : « سبحان الملكِ القدوس » ثلاثًا .

وقال خارجة بن حُذافة : خرج علينا رسول الله ﷺ يومًا فقال : « قد أَمَدَّكم الله بصلاةٍ هى خيرٌ لكم من حُمْرِ النَّعَم وهى الوترُ ، فجعَلها فيما بين العشاءِ الآخرة إلى طلوع الفجر » وفى الحديث: « من نام عن وترِه فليصلِّ إذا أصبح » .

ومن فضل التطوع أنه يَجْبر ما عسى أن يكون قد وقع فى الفرائض من نقص .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إن أول ما يُحاسب الناسُ به يوم القيامة من أعمالهم الصَّلاةُ ، يقول ربُّنا لملائكتِه ، وهو أعلم : انظروا فى صلاةِ عبدى أتَمَّها أم نَقَصها ؟ فإن كانت تامةً كُتبت له تامة ، وإن انتقص منها شيئًا ، قال : انظروا هل لعبدى من تَطوُّع ؟ فإن كان له تطوُّع ، قال : أتِمُّوا لعبدِى فريضتَهُ من تَطَوُّعِهِ ، ثم تُؤْخَذُ الأعمالُ على ذلك » .

وفى الحديث : « من صلى ركعتين مقبلًا على اللهِ بِقَلْبِه خرج مِنْ ذُنُوبِه كيْوم وَلَدَتْهُ أُمُّه » .

فاستكثروا من الخيرات — أيها المؤمنون — وسابقوا إلى مغفرة من ربكم ، واتقوا الله ، وتوبوا إليه .

فرض على المستطيع

أمـا بعـد :

فقد قال الله تعالى :

﴿ وللهِ عَلَىٰ النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ (١) .

أيها المؤمنون :

الحجُّ أَحدُ أَركانِ الإسلام . ثَبَتَتْ فرضيتُه بالكتابِ والسُّنَّةِ وإجماعِ الأُمةِ ، فلو أَنكر فرضيتَه إنسان حُكِمَ بكُفْرِه وارتدادِه عن الإسلامِ ، لأَنه من الفرائضِ التى عُلِمَت من الدِّينِ بالضرورة .

ودليلُ فرضيتِهِ من الكتابِ قولُ الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَللهِ عَلَىٰ النَّاسِ حِجُّ البَيْت ﴾ .

ومن أَدلةِ الفرضيةِ فى السنةِ قول أَبى هريرةَ رضى الله عنه :

« خطبنا رسول الله ﷺ فقال : يا أَيُّها الناسُ قد فُرِضَ عليكم الحَجُّ فَحُجُّوا » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أَن الأَقرعَ بنَ حابسٍ سأَل رسول الله ﷺ فقال: « الحَجُّ فى كلِّ سَنَةٍ أَو مرَّةً واحدةً ؟ فقال: بل مرةً واحدة . فَمَنْ زَاد فتطوَّع » .

والحجُّ فرْضٌ على المكلَّفِ المستطيعِ وهو الإنسانُ المسلمُ البالغُ العاقلُ الحرُّ القادرُ بالمالِ والبدنِ وليس لديه موانعُ شرعيةٌ ، لا تَتَحقَّقُ معها الاستطاعةُ .

أَما القدرةُ بالمال فهو أَن يكونَ مالكًا نفقاتِ السفرِ والإقامةِ على حسب ظروفِ زمانِه زائدًا عن نفقاتِ من تَجِبُ عليه نفقتُهم شرعًا طُوالَ مدةِ غيبتِه حتى يعودَ إليهم إذ نَهَىٰ الرسولُ ﷺ عن تضييعِ المرءِ مَنْ يعولُهم ، وفى الحديث: « كَفَىٰ بالمرءِ إثمًا أَن يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوت » .

---

(١) آل عمران : ٩٧ .

ولا يلزمُ المُعْسِرَأن يستدينَ لحجَّتِه أوعُمْرتِه كما لا يَلْزمُه أن يقبلَ المالَ الموهوبَ له لذلك ، فإذا استدانَ المسلمُ أَو قَبِلَ مالًا موهوبًا له وحجَّ فحجُّه صحيحٌ .

وأما الاستطاعةُ بالبدنِ فهى أَن يكونَ المكلَّفُ سليمَ الجسم ، صحيحَ البدنِ خاليًا من الأَمراضِ المُعيقةِ عن الحركة وتَحَمُّلِ مشاقِّ الركوب والانتقالِ من مكانٍ إلى مكانٍ ، فمن كانت به زمانةٌ أَو مرضٌ لا يُرْجَىٰ شِفاؤُه ، أَو تَقَدَّمتْ به السنُّ فلم يَعُدْ يَقْوَى على الرحلةِ فكلُّ هؤلاءِ لا تتحققُ فيهم شروطُ الاستطاعة .

وقد يتحققُ لإنسانٍ شروط الاستطاعةِ بالمال والقدرةِ البدنيةِ ولكن تُقَابِلُه عوارضُ تمنعُ استطاعته وذلك مثلُ : أَن يكونَ شخصٌ محبوسًا ، أَو خاف على نفسِه من وباء فى طريقه أَو عَلِمَ أَن الطريقَ غيرُ مأْمونةٍ ويخشى على نفسه أَو على مالِه ونحو ذلك ، وينبغى للمرأَةِ أَن تسافرَ معَ مَحْرم كالأَبِ ونحوِه أَو مع زوجها أَو مع نِسْوَةٍ ثِقَاتٍ مأْموناتٍ ، فإذا تحققت شروطُ الاستطاعةِ وجب على المسلم — رجل كان أَو امرأَة — أَن يُبادرَ إلى أَداءِ الحجِّ ، وعلى هذا حثَّ رسولُ الله ﷺ . فعن ابنِ عباسٍ رضى الله عنهما أَنه ﷺ قال : « مَن أَرادَ الحجَّ فلْيَتعَجَّلْ » .

وإذا كان المسلمُ مستطيعًا بماله ولكنه عاجزٌ ببدنه لزمه أَن يُنيبَ شخصاً يَحُجُّ عنه ويُعطيهِ نفقاتِه لسفرِه وإقامتِه حتى يعودَ ، والأَصلُ فى ذلك ما رواه ابنُ عباسٍ رضىَ الله عنهما أَن امرأَةً من خثعم جاءت للنبيِّ ﷺ تَسْتَفْتِيه ، فقالت يارسولَ الله : إنَّ فريضةَ اللهِ على عبادِه فى الحجِّ أَدركتْ أَبى شيخًا كبيراً لا يستطيعُ أَن يَثْبُتَ على الراحلة أَفأَحُجّ عنه ؟ قال : « نعم » . وكان ذلك فى حجَّة الوداعِ ، وقد روى هذا الحديثَ أَيضًا علىُّ بنُ أَبى طالبٍ رضى الله عنه .

وفى هذا الحديث دليلٌ على أن المرأةَ يجوزُ أن تحجَّ بالنيابة عن الرجلِ سواء كان حيًّا عاجزاً ببدنه أو كان ميِّتًا، كما يصحُّ للرجل أن يحجَّ عن المرأةِ كذلك .

أيهـا المؤمنون :

ويجوز الحجُّ عن الميت أوصى بذلك أو لم يُوصِ سواء كانت النيابة عن حجةِ الإسلامِ أو عن نذرِه الذى لم يَفِ به حتى ماتَ ، فعن ابنِ عباسٍ رضى الله عنهما قال : سَمع النبىّ ﷺ رجلًا يقول : لَبَّيْكَ عن شبْرُمَة ؟ . قال : « وَمَنْ شُبْرُمَةُ ؟ » . قال : أَخٌ لى أو قريبٌ لى ــ والشكُّ من الراوى ــ . فقال : « أَحَجَجْتَ عن نفسِك ؟ » . قال : لا . قال : « فَحُجَّ عن نَفْسِكَ ثمّ حُجَّ عن شُبْرُمَةَ » .

وفى هذا الحديث إشارة إلى أَن مَن يريد الحجَّ عن غيره ينبغى له أَن يكونَ قد أَدى الفريضةَ عن نفسِهِ ، وبهذا تمسك كثيرٌ من أَهلِ العلم .

وفى الحجِّ عمَّن نذرَ أَن يحُجَّ ولم يتمكنْ من الوفاءِ بنذره حتى مات ، جاءَ حديثُ ابنِ عباس رضى الله عنهما قال : أَتى رَجُلٌ النبىَّ ﷺ ، فقال : إن أُختى نَذَرَتْ أَن تَحُجَّ وإنها ماتت ؟ فقال ﷺ : « لو كان عَلَيْهَا دَيْنٌ أَكنتَ قاضيهِ عنها ؟ » . قال : نعم . قال : « فاقض الله تعالى فهو أَحقُّ بالقضاءِ » .

وهذا من بابِ إيصالِ البرِّ والخيرات للأَمواتِ أَن يَحُجَّ المسلمُ عن الميتِ بِرًّا به ووفاءً له خصوصاً الحج عن الأَبوين أو أَحدِهما حِرْصًا على إيصالِ الثوابِ والخيرِ إليهما .

قالَ بعضُ أَهلِ العلم : جاءَت الرخصةُ فى الحجِّ عن الكبير الذى لا مُنْهِض له ولم يحجَّ ، وعمَّن مات ولم يحجّ أَن يحجَّ عنه ولدُه وإن لم يوصِ به ويُجْزِئه إن شاءَ اللهُ تعالىٰ .

إن المسلمَ المكلف المستطيع ينبغى له أَن يؤدى حجة الإسلام ولا يُسَوف

فإنه لا يدرى ما يأتى به الغد،والحجّ فريضة من فرائض الإسلام وأحب الأعمال إلى الله أن يتقرب العبد إلى ربه بأداء ما افترضه عليه .

وقد جاء عن ابن عباس رضى الله عنهما ويرفعه بعضهم قوله : « مَن كان عنده مالٌ يبلّغه الحجَّ فلم يحجّ ، أو عنده مالٌ تحِلُّ فيه الزكاةُ فلم يُزكِّه سأَلَ عندَ الموتِ الرَّجْعَةَ فقيل : ياابن عباس ، إنَّا كُنَّا نَرى هذا للكافرين . فقال : أنا أَقرأُ عليكم قرآنا : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُم وَلَا أَوْلَادُكُم عِنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الخَاسِرُون * وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُم المَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِى إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِّنَ الصَّالِحِين ﴾ (١) .

وروى فى التحذير من التهاون بشأن الحج لمن كان مستطيعاً أن رسول الله ﷺ قال فى خطبته كما روى على بن أبى طالب رضى الله عنه : « يا أَيُّها الناسُ إن اللهَ فرضَ الحجَّ على مَن استطاع إليهِ سَبيلًا ومَنْ لم يفعلْ فَلْيَمُتْ على أَىِّ حالٍ شاءَ إن شاءَ يَهُوديًّا أَو نصرانيًّا أَو مجوسيًّا إلَّا أَن يكونَ به عُذْرٌ من مرضٍ أَو سلطان جائر لا نصيبَ له فى شفاعَتِى ولا وُرودِ حَوْضى » .

ولهذا فإن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال فيما يرويه قتادة عن الحسن : « لقد هَمَمْتُ أَن أَبعثَ رجالًا إلى الأَمصارِ فينظروا إلى مَن كانَ لهُ مالٌ ولم يَحُجَّ فيضرِبُوا عليهِ الجِزْيَةَ » .

فطُوبى للمؤمنِ الذى يؤدِّى فرائضَ اللهِ بإخلاصٍ وَيتَّبع سنةَ نبيِّه ﷺ، ويبادر لأَداءِ حجةِ الإسلامِ عند الاستطاعةِ ، مبتغيًا وجه الله.

واتقوا الله – عباد الله – وسلوه العونَ على طاعتِه ، وأخلصوا العبادة لله ، وتوبوا إليه فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) المنافقون : ٩ ، ١٠

بيوت الله

أما بعد : فيا أيها المؤمنون :

عن أبي سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبيّ ﷺ قال : « إذا رأيتمُ الرجلَ يعتادُ المساجدَ فاشهدوا له بالإيمان » . قال الله عزوجل : ﴿ إنَّما يَعْمُر مساجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليوم الآخِرِ ﴾ (١) .

أى أنَّ الرجلَ الذى يتعلقُ قلبُه بالمسجد ، ويحرصُ على الذهابِ إليه ، وعلى أن يواظِبَ على أداءِ الفرائض مع الإمام فإنَّ الشهادةَ له بالإيمان جائزةٌ ، لأنَّ الله عز وجل جعل عمارةَ المسجد من أمارات الإيمان وصِدْقِ اليقين ، فقال عز وجل :﴿ إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأَقَام الصَّلاَةَ وآتَىٰ الزَّكَاةَ ولَمْ يَخْشَ إلَّا اللهَ فَعَسَى أُولئِكَ أن يَكونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ ﴾(٢) .

وقد أخبر الهادى الحبيب ﷺ أن من السبعة الَّذِين يُظِلُّهم اللهُ فى ظل رحمتِه يومَ تدنُو الشمسُ من الخلائق رجلا قلبُه معلَّقٌ بالمساجدِ .
وقال بعض السلف : إذا رأيتم الرجلَ يعمر المسجد فحَسِّنوا الظَّنَّ به .

المساجدُ بيوتُ الله عز وجل ، فيها يُعبد ، وفيها يذكر ، وهى منارات الهدى وأعلامُ الدين ، شرَّفها اللهُ عز وجل وعظَّمها بإضافتِها إليه : فقال عز وجل :﴿وأَنَّ المَسَاجدَ للهِ فلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحداً ﴾(٣) أى توجَّهوا إليه وحده بالعبادة والدعاءِ واحذروا الشرك بسؤال غيره ، وإنما تُبنَى المساجدُ للصلاة ، وذكرِ الله عز وجل ، وقراءةِ القرآن ، والتقربِ إلى المولى ، والذلِّ بين يديه والرغبة فيما عنده من الثواب والخشية من غضبه .

---

(١) التوبة : ١٨ . (٢) التوبة : ١٨ . (٣) الجن : ١٨ .

إن عمارة المساجد من أعظم القُربات إلى الله عز وجل ، وعمارتُها ببناها وتنظيفها ، وفرشها ، وإنارتها ، وإمدادِها بالمياهِ الطاهرة للتيسير على المؤمنين ، كما تكون عمارتُها بالاعتكاف فيها ، والصلاةِ وكثرةِ التردد عليها لإقامة الجماعات .

وإن زائرَ المسجد يكون فى رعايةِ اللهِ ورحمتِه ما دام جالسًا فيه مراعيًا آدابَ الجلوس ، مُنصرِفًا بقلبه إلى الله . وقد جاءَ فى الحديث القدسى : إن المؤمن إذا مشى إلى المسجدِ قال اللهُ تبارك اسمُه : « عَبْدِى زَارنى ، وعلىَّ قِراه ، ولن أَرضى له قِرىً دُونَ الجَنَّةِ » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : « أَلاَ أَدُلُّكُمْ علىٰ ما يمحُو اللهُ به الخَطايا ، ويرفعُ به الدَّرجات ؟ قالوا : بَلى يا رسولَ الله . قال : إسباغُ الوضوءِ على المكارِه ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجدِ ، وانتظار الصَّلاةِ بعدَ الصَّلاةِ . . فَذَلِكُم الرِّباطُ ، فذَلِكُم الرِّباطُ ، فذٰلِكُمْ الرِّباطُ » .

والله عز وجل يحفظُ عُمارَ المَساجِدِ المتعَلِّقَةَ قلوبهم بها المواظبين على حضور الجماعاتِ فيها يَحْفظُهم فى أنفسِهم وأموالِهم وأهليهم ، كما أخبر الحبيب المصطفى ﷺ فى الحديث . قال : « مَنْ أَحَبَّ الله فَلْيحِبَّنى ، وَمَنْ أَحَبَّنى فَلْيحِبَّ أَصحابى ، ومَنْ أحبَّ أصحابى فليحِبَّ القرآنَ ، ومن أَحبَّ القرآن فليحِبّ المساجدَ ، فإنها أَفنيةُ اللهِ أَبنيته أَذِنَ الله فى رَفْعِها ، وباركَ فيها ، ميمونَةٌ ميمونٌ أَهلُها ، محفوظةٌ محفوظٌ أَهلُها ، هم فى صلاتهم ، والله عز وجل فى حوائجهم ، هم فى مساجدهم والله من ورائهم » .

وقال تعالى : ﴿فى بيوتٍ أَذِنَ الله أَنْ تُرْفَعَ ويذْكَر فِيها اسمه يسَبِّح لَهُ فِيها بالغُدُوِّ والآصالِ * رجالٌ لا تُلْهِيهم تِجارةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ

ذِكْرِ اللهِ وإقامِ الصلاةِ وإيتاءِ الزكاةِ يَخافُونَ يومًا تتقَلَّبُ فِيهِ القُلُوبُ والأبصارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أحسنَ مَا عَمِلُوا ويَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ واللهُ يرزقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١) .

وقوله تعالى : ﴿ أَذِنَ اللهُ أَن تُرفع ﴾ أى أن المساجدَ تُبنى وتعظَّم ويُرفع شأنُها وتُطهَّر من الأنجاس والأقذار ، ويُعْنَى المؤمنون بأمرها وقد جاءَ فى الحديث : « إن المسجدَ لَيَنْزَوِى من النَّجاسةِ كما يَنْزوى الجلدُ من النار » . . وقال ﷺ : « مَنْ أَخرَجَ أَذًى مِنَ المسجدِ بنى اللهُ لهُ بيتًا فى الجنةِ » ، وكانت أُم المؤمنين عائشةُ تقول : « أمرَنا رسولُ الله ﷺ أن نتخذَ المساجدَ فى الدورِ وأن تُطهَّرَ وتُطَيَّبَ » كما أن المساجدَ وهى بيوت الله ، وأحبُّ البقاع إليه ينبغى لنا أن نصونَها وأن ننزهَها عن الروائح الكريهة والأقوالِ السيِّئة وكلِّ ما يُؤْذى المصلِّين .

وقد جاءَ فى حديث رواه جابرُ بن عبد الله رضى الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال : « مَنْ أَكَلَ ثومًا أو بصلًا فليعتزلْنا أو فليعتزلْ مساجدَنا ، وليقعدْ فى بيتهِ » . وفى لفظ آخر : « من أكلَ الثوم والبصلَ والكراثَ فلا يقربَنَّ مسجدَنا فإن المَلائكةَ تتأذى ممَّا يتأذى منه بنو آدمَ » .

وجاءَ فى خطبة لعمر بن الخطاب رضى الله عنه : لقد رأيتُ رسولَ الله ﷺ إذا وجَد ريحَهما من رجلٍ فى المسجد أمر به فأُخرج إلى البَقيع ، فمَن أكلهما فلْيُمِتْهُما طبخًا . والمراد ألا تكونَ لهما رائحةٌ فى الفم . فعلينا معاشرَ المؤمنين أن نراعِىَ آدابَ المسجد ، ونحن فى زيارة المولى عز وجل والملائكةُ تحفُّ بالجالسين والمصلين .

قال أهل العلم : وإذا كانت العلةُ فى إخراجه من المسجدِ أنه يُتَأَذَّى به

(١) النــور : ٣٦ — ٣٨ .

- أى بسبب رائحة البصل والثوم - فى القياس أن كلَّ من تأذّى به جيرانُه فى المسجد بأنْ يكونَ ذَرِبَ اللسانِ سَفيها عليهم ، أو كانَ ذا رائحة قبيحة لا تفارقُه لسوءِ صناعته ، أو كان ذا عاهة مؤذية كالجُذام وشبْهِه وكلّ ما يَتأذى به الناسُ ، فإنه ينبغى له أن يعتزلَ المسجدَ ما دامت العلةُ موجودةً فيه حتى تزول ، ومثلها المجالس العامة كمجالس العلم والولائم ونحوهما .

ومما ينبغى الاحتراز منه فى المساجد : البيعُ والشراءُ فيها ونشْدان الضالة ، وقد قال النبىُّ ﷺ لرجل طلب ضالته فى المسجد : « لا وجدتَ إنما بُنيتِ المساجدُ لما بُنِيت له » أى أن المساجد تُعمر للعبادة والذكر وقراءة القرآن لا للاشتغال بأعمال الدنيا . وفى حديث : « إنما هى لذكر الله والصلاةِ وقراءةِ القرآن » . وسمعَ عمر رجلًا يرفعُ صوتَه فى المسجد فأنكر عليه ذلك وقال له : « ما هذا الصوتُ ؟ أتدرى أين أنت ؟ » أى إنه فى بيتِ اللهِ وينبغى له أن يلازمَ الوقارَ اللازم للمسجد .

وعن واثلةَ بنِ الأسقع أن النبىَّ ﷺ قال : « جَنِّبُوا مَسَاجِدَكُمْ صِبْيَانكُم ومَجَانِينَكُمْ وشِرَاءَكم وبَيْعَكم وخُصوماتِكم ورفْعَ أَصواتِكم وإقامَةَ حُدُودِكم وسَلَّ سُيوفِكم واتَّخِذُوا على أبوابِها المَطَاهِرَ وجَمِّرُوها فِى الجُمَع » .

فطوبى لزوارِ المساجدِ المتعلقةِ قلوبُهم بها العاملين على عمارتها .

فاتقوا الله - عباد الله - وحافظوا على أداء الصلوات الخمس فى المساجد ، وتوبوا إلى الله ، وسلوه العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

❋ ❋ ❋

الخطبة الثانية :

ومن الآداب التى ينبغى أن تراعى : دخول المسجدِ بالرِّجل اليمنى والصَّلَاةُ على النبيِّ ﷺ وسؤال اللهِ الرحمة ، والخروج مبتدئًا بالرِّجلِ اليسرى وسؤال الله من فضله ، وممَّا أوصى به الرسول ﷺ أن يقولَ عند الدخول : بعد الصلاةِ والسلام على النبيِّ : « اللَّهُمَّ اغفرْ لى ذُنُوبِى وافْتَحْ لِى أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ » وعند الخُروجِ : « باسم الله والصَّلَاةُ والسلامُ على رسولِ اللهِ : اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِى ذُنُوبِى ، وافْتَحْ لى أَبوابَ رحمتِك وفضلِك » .

ومن السُّنَّةِ : أن يبدأَ المسلمُ بصلاةِ ركعتينِ تحيةً للمسجد فعن قتادةَ أنَّ النبيَّ ﷺ قال : « إذا دخلَ أَحدُكُم المسجدَ فلْيَرْكع ركعتَينِ قبلَ أن يجلسَ » وهذه مزيةٌ للمسجد يتميَّزُ بها عن سائر البيوتِ ، ولداخِلِ المسجد أَلَّا يتخطى رقابَ الناسِ ، ولا يُنازعَ أحداً فى المكان ، وأَلَّا يُضَيِّقَ على أَحدٍ فى الصف ، وأَن يتحاشى المرورَ بينَ يَدَى المصلى ، وينهى الجالسون فى المسجدِ عن البُصاق والتنخُّم وفرقعةِ الأَصابعِ ، وعن كل ما لا يتفقُ مع وقار المسجد وحُرمتِه ، إن المساجدَ بيوتُ المتَّقين وإن الحرصَ على زيارتها ومراعاةَ آداب الجلوسِ فيها يَرفعُ الدرجاتِ ، ويكونُ سببًا فى عظيمِ الثواب . وقد جاءَ فى الحديث : « إن المساجدَ بيوتُ المتَّقِين وَمَن كانت المساجدُ بيته ضمِنَ اللهُ تعالى له الرَّوْحَ والرَّاحةَ والجوازَ على الصراط » . وقال ﷺ : « بَشِّر المشَّائين فى الظُّلَمِ إلى المساجدِ بالنُّور التامِّ يومَ القيامةِ » . وقال علىٌّ رضىَ الله عنه : « إذا مات العبدُ يبكى عليه مُصلَّاه من الأَرضِ ومَصْعَدُ عملِه من السماءِ » ثمّ قرأَ

﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ﴾ (١). وقال ﷺ : « مَنْ تطهَّرَ فى بيتِهِ ثمَّ مَشَى إلى بيتٍ من بيوتِ اللهِ ليقضِيَ فريضةً من فرائضِ اللهِ كانت خطوتاه إحداهُما تحُطُّ خطيئةً والأُخرى ترفَعُ درجة ».
ودعا النبيُّ ﷺ لتميم الداريِّ حينَ علِمَ أنه جَلَبَ زيتًا واستخدمه فى إضاءةِ المسجد فقال : « نَوَّرْتَ الإِسْلَامَ نَوَّرَ اللهُ عليكَ فِى الدُّنيا والآخرةِ أَمَا لَوْ كانت لى ابنةٌ لزوَّجْتُكها » .

وقال ﷺ : « مَنْ أَسْرَجَ فِى مَسْجِدٍ سِرَاجًا لم تَزَلِ المَلَائِكَةُ وَحَمَلَةُ العَرْشِ يُصَلُّونَ عليهِ ويستغفرونَ له ما دام ذلك الضوءُ فيه ، وإن كَنَس غُبارَ المسجِدِ نُقِدِ الحورَ العِينَ » .

* * *

(١) الدخان : ٢٩ .

صيام التطوع

الحمدُ لله نحمدُه ، ونستعينُه ، ونستغفرُه ، ونعوذُ بالله من شرور أنفسِنا ، ومن سَيِّئَات أعمالِنا ، من يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ له ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هادِيَ له . وَنَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وحدهُ لا شَرِيكَ له ، ونشهدُ أَنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه .

نحمد الله الذى شرع لنا من العباداتِ ما يطهر النفوسَ ويزكِّيها ويرفعها بالخيرات والبركات لتكونَ أهلًا للسعادة الأُخروية ، وأجزلَ الثوابَ لمَن يصوم طاعةً لله وطلبًا لمرضاته ، ورغبة فيما عنده .

ونُصلى ونُسلم على الحبيب الهادى ، رسولِ ربِّ العالمين ، وقائدِ الغُرِّ المحَجَّلين يومَ الدين ، وعلى آله وأصحابه وَمَنِ اقْتدىٰ به إلى يوم الدين :

أمـا بعـد : فياعبـاد الله :

عن أَبى أُمامةَ رَضِيَ اللهُ عنه قال : قلتُ : يا رسولَ اللهِ ، مُرْنى بأَمرٍ ينفعُنى اللهُ تعالى به ، فقال : « عليك بالصومِ فإنه لا عِدْلَ له » .

أيهـا المؤمنون :

الصومُ مفهومهُ الشرعىُّ الإمساكُ عن المفطِّرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس مع النيّة . والصوم عبادةٌ يتقرّبُ بها العبدُ المؤمنُ إلى خالقه ، يرجو رحمته ، ويطلب ثوابه ، ويشكر له نعمتَه ، مبتغيا تكفيرَ السَّيِّئاتِ ، والرِّىَّ يوم يظمأُ الغافلون ، والقربَ من الرضوان يوم يُبْعَدُ المعاندون .

والنبىُّ ﷺ وهو أعلى الناس منزلةً عند ربه كان قلبُه معلَّقًا بالعبادات ، مداوماً على الطاعات ، مُكثراً من القُربات ، وكان هواه

فيما يُرضى ربَّه ، ومن ذلك حرصُه على الصوم ، فكانَ ﷺ لا يمرُّ عليه شهرٌ دون صيام تقربًا إلى الله ، ورغبة فى رفيع الدرجات ، وعلوِّ المنزلة .

تقول السيدة عائشة رضى الله عنها :«كانَ رسولُ الله ﷺ يصوم حتى نقولَ لا يُفطر ، ويُفطر حتى نقولَ لا يصومُ ، وما رأيتُ رسولَ الله ﷺ استكمل صيامَ شهرٍ قط إلَّا رمضانَ ، وما رأيتُه فى شهرٍ أكثرَ منه صيامًا فى شعبان » .

أى أن من هَدْيِهِ ﷺ الإكثارَ من الصيام فى شهر شعبان مع المداومة على الصيام فى كلّ شهرٍ من شهور العام ولكنه لم يكن يُتِمُّ صيام شهر سوى شهر الفريضة وهو رمضانُ .

وفى الحديث الذى رواه أنس رضى الله عنه قال : سُئِلَ رسولُ اللهِ ﷺ : أىُّ الصومِ أفضلُ بعدَ رمضان ؟ قال : « شعبان لتعظيمِ رمضانَ » وأىُّ الصدقةِ أفضلُ ؟ قال : « فى رمضان » .

وكان الصحابة رضوانُ الله عليهم يجتهدون فى الاقتداءِ بالنبيّ ﷺ وتتبعِ أحواله فى عباداته لحرصهم على الخير ، ولما رأَوا أنه ﷺ يُكثر من الصيام فى شعبانَ . سأله أُسامةُ رضى الله عنه : يا رسولَ الله ، لم أَرَكَ تصومُ فى شهرٍ من الشهور ما تصومُ من شعبان ؟ فقال : « ذلك شهرٌ يَغْفُلُ عنه الناسُ بين رجَب ورمضانَ ، وهوَ شهرٌ تُرْفَعُ فيهِ الأَعمالُ إلى رَبِّ العالمين ، وأُحِبُّ أن يُرْفَع عملى وأنا صائم » .

أيهـا المؤمنون :

طُوبى لمن يَقتدى بالنبيّ ﷺ ، ويسعى لتكميل نفسه بطاعة ربه ، ويحرص على الاستزادة من الخير ، والصومُ بابٌ من أبواب الخير عظيمٌ ، وعبادةٌ يُجْزَلُ لصاحبِها الثوابُ ، وتكونُ له وقايةً من عذاب النار .

وفى الحديث الذى يرويه أبو هريرة رضى الله عنه ، يقول النبيّ

ﷺ : « مَنْ صَامَ يومًا فى سبيلِ اللهِ تعالى جعلَ اللهُ بينه وبينَ النارِ خندقًا كما بين السماءِ والأَرضِ » .

وفى رواية أَبى سعيد الخدرى رضى الله عنه : « ما من عبدٍ يصومُ يوما فى سبيلِ اللهِ إلَا باعدالله بذلك اليوم عن وجهِه النارَ سبعينَ خريفاً »

والصوم وسيلةٌ فعَّالةٌ لتربية النفسِ على الكمالاتِ وصيانتِها من الرذائل والآفات ، لذا أَوصى الحبيب المصطفى ﷺ به الشبابَ غيرَ القادر على نفقاتِ الزواج ، ليكونَ الصوم للشابِّ — وهو فى قوته ونشاطه — وِجَاءً ، أَى حاميا من مزالقِ الشهوات ، ومعينًا على توقِّى الرَّذائل ، ذلك أَن الصومَ يقوى الإرادة ، وَيَنَمِّى فى النفس الوازعَ عن الشرِّ ، والرغبةَ فى الخير ، ويجعل المؤمن أَكثرَ قدرةً على ضبط نفسِه عن شهواتها ورغباتها .

أيها المؤمنون :

خير العمل ما كان عن إخلاص لله عز وجل ، وفيه اتِّبَاعٌ للنبىِّ ﷺ ، وقد نهى النبىُّ ﷺ عن صوم الأَيام كلِّها ، فقال ﷺ فى الحديث الذى رواه ابن عمر : « مَنْ صَامَ الأَبدَ فَلَا صَامَ ولا أَفْطَرَ » .

ومن وصايا الرسول ﷺ للمستزيدين من الخير ، الراغبين فى صيام الدهرِ كلِّه قولُه : « أَحَبُّ الصيامِ إلى اللهِ صيام داودَ ، وأَحَبُّ الصلاةِ إلى اللهِ صلاةُ داودَ ، كانَ ينام نصفَ الليلِ ، ويقوم ثلثَه ، وينام سدسَه ، وكان يفطِر يومًا ويصوم يوما » إذ إنَّ الإفراطَ يضْعف البدنَ ، ويدعو إلى السآمةِ والمللِ ، ويعيق عن السعى والكسبِ ، وخير الأُمور أَوساطُها ، وأَحَبُّ الأَعمالِ إلى اللهِ ما داومَ عليه صاحبهُ ، وكان ﷺ عملُه دِيمةً .

ومن هَدْيه ﷺ فى صيام التطوُّع صيامُ يوم الاثنين والخميس من كلِّ أُسبوع ، وقد سُئِل عن ذلك فقال : « إن يومَ الاثنين والخميسِ

يغفرُ اللهُ فيهما لكلِّ مسلمٍ إلا مهْتَجِرَيْنِ : يقول : دَعْهما حتى يَصْطَلِحَا » . وكان ﷺ يقول : « إن هَذين اليومَيْن تُعْرَضُ فيهما الأعمالُ » .

وكان ﷺ يُرَغِّبُ فى صيامِ الأيامِ البيضِ ، فعن عبد الله بن قتادةَ ابنِ ملحان عن أبيه رضى الله عنه قال : كان رسولُ اللهِ ﷺ يأمرنا أن نصومَ أيامَ البيض ثلاثَ عشرةَ وأربعَ عشرةَ وخمسَ عشرةَ ، وقال : « هُنَّ كَهَيْئَةِ الدَّهر » .

وكان ﷺ يُوصى بصيام ثلاثةِ أيامٍ من كلِّ شهرٍ لأنَّها تَعْدِلُ صيامَ الشهرِ كلِّه إذ الحسنةُ بعشرِ أمثالها ، وفى حديث أبى ذرٍّ رضى الله عنه أنَّ الرَّسولَ ﷺ قال : « مَنْ صامَ من كلِّ شهرٍ ثلاثةَ أيامٍ فذلك صيامُ الدهرِ ، فأنزلَ اللهُ تصديقَ ذلك فى كتابهِ : ﴿مَنْ جَاءَ بِالحَسَنَةِ فلهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ » .

ومن هَدْيهِ ﷺ فى صومِ التطوعِ صيامُ يومِ عاشوراءَ ، وهوَ العاشِرُ من المحرَّم ، وفيه يقولُ ﷺ : « صيامُ يومِ عاشوراءَ إنى أَحْتَسِبُ على الله أن يُكَفِّرَ السنةَ التى قبلَه » . وقَدْ صَامه ﷺ وأمرَ بصيامِهِ قبلَ فرْضِ صيامِ رمضانَ ، فلمَّا افتُرِضَ رمضانُ قال : « إن عاشوراءَ يومٌ من أيامِ اللهِ ، فَمَن شاءَ صامَه » . وحين صامه ﷺ فى المدينة قال : « فإذا كانَ العامُ القابلُ إن شاءَ اللهُ ، صمتُ التاسعَ » فلم يَأْتِ العامُ المقبلُ حتى تُوفى رسولُ الله ﷺ وكان ابنُ عباس يقول : « صوموا التاسعَ والعاشرَ ، وخالفوا اليهود » .

وورد عنه ﷺ الترغيبُ فى صيام ستةِ أيامٍ من شوال ، فعن أبى أيوبٍ الأنصاريِّ رضى الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « مَنْ صَامَ رمضانَ ثمَّ أتبعه ستًّا من شوال كان كصيامِ الدَّهر » . وهذه الأيامُ الستةُ

تُصام متفرقةً أو متتابعةً وفى أى وقتٍ من الشهر ، وكره مالكٌ رضى الله عنه وَصْلَها بيومِ الفطر ، وحذَّر من الظنِّ بوجوبِها ، وذلك من حرصهم على أن تظلَّ الفرائضُ واضحةً فى أذهانِ الناسِ لا يُضافُ عليها مِنْ وَهْمِ الناسِ ما ليس منها .

وَنُدِبَ لنا أن يصومَ المؤمن يومَ عرفةَ وهوَ التاسع من ذى الحجةِ وذلك لغيرِ الحاجِّ ، وفيهِ يقولُ الرسولُ ﷺ : « صيامُ يومِ عرفةَ إنى احتسِبُ على اللهِ تعالى أن يُكفِّرَ السنةَ التى قبلَهُ والسنةَ التى بَعْدَهُ » .

وكان ﷺ يصومُ تسعةَ الأيامِ الأُوَل من ذى الحِجَّةِ كما روت أزواجه رضى الله عنهنَّ .

عبــاد الله :

هـذا بعضُ هَدْيه ﷺ فى صيامِ التطوعِ ، وفى ذلك فَلْيَتَنَافَسِ المُتنافِسون . وقد سُئلت السيدةُ عائشةُ رضى الله عنها : « هل كان رسول الله ﷺ يختصُّ من الأيام شيئًا ؟ قالت : « لا ، كانَ عملُه ديمـةً ، وأيُّكُمْ يُطِيقُ ما كانَ رسولُ اللهِ ﷺ يُطيق » .

أى أنه كان ﷺ يُداوم على العمل الصالح مع الرفق والتوسط .

روى أبو هريرةَ رضى الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « شهرُ الصبرِ وثلاثةُ أيامٍ من كلِّ شهرٍ صومُ الدهرِ » .

فاتَّقوا اللهَ عبادَ اللهِ وأَطِيعُوه ، واطْلُبُوا مغفرتَه ورضوانَه ، واقتدوا بنبيِّه الأَمين ، وأحيوا سنَّته فاللهُ يقول : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا ﴾(١) .

---

(١) الأحــزاب : ٢١ .

الخطبة الثانية :

الحمد لله رب العالمين ، هو الواحد الأَحدُ الفردُ الصمدُ ، والصلاةُ والسلامُ على نبيِّ الهُدى والرحمةِ وعلى آله وأَصحابهِ ومن تَبِعَهم بإِحسان إلى يوم الدِّين .

أمـا بعـد :

فقد قالت عائشةُ رضى الله عنها : لم يكن النبيُّ ﷺ يصومُ شهراً أكثرَ من شعبان . ثم قالت وكان يقول : « خذوا من العملِ ما تُطِيقون ، فإن اللهَ لا يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا » . وكان أَحَبُّ الصلاةِ إلى النبيِّ ﷺ ما دُووِم عليهِ وإن قَلَّتْ ، وكان إذا صلَّى صلاةً داوم عليها . وفى الحديث : « وإنَّ ريحَ الصائمِ أطيبُ عند اللهِ من ريحِ المِسْكِ » .

عبـاد الله :

إن العباداتِ تطهِّر النفوسَ ، وتُنير البصائرَ ، وتقرِّبُ من الله عز وجل ، وأَفضلُ الأَعمالِ وأَحبُّها إلى الله فرائضُه التى فرضها اللهُ على عبادِه ، والتطوعُ مجالُ التنافسِ فى الخيراتِ ، والصعودِ فى مدارجِ الوَلاية لله ، والقربِ منه سبحانه وتعالى .

والصوم من أعظم القربات ، حرص عليه الصالحون ، ولم يتهاون بشأْنه أَهل الخير ، وطلابُ الرضوان ، فطوبى لمن اقتدى بالحبيب المصْطفى ﷺ ، وحرص على الاستزادة من الصالحات ، وداوم على طاعة الله بالصلاة والصيام وسائر القربات .

ولقد كان النبيّ ﷺ يُكثر من الصيام فى شهر شعبان ، ولم يتم صيام شهر سوى رمضان ، وهو المعلم والهادى ﷺ .

إن أَهل الصوم فى الدنيا هم أَهل الريّ يوم يظمأُ الناس فطوبى لهم وحسنُ مآب .

قال ﷺ : « إن فى الجنة بابًا يقالُ له الرَّيان يدخل منه الصائمون يومَ القيامةِ لا يدخلُ منه أحدٌ غيرهم فإذا دخلوا أُغْلِقَ فَلَمْ يدخُلْ منه أَحَدٌ»

اللهمّ أعِنَّا على ذِكْرِك وشُكرك وحسنِ عِبادتِك ، واجعلْنا ممَّنْ يستمعون القولَ فيتبعون أَحسنَه ، واغفِرْ لنا ، وارحَمْنا ، وعافِنا واعفُ عنَّا ، وبارِكْ لنا فيما أَعطيتنا يا أَرحمَ الراحمين .

اللهم اجعلنا من التوَّابين : واقْسِم لنا من حشيتك ما تحولُ به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تُبَلِّغنَا به جنَّتَك ، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائِبَ الدُّنيا .

اللهمّ اجعل ثأْرنا على من ظلمنا ، وانصُرْنا على من عادانا ، ولاتجعَلْ مصيبتَنا فى ديننا ، ولا تجعلْ الدنيا أَكبرَ هَمِّنا ، ولا مبلغَ عِلْمِنا ، ولا تُسَلِّطْ علينا مَنْ لا يرحَمُنا .

اللهم لا تدع لهذا الجمع فى هذا اليوم ذنبًا إلَّا غفرتَه ، ولاهَمًّا إلَّا فرَّجْتَه ، ولا دينا إلَّا يسَّرت قضاءه ، ولا مرضا ولا مريضا إلا شفيته برحمتك وعفوك يا ذا الجلال والإكرام .

اللهمّ انصر الإسلام وأَهله ، واخذل الباطلَ وأَهلَه ، وارضَ اللهم عن أَصحاب رسول الله ﷺ ، وصلّ اللهمّ على الحبيب المصطفى ، وأَكثروا من الصلاة عليه فقد قال عزوجل: ﴿ إن الله وملائكته يصلُّون على النبيِّ يأَيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما ﴾ .

عيد الفطر

الحمدُ لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ـ اللهُ اكبر تسعا ـ اللهُ أكبر وهو الكبيرُ الذى عنت الوجوهُ لكبريائه وعظمته ، اللهُ أكبر وهو الحيُّ القيومُ الذى دبر الكائنات بحكمته ، اللهُ أكبر وهو القادرُ الذى أبدع الموجوداتِ وعممها بإحسانه ، ورحمتهِ ، اللهُ أكبر والحمد لله كثيرا وسبحان اللهِ على الدوام .

وأشهدُ أن لا إله إلا الله جعل فى تعاقبِ الأعيادِ عبرةً لأُولى الألباب. وأشهدُ أن سيدنَا محمدًا رسولُ اللهِ الداعى إلى الهُدى والصوابِ . اللهم صلِّ وسلم على نبيِّنا محمدٍ خاتمِ النبيين وعلى آله وصحبه الحافظين لحدودِ الله ، العاملين بأحكام الدين ومن تَبِعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعـد : فيا أيها المؤمنون :

عن سعد بنِ أوس الأنصاريِّ عن أبيه رضى الله عنه ، قال : قال رسولُ الله ﷺ : إذا كان يومُ عيدِ الفطرِ وقفت الملائكةُ على أبوابِ الطرقِ فنَادَوْا : اغْدُوا يا معشرَ المسلمين إلى ربٍّ كريم يَمُنُّ بالخيرِ ثم يُثِيبُ عليه الجزيلَ لقد أُمِرْتُمْ بِقيامِ الليلِ فَقُمْتُمْ ، وأُمِرْتُم بصيامِ النَّهَارِ فَصُمْتُم وأَطَعْتُم ربَّكم فاقبضُوا جَوَائِزَكُم » فإذا صلوا نادى مناد ألا إن رَبَّكم قَد غفر لكُم فارجِعُوا راشِدِين إلى رِحالكم ، فهوُ يَوْمُ الجائزةِ ويُسَمَّى ذلك اليومُ فى السماء يومَ الجائزة .

هذه بشرى أيها المؤمنون ـ ساقها الحبيبُ المصطفى ﷺ للموحدين ، فالملائكة تقف لهم على أبوابِ الطرق فى يوم عيدِ الفطرِ تدعوهم للإقبال على صلاة العِيد ، والتوجُّه إلى ربٍّ كريمٍ لا يُخَيِّبُ مَنْ قَصده ، وَيُوفِّقُ

إلى الخيرِ ، ثُمَّ يُثيبُ عليه أجزلَ الثوابِ تفضلًا منه سبحانه وتعالى وإحسانا .

ثم إن الملائكةَ تبشّر منْ صَام رَمَضَان وقام لياليَهُ بالبشريات الطَّيبات ، فطوبى لِمَنْ قَام لياليَ رمضانَ إيمانًا واحتسابًا ،وصام نهاره مخلصًا لله وحدَه ، وإذعانًا لأمره فالملائكةُ تناديه اليومَ هلُمّ إلى جائزتِك ومكافأتِك ، وإذا صلَّى الموحدُ العيد ناداه المنادى : ألا إن اللهَ قد غفر لك ، فارْجعْ إلى بيتك رَاشِدًا مُوفَّقًا ، فاليومَ يومُ الجائزة ، وهذا هو اسمُه فى السماء أى يومَ البراءَةِ من الذنوب ، والطهارة من العيوبِ ، والنقاءِ من الأدناسِ والكروبِ .

فطوبى لمن أحيا ليلة العيد ، ووطَّد العَزْم على تَوبةِ نصوحٍ وعلى المداومةِ على طاعةِ علام الغيوب . . . طوبى له وحسنُ مآب .

أيها المؤمنون :

إن يومَكم هذا يومُ سُرور لمنْ صَدَقَ يَقِينُه ، وَصَحَّتْ نيتُه وقُبِلَ صيامُه وقيامُه ، يومُ فَرح وسرور ، لمن طابت سريرتُه ، وحَسُن فى رمضان عملُه ومسلكُه وكلامُه ، إننا فى يوم مباركٍ إنه يومُ عَفْوٍ وإحسانٍ لمن عفا عمَّن ظلمه ، وأَحْسَنَ إلى مَنْ أساءَ إليه ، وَسَعَى بالصُّلح بين الأنام ، ووصل رَحِمه وأكرم جارَه ، وطهَّر قلبَه من الغشِّ والغِلِّ والبغضاءِ للمسلمين .

هذا يومُ عيدٍ ولكنَّ العيدَ فى الحقيقةِ لمنْ تَمسَّكَ بالدِين هذا يومُ الفلاح والنَّجَاحِ لو كان المسلمون فيه متَّحِدين مؤتلفين ، قلوبُهم على قلبِ رجلٍ واحد ، ودستورُهم كتابُ اللهِ .

هذا يومٌ مباركٌ سعيدٌ لو كنَّا بدينِنا متمسِّكين ، وبنبيِّنا محمد

ﷺ مقتدين ، ولمستقبل أمة الإسلام عاملين ، ولأرض الإسلام مطهِّرين من الإلحاد ، والزندقة وكلِّ مظاهرِ المروقِ عن الدين ، فلا تعلو فى أى بقعة من بقاعِ المسلمين كلمةٌ فوقَ كلمةِ التوحيدِ ، ولا يكون للإلحادِ أىٌّ صوتٍ فى بلادِ التوحيدِ ، ولنتدبر قول الحقِّ تبارك وتعالى :

﴿هُوَ الذِى أَرْسَلَ رَسُولَه بالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ولَوْ كَرِهَ المشركُون﴾ (١) .

فى هذا اليوم المباركِ يتجلَّى الله على المخلصين بمزيدٍ من الإنعام ينظرُ فيه سبحانه إلى أهلِ الصدقةِ والإخلاص والوفاءِ والمودَّةِ والمحبةِ ، ينظر فيه إلى التائبين توبةً نصوحًا المراقبين فى السرِّ والعلانية ربَّهم ، الراجين رحمته ، الخائفين من عقوبته .

أما الذى يهنأ بالعيد فهو ذالك الذى استقام فى رمضان وبعد رمضان ، ولم يعدل عن الطريقِ الأقوم والصراطِ الأعدلِ ، ولم يلعب به الشيطان ، فيصرفُه إلى اللهو والعبث ، ونسيان حقوقِ الرحمن .

إن الذى يفرح بالعيد هو ذاك الذى يَخْفِضُ جناحيه ذلاً ورحمةً ورقةً ولينًا لِوالديه ، يَقْبَلُ نُصْحَهما ويُصغِى إلى كلامِهما ، ويرجو رضاهما بعد رجاءِ رِضَا ربِّهِ ، أما المطرود من قلبِ الوالدين فهو مطرودٌ من رحمةِ اللهِ مغضوبٌ عليه ، حياته شقاءٌ وتعاسَةٌ ومصيره عذابُ جهنَّمَ وبئس المصيرُ إنْ لم يرحَمْه الله بتوبة وأَوبةٍ إلى الحقِّ .

إن الذى يفرح بالعيد هو ذالك الذى يُسْعِدُ قلوبَ اليتامى ويساعد

---

(١) الصف : ٩ .

الأَرامِلَ والمساكينَ وأَبناءَ السبيلِ بالصدقةِ والإِحسانِ ، أُولئك هم أَهلُ الصدقِ إن أَرادوا وَجْهَ اللهِ ، قلوبُهم مملوءةٌ بالتقوى عامرةٌ بالإِيمان والهدى.

فاتَّقُوا اللهَ عبادَ اللهِ وتباعدوا عن كلٍّ ما يُغْضِب الرحمنَ وطهِّروا القلوبَ من الحَسَدِ والحقدِ والبغضاءِ والخُصوماتِ ، وكونوا عبادَ الله إخوانا فى صفاء، وأَطعموا الطعامَ وصِلُوا الأَرْحَامَ واعفُوا عن البائسِ والفقير تنالوا غاية القبولِ والإِكرام .

جاءَ فى صحيح مسلم عن أَبى هريرةَ رضى اللهُ عنه قال :

قالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم :

« إنَّ الله لا ينظرُ إلى أَجسامِكُم وَلا صُوَرِكم ولكنْ يَنْظُرُ إلى قُلوبِكم ».

أَخبر الحبيب الهادى ﷺ ، بأَنه إذا كان آخرُ ليلةٍ من رمضانَ غفر الله لعباده الصائمين الموحِّدين . . . فقال رجلٌ لرسول الله ﷺ : أَهِيَ ليلةُ القدرِ يا رسولَ اللهِ ، فقال لا ، أَلم تَر إلى العمال يعملون فإذا فرغوا من أَعمالِهم وُفُّوا أُجُورَهم .

نسأَل اللهَ عز وجل أَن يتقبل صِيامَنا وقِيامَنا وأَن يَجْعَلَنا مِمَّنْ شمِلَهم بِعَفْوِه ورِضْوَانِه ورحمته وجودِه وبرِّه وكرمه فى هذا اليوم المبارك وأَن يجمع قلوبَ المسلمين على المحبة والوفاء .

أَقول قولى هذا وأَستغفر اللهَ لى وَلكم ولسائِر المسلمين من كلِّ ذنب وتوبوا إلى اللهِ توبةً نصوحًا ، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له .

التطهر والنظافة فى حياة المسلمين

أمـا بعـد :

فقد قال اللهُ تعالى :﴿...إنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوابِينَ وَيُحِبُّ المُتَطهِّرين﴾(١).

أيها المؤمنون :

هذه مِنَّةٌ إلهيَّةٌ عُظمى ، ونعمةٌ كبرى على عبادِه الذين يَرجعون إليه نادِمين على ما كان منهم من شرك ، أو ذنب طالبين عفوه ومغفرته ، عازمين على توبة نصوح ، وكذلك هى منةٌ ونعمة على عباده الذين طهَّروا قلوبَهم من الشرك والشك والنفاق وكلِّ الآفات التى تفسد على المرء حياتَه ، كما طهَّروا ظواهَرهم بالماء من الجنابةِ ومن الأحداثِ ، ذلك أن الإسلامَ كما عُنِى بالطهارةِ المعنويةِ ، عُنى أيضًا بالطهارة الحسيِّةِ ، وجعلها جزءًا من حياة المسلمِ وطابَعًا لا غِنَى له عنه فى يومه وليلتِه ، وفى الحديث : « الطُّهُورُ شَطْرُ الإيمان » .

ومما يؤكد عنايةَ الإسلام بالتطهير والتطهُّر أن الله عز وجل مدح أصحابَ رسولِ الله ﷺ بالمحافظة على تطهيرِ ثيابهم وجسومِهم ، وبالعناية بالنقاءِ من البولِ والغائطِ ، والغُسلِ من الجنابة يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيه ، فِيهِ رجالٌ يُحِبُّونَ أن يَتَطَهَّرُوا واللهُ يُحِبُّ المطَّهِّرين﴾ (٢) » .

قال ابنُ عباس رضى الله عنهما : لما نزلت هذه الاية﴿ فيه رجالٌ يُحِبُّونَ أن يتطهَّروا ﴾ بعث رسولُ الله ﷺ إلى عُويم بن ساعدة

---

(١) البقرة : ٢٢٢ .   (٢) التـوبة : ١٠٨ .

الأنصارى فقال : « ما هذا الطهورُ الذى أَثْنَى اللهُ - به - عليكم ؟ » فقال : يا رسولَ الله ، ما خَرج مِنَّا رجُلٌ ولا امرأةٌ من الغائطِ إلا غسَل مَقْعَدتَهُ ، فقال النبيُّ ﷺ « هو هذا » .

والطهارةُ فى ديننا الحنيفِ تشملُ تَطْهيرَ الباطنِ وتطهيرَ الظاهر ، قال اللهُ تعالى لنبيِّه ﷺ : ﴿ وَثِيابَكَ فَطَهِّرْ ﴾(١) أى طهر ثيابَك بالماءِ من النجاسات ، فإن التطهيرَ واجبٌ للصلوات ، محبوبٌ فى غيرها ، كما ينبغى أن يتحرزَ المؤمنُ من النجاسات بتقصير الثيابِ مخافةَ جرِّ الذيولِ فيها ، وتشملُ الآيةُ أيضا الأَمرَ بتطهيرِ القلبِ من كل ما يُغْضِبُ الربَّ ، وبتطهير النفسِ من الأَخلاقِ الذميمةِ ، ومما لا يَليقُ ، ومن ذلك الطهارةُ من الشركِ والنفاقِ والغِلِّ والحسدِ والحقدِ وغير ذلك .

ومن عناية الإسلام بالطهارة أنه جعلَها شرطًا لصحةِ الصلاة ، ومقدمةً لها ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « مِفْتاحُ الصلاةِ الطُّهُور » وهى الطهارةُ من الحَدَث والخَبَثِ وكلٌّ ما ينجِّسُ الثوبَ أو البدنَ ، وشدَّد رسولُ الله ﷺ فى الاستنجاء والتنزُّهِ من بقايا البول وإزالةِ أثرِه يقول الحبيب المصطفى ﷺ « تَنَزَّهُوا من البَوْلِ فإنَّ عامَّةَ عذابِ القبرِ مِنْه » وحكمةُ الإسلام فى ذلك واضحة ، وأثبتها الطبُّ الحديث ، ذلك أن الفضلات التى يُفرزها الجسم كالبول والغائط تَحوى كثيرًا من جراثيم الأَمراض ، وكما تتمّ طهارة الجسم والثوبِ من الأَخباث بالغُسلِ بالماء ، فإن الطهارةَ من الحدَث تكون بالوضوء ، أو بالغُسْلِ ، وفى الوضوءِ تطهيرُ الفمِ ، وتنظيفُ الأَسنان التى هى مفتاحُ البطن ، والمعدةُ بيتُ الداء ، وهذا يبين لنا الحكمةَ فى الأَمر

---

(١) المدثر : ٤ .

بالسواك ، كقوله صلى الله عليه وسلم : « لولا أن أَشُقَّ على أُمَّتى لأَمرتُهم بالسِّواك عند كلِّ صلاةٍ » وقوله : « عليكُمْ بالسِّواك فإنَّه مَطْهَرةٌ لِلْفمِ ، ومرضاةٌ للربِّ » وربط الإسلامُ الوضوءَ بأَسبابٍ تتكررُ وتتجدَّدُ كالبول وغيرِه من نواقض الوضوء ، ليتكررَ التطهيرُ ، وتُصبح النظافةُ طابعَ المؤمن ، وفى الحديث : « بنِى الإسلام على النَّظافةِ » .

وأوجبَ الإسلامُ الاغتسالَ فى حالاتٍ كالجنابة ، وطهارةِ المرأة من الحيض والنفاس ، وسَنَّهُ فى حالاتٍ كالأَعياد والجُمَعِ ولحضور كلِّ اجتماع عام ، وفى الغُسل تنظيفٌ للبدن بإزالةِ أوساخ الجلدِ وإفرازاته من العرق والوسخ .

وَحِرْصُ الإسلامِ على النظافةِ شاملٌ لكل ما يتصلُ بحياة الناس ولذا نهى عن التغَوُّط فى المياه الجاريةِ ، وفى المياه الراكدة ، وفى الطرق ، ومُستظلِّ الناس ، وتحت الأَشجارِ المُورقة وفى الحديث : « اتَّقُوا الملاعنَ الثلاثَ : البرازُ فى الموارد ، وقارعةِ الطريقِ والظلِّ » وقال ﷺ : « لا يبولَنَّ أَحدُكم فى الماءِ الدائم — أى الساكن — ثم يغتسلْ فيه » . ومعلومٌ أن البلهارسيا تنتقلُ عدواها إلى السليم إذا استَخْدمَ ماءً راكدًا بال فيه مريضٌ ، لنرى إلى أى مدى يَحرِص الإسلامُ على سلامة الأَذواقِ مِمَّا يؤذيها ، وعلى سلامة الصحة العامة من مسبِّبَات نقل العدوى.

ومن عناية الإسلام بالنظافةِ أَمْرُه بالاستحدادِ ، وبِختَانِ — الذكور — وبنتفِ الإبطِ ، وقصِّ الأَظفار ، وبتنظيفِ الأَناملِ ، يقول الرسول ﷺ « خمس من الفطرة : الاستحدادُ والختانُ وقصُّ الشاربِ ونتفُ الإبط وتقليمُ الأَظافر » وقد جاءَ التوجيه بتقليم الأَظافر والاستحداد ونتف الإبط وقص الشارب كلَّ أُسبوع وعلى ألا يتجاوز ذلك أربعين يومًا .

وأمر الإسلام بنظافة البيوت والطرقِ ، ونظافة الطعام والشرابِ ، وقد جعل من شُعَبِ الإيمان نظافةَ الطريق ، والرسولُ ﷺ يقول : « الإيمانُ بِضْعٌ وسبعون شُعبةً ، أفضلُها قولُ لا إله إلا اللهُ ، وأدناها إماطةُ الأَذَى عن الطريق » أى إزالة ما قد يكون فى الطريقِ من الشوك أو الحجَرِ أو القمامة ونحو ذلك .

أيها المؤمنون :

إن دينًا تلك تعاليمُه ينبغى لأَتْباعِه أن يكونوا أصح الأُمَم أجسامًا، وأكثرَهم عنايةً بالنظافةِ نظافةِ الجسم والثوبِ والبيتِ والطريقِ،ونظافة المآكلِ والمشاربِ إلى جانب نظافة القلب ، وطهارةِ النفس وفى الحديث :

« عُرِضتْ علىَّ أعمالُ أُمتى حسنُها وقبيحُها فوجدتُ فى محاسن أَعمالِها : الأَذى يُمَاطُ عن الطريق ، ووجدتُ فى مساوىءِ أعمالها : النُّخامةَ تكون فى المسجدِ لا تُدْفَن » وقال ﷺ : « مرَّ رجلٌ بِغُصنِ شجرةٍ على ظهْرِ الطريقِ فقال : واللهِ لأُنَحِّيَنَّ هذا عن المسلمين لا يُؤذِيهم فأُدخِلَ الجنةَ » .

فاتقوا الله ـ عباد الله ـ واطلبوا عفوه ومغفرته وسلوه أن يجعلنا من التوابين ومن المتطهرين .

الصبر والمصابرة والمرابطة والتضحية
دعائم أساسية لتحقيق النصر

قال الله تعالى :

﴿ يٰأيُّها الَّذِين آمنُوا اصبِروا وصَابِروا ورابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لعلَّكُمْ تُفْلحُون ﴾ (١) .

يا أهل الإسلام وأنصاره :

أمَرَ الله المؤمنين أن يصبروا على دينهم الذى ارتضاه لهم وهو الإسلام فلا يَدَعُوه لسراء ولا لضراء،ولالشدة ولالرخاء حتى يموتوا مسلمين مؤدِّين ما كُلِّفُوا به ، وكما أُمروا بالصبر على الدين وتكاليفه وبالثبات عليه والمداومة على الطاعة ، فإنهم أيضا مأمورون بالصبر فى البأساء والضراء وحين البأس ، فللجهاد مشقاته ، وللحرب أعباؤها ، والمؤمن مأمور بالصبر على شدائد الحرب ، ومشقات الجهاد ، ولهذا أمر الله عباده المؤمنين بالمصابرة ﴿ وَصَابِرُوا ﴾ أى صابروا أعداء الله فى الجهاد ، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد الحرب ، ولا تكونوا أقلَّ منهم صبرا وثباتًا ، وفى المصابرة مجاهدةٌ للنفس أيضًا وَمُغَالَبةٌ لأهوائِها وما يَعْتريها من جزع أو قلق لتستمرَّ صابرةً على ما يجب الصبر عليه ، فمِن أخص صفات المؤمنين أنهم لا ييأسون من رحمة الله ، ولا يعتريهم قنوط أو خَوَر إذا تأخر عليهم النصر لحكمة يريدها الله عز وجل . . بل من واجبهم أن يداوموا على إصلاح نفوسهم ، وأن يُحسنوا توكلَهم على ربهم ، ويزدادوا ثقة فى وعده بالنصر والتأييد لعباده المؤمنين

---

(١) آل عمران : ٢٠٠ .

الصالحين ، وهذا يدفعهم إلى المزيد من اتخاذ الأسباب الدينية والدنيوية ، وإلى الاعتصام بالصبر .

وأمر الله عباده بالمرابطة ﴿وَرَابِطوا﴾ أى وأقيموا فى الثُّغور بالعُدَّة الملائمة والعَتاد مترصِّدين مستعدِّين للغزو ، وأَصلُه من رباط الخيل فى الثغور لحفظها وصيانتها عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين ، والرباطُ كلمةٌ تتسع لكل ما عُرف ويُعرف أيضًا فى تحصين الثغور ، والمداخلِ التى يُحتمل أن تكون مداخل للعدو .

وقد رغَّب الله عباده المؤمنين المجاهدين فى كلا الأمرين : الصبرِ والرباطِ ، لأنهما سببان قويان لحفظ هيبة الأُمة فى صدور أعدائها ، ولاستجلاب النصر من عند الله عز وجل . . قال الله تعالى فيما يحكيه عن المجاهدين الذين تم لهم النصر والظفر فيما مضى لنتأسَّى بهم ، وننهج نهجهم : ﴿كَمْ مِن فِئَةٍ قَلِيلةٍ غَلَبَتْ فئةً كثيرةً بإِذْنِ اللهِ واللهُ معَ الصَّابِرِين * ولمَّا بَرَزُوا لجَالُوتَ وجنودِه قالُوا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صبْرًا وثَبِّتْ أَقْدامَنا وانْصُرْنا عَلَى القَوْم الكافِرِين * فَهَزَمُوهُم بإِذنِ اللهِ وَقَتَلَ داودُ جالُوتَ وآتاهُ اللهُ المُلْكَ والحكمةَ وَعَلَّمَه مِمَّا يَشَاءَ﴾ . (١) .

فالذين يظنُّون أنهم ملاقو الله يحسنون التوكل عليه ، ولا يصيب نفوسهم جزع لإيمانهم بأن النصر مع الصبر بإذن الله تعالى .

وقال الله عز وجل مخاطبًا نبيه فى معرض التذكير بموقفه يومَ بدر وهو يحثّ المجاهدين على الصبر والإقدام والثبات : ﴿إِذْ تقولُ للمؤمِنين أَلَنْ يَكْفِيَكُم أَن يُمدَّكُم ربُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ من المَلَائكة مُنْزَلِين * بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا ويأْتُوكُم مِن فَوْرِهِم هَذا يُمْدِدْكُم

---

(١) البقرة : ٢٤٩ — ٢٥١ .

ربُّكُم بِخمْسَةِ آلافٍ من المَلَائكة مُسَوِّمين * وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إلَّا بُشْرَى لكم ولِتَطْمَئِنَّ قُلوبُكم به ﴾ (١) .

وهوّن اللهُ على المؤمنين ما يُصيبهم فى سبيل الله ، ويُرشدهم إلى أن الإيمان يجعل من صاحبه قوة لا تلين ، وعزمةً لا تُفَلّ ، ويعلِّمهم أن سنة الله فى القتال أن يداول بين الفريقين ، وأن العاقبة للمتوكلين على الله الصابرين على القتال وشدائده وما يتطلبه من بذل النفس والمال وتضحيةٍ بالراحة ، ولنتدبر قوله تعالى يخاطب عباده المؤمنين يحثهم على الثبات فى الدفاع عن الحقوق وصيانة المعتقدات والذود عن المقدسات يقول :

﴿ وَلَا تَهِنُوا ولا تَحْزَنُوا وأنتم الأَعْلَوْنَ إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنين * إن يمْسَسْكُم قَرحٌ فقد مَسَّ القومَ قَرْحٌ مثلُه وَتِلْكَ الأَيامُ نُدَاوِلُها بينَ النَّاسِ وليَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمنُوا ويتَّخِذَ منكُم شُهَداءَ واللهُ لا يُحِبُّ الظالمين * ولِيُمحِّص اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا ويمْحَقَ الكافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُم أن تدخلوا الجنَّةَ ولَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُم ويَعْلم الصَّابِرِين ﴾ (٢) .

أيها المسلمون :

هذا قليل من كثير مما جاءَ فى توجيه الأُمةِ إلى الاعتصام بحبل ربِّها ، وحسنِ التوكل عليه ، ولزومِ الصبر عند الشدائد، لأنه مفتاح النصر ، ولنتدبر فى ذلك أيضا قوله تعالى ليُقَوِّى عَزْمَ المؤمنين المجاهدين ، ولترتفعَ روحُهم المعنويةُ مهما طال أمدُ الحرب ومهما كانت ضراوة القتال ، يقول :

﴿وكأيِّن مِن نَبِيٍّ قاتلَ معه رِبِّيُّونَ كثيرٌ فما وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فى

(١) آل عمران : ١٢٤ — ١٢٦ . (٢) آل عمران : ١٣٩ — ١٤٢ .

سبيلِ اللهِ وما ضَعُفُوا وما اسْتَكَانُوا واللهُ يُحِبُّ الصابرين * وما كانَ قَوْلَهم إلَّا أن قَالُوا ربَّنَا اغْفِر لَنا ذُنُوبَنا وإسْرَافَنا في أَمْرِنا وثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنا عَلَى القَوْمِ الكافرين * فآتاهُم اللهُ ثوابَ الدُّنيا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ واللهُ يُحِبُّ المُحْسِنين ﴾ . (١) .

أما الرباط فهو فى معناه يشمل يقظةَ الأُمةِ أيامَ سِلْمِها ، وأَخْذِها الحيطةَ والحذر بكل الوسائل الملائمة لظروف المكان والزمان ولروح العصر مخافةَ أن ينقضَّ عليها عدوُّها انقضاضَ الصاعقةِ المباغتةِ وهم عنه غافلون ، ولنتدبَّر فى إرشاد المسلمين إلى ذلك وحثِّهم عليه قولَ الله تعالى محذِّراً من نيات العدو الخبيثة :

﴿ ودَّ الَّذين كفَرُوا لو تَغْفُلون عَنْ أَسْلحتِكُم وأَمْتِعَتِكم فَيَمِيلُون عليكُمْ مَّيْلَة واحدةً ﴾ (٢) .

ويأْمُر اللهُ عز وجل عبادَه المؤمنين بالإعداد للسلم والاستقرار وعدمِ التهاون بأَمر القوة، وبحمايةِ الثغور لإرهابِ العدوِّ حتَّى لا تحدثَه نفسُه باستغلالِ ناحيةٍ من نواحى الضعفِ يقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وأَعِدُّوا لهُم ما اسْتَطَعْتُم من قُوَّةٍ ومِنْ رِبَاطِ الخيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم وآخَرِين مِنْ دُونِهِم لا تَعْلَمُونَهُم اللهُ يَعْلمُهُم وَمَا تُنْفِقُوا من شَيْءٍ فى سبيلِ اللهِ يُوَفَّ إليكم وأَنتُم لا تُظلَمُون ﴾ (٣) .

فالله عز وجل يأْمر الأُمة الإسلامية باتخاذ الأُهبة ، وإعداد القوة المادية بتدريب المقاتلين وإعداد السلاح والمؤن والذخائر وغير ذلك مما تتطلبه حاجة الأُمة للدفاع عن نفسها ، وكبْحِ جماحِ أعدائها، واحتفاظها

---

(١) آل عمران : ١٤٦ — ١٤٨ . (٢) النساء : ١٠٢ .
(٣) الأنفال : ٦٠ .

هيبتها فى صدورهم مع ضرورة عنايتها بالرباط للحماية والتنبه للخطر عند أول بادرة له ، وهذا يتطلب من المسلمين بذل الجهود والتضحية بالمال وتقديمه بسخاء فى سبيل الله ، لأن المال عنصر أساسى لا غِنى عنه للإنفاق منه فى الوجوه التى تؤدى إلى حماية الأُمة ، ودعم قوتها ، وتمكينها من المحافظة على مقدساتها وأراضيها والدفاع عن المسلمين إذا أصابهم حَيفٌ وأُريد بهم ضُرٌّ ، لذا وعد اللهُ أهلَ السخاء الذين يرجون وَجْهَ اللهِ بأن يبارك لهم ويوفيَهُم أُجورَهم : ﴿ وما تُنْفِقُوا من شَىْء فى سبيلِ اللهِ يُوَفَّ إليكمْ وأنتُمْ لا تُظْلَمُون ﴾ و فى فضل الرباط والترغيب فيه ولفْتِ الأُمة إلى شرفه وكثرة ثوابه وردت أخبار كثيرةٌ ، ففى البخارى عن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « رِباطُ يومٍ فى سبيلِ الله خيرٌ من الدنيا وما عليها » .

والمرابط فى سبيل الله يؤمِّنُه الله من فتنة القبرِ ، ويَزيد له ثوابَ عمله الصالح بعد موته ، فقد سُمِع فضالةُ بنُ عبيد يقول : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « كلُّ مَيِّتٍ يُخْتَم على عمله – أى لا يُكتب له ثوابٌ جديد – إلا الذى ماتَ مرابطًا فى سبيل الله فإنه يُنْمَى له عملُه إلى يوم القيامةِ ويأْمن فتنة القَبر » .

وخطب عثمانُ بنُ عفان رضى الله عنه فقال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « حرسُ ليلةٍ فى سبيلِ اللهِ أفضلُ من ألفِ ليلة يُقام ليلُها ويصامُ نهارُها » .

ومن حديث أبى ريحانة يقول النبى ﷺ فى فضل السهر للحراسة فى سبيل الله : « حُرِّمت النارُ على عينٍ دمعَتْ – أو بكت – من خشيةِ اللهِ وحُرِّمت النارُ على عين سَهِرتْ فى سبيلِ الله » .

إن أعداءَ الإِسلام يعملون للكيد له ، ويتربصون بالمسلمين ، وحين تواتيهم الفرصُ يعتدون على بعض أوطانهم ، ويسلبونهم حقوقهم .

إن المِحنَ التى يعيش فيها كثير من إخواننا المسلمين لتحتاج منا أن نرجعَ إلى ديننا نأْخذُ أنفسَنا بتعاليمِه ، فنوحدُ صفوفَنا ، ونُعِدُّ العُدَّةَ لعدوِّنا ، ونصبرُ ونصابرُ ونرابطُ مع وقوف المسلمين وِقْفَةَ رجلٍ واحدٍ مخلصين جهادَهم لله ، متوكلين عليه ، واللهُ عز وجل وعد المجاهدين الذين ينصرونه بنصره ﴿ إِنْ تَنْصُروا اللهَ يَنْصُرْكُم وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُم ﴾ (١) .

فاتقوا الله ـ أيها المسلمون ـ وجاهدوا فى الله حق جهاده ، وتوبوا إليه ، وسلوه النصر والعون فهو نعم المولى ونعم النصير .

❋ ❋ ❋

---

(١) محمد : ٧ .

القسم الرابع

٢٥ ـ الأخوة فى الله : حقوقها وواجباتهـا .
٢٦ ـ الحاسد والحسد مذمومان فى الشرع والعقل .
٢٧ ـ الأمانة من خصال أهل البر والخير .
٢٩ ـ التعاطف والتراحم .

« الخطبـة الثانيـة »

٢٩ ـ بر الوالـدين وواجبنا نحـوهما .
٣٠ ـ النميمة والنمام دونهما سم الأفاعى .
٣١ ـ طوبى لمن طاب كسبه .
٣٢ ـ الربا وآثـاره السيئة .
٣٣ ـ صلة الرحم .
٣٤ ـ طوبى لمفاتيح الخير .
٣٥ ـ الزنى وآثاره السيئة .
٣٦ ـ الرشوة من مفاتيح الشر .
٣٧ ـ لم شهدتم علينا ؟
٣٨ ـ رعاية اليتيم ومسؤوليتنا عنه .
٣٩ ـ يا معاذ أحسن خلقك للناس .
٤٠ ـ الخمر أم الكبائر .
٤١ ـ أخلصوا العمل لله وأحسنو إلى من أمر الله بالإحسان إليهم .

الأخوة فى الله

حقوقها وواجباتها

الحمدُ لله ، الذى يؤلف بين قلوب المؤمنين بالمحبة الخالصة ، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى محمد ، هذب النفوس ، ودعا إلى الأُخوَّة والتراحم ، والمحبة الصادقة الصافية .

أَحمد الله تعالى وأَستغفره ، وأَشهد أَن لا إِلٰه إِلا اللهُ مقلبُ القلوب ومحولُها ، بيده الأَمرُ ، وإِليه المصيرُ ، وأَشهد أَن محمدًا رسولُ اللهِ بعثه ربه بالهدى ليجمع القلوب على الحق بإِذن ربه ، وليبنى صرح الأُخوَّة على أَساسٍ من الإِيمان الصادق ، والرغبةِ الخيِّرةِ فى إِعلاء كلمةِ الله ، والتعاونِ على ما يحقق الخير للمؤمنين فى الدنيا ، والفوز فى الآخرة .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارِكْ على الحبيب المصطفى وعلى آله وأَصحابِه ، ومن اتبع هداهم إِلى يوم الدين .

أما بعد :

فيا أَتباع محمد ﷺ : قال رسول الله ﷺ : « ثلاثةٌ مَن كُنَّ فيه وَجَد حلاوةَ الإِيمانِ : أَن يكونَ اللهُ ورسولُه أَحبَّ إِليه ممَّا سِواهُما ، وأَن يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّه إلا للهِ ، وأَن يكرهَ أَن يعودَ فى الكُفْر كما يكرهُ أَن يُقذفَ فى النارِ » .

يا أتباع محمد ﷺ :

الإِسلام ومبادئُه الهاديةُ من أَعظم نعم الله على بنى الإِنسان ، هَدى المؤمنين به صراطًا مستقيمًا . . . ودعاهم إلى ما يحقق لهم خَيرى الدُّنيا والاخرة وحثَّهم لبناء صرح حياتِهم الفرديةِ والاجتماعةِ على الحُبّ ،

حبِّ اللهِ، وحبِّ رسولِهِ وأن يكون حبُّ اللهِ وحبُّ الرسولِ الكريمِ مسيطرًا على فؤادِ المؤمن ولُبِّه ونفسِه ، ومستوليًا على كلِّ كيانِه وقلبه . . لا يُدانيه ولا يُقارِبُه حبُّ الدنيا ومتاعِها ، أو حبُّ الولدِ ، أو حبُّ الأهل. « . . أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مِمَّا سِواهما » فإذا صدق إيمانُ المؤمن ، وامتلأَ قلبه بنور اليقين ، وتعلق بحب خالقه والمُنعم عليه ، واهبِ الحياةِ ومالكِ الملك . . وأحبَّ نبيَّه وهادِيَه صاحبَ الرسالةِ العُظمى ﷺ . . إذا صَدَق إيمان المؤمن كان لهذا الإيمان ثمراتُه الكثيرة . . ومن ثمراتِ هذا الإيمانِ استجابةُ المؤمنين لنداءِ الحقِّ بالتآخِي والتحَابِّ فى الله عز وجل والتفافِ المؤمنين إخوةً متحابين تربط بينهم رابطةُ العقيدة ، غايتُهم إعلاءُ كلمةِ الحق ونصرةُ دينِ الله ، والتعاونُ على ما يحقق لهم الخيرَ فى الدنيا والفوزَ فى الآخرة « وأن يُحِبَّ المرءَ لا يُحِبُّه إلا لله » . .

يا أتباع محمد ﷺ :

الإسلام يقيم الصلة بين المسلمين على الإخاء الوثيق . . الإخاء الخالص لله عز وجل . . الإخاء الذى يُغَذِّيه الإيمان ، والذى يرتبط بأهداف الدعوةِ الإسلامية ، هذا الإخاء هو روحُ الإسلام ولبُّ مبادئِه وشرائعِه وقوامُ جماعته .

يقول الحق تبارك وتعالى : ﴿ واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفَرَّقُوا، واذْكُروا نِعْمَةَ اللهِ عليْكُم إذْ كُنتُم أعْدَاءً فَألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِه إخْوَانًا ﴾(١) .

لقد كان الناسُ قبل الإسلام ، جماعاتٍ متنابذةً وفِرَقًا متعاديةً ،

(١) آل عمران : ١٠٣ .

وأهواءٌ متعارضةٌ، فكان من فضلِ اللهِ عليهم أن أرسل إليهم نبيَّ الرحمةِ يجمعُ على الإيمانِ قلوبَهم ويوحِّدُ على طريق الحقِّ صفوفَهم ، ويُزيل من النفوسِ كل مُسبِّبات الشحناء ويُطهر القلوبَ من كل أسبابِ البغضاء . . وجاهد الهادى الحبيبُ ﷺ فى الله حقَّ جهادِه مستمدًّا العونَ من الله عز وجل . . حتى ارتفع صرحُ المجتمع الإسلاميِّ وتماسكت لَبِناتُه على أَساس من الأُخوة فى الله ، والحبِّ فى الله . . فحَلَّ التفاهمُ والتراحمُ محلَّ التخَاصُم والتقاطُعِ ، وحلَّت المبادرةُ إلى الخير محلَّ المبادرةِ إلى الشر . . وصارت الرابطةُ التى تجمعُ المسلمَ إلى المسلم هى رابطةَ العقيدةِ ، وأُخوةَ الدين وتحطمت حواجزُ الجِنس أَو اللغةِ ، لتحلَّ محلَّها روابطُ المبادىء السامية .

وصار المسلمون فى ظل تلك الأُخوةِ الكريمةِ يلينُ بعضُهم لبعض ، ويرحمُ بعضُهم بعضا ، ويرفقُ قويُّهم بضعيفهم ، ويُعين قادرُهم عاجزَهم ؛ ويـألَمُ المؤمنُ لأَلم أَخيه ويفرحُ لسروره . .

صار المسلمون فى ظلِّ الأُخُوةِ والمحبةِ دعاةً للخير ونُهاةً عن الشر . . وتلونت عواطفُهم الإنسانيةُ بالحبِّ والبغضِ تَبعًا لما يُصيب الإسلام وأُمتَه من خيرٍ أَو شرٍّ، وتلوَّنَ سلوكُ المسلم فى حياتِه وفْقَ ما تَقْضى به هذه الأُخوةُ الإيمانيةُ الكريمة . . . فهو يمنع أَذاه عن إخوانه المؤمنين ، وهو يردُّ عنهم عادياتِ الزمان ، وهو يُؤْثِرُهم على نفسِه عند الحاجةِ ، وهو يُعين مَنْ يحتاجُ إلى عونِه وبرِّه . . . وهو يحبُّ أَهلَ التقوى والصلاح ويكرهُ أَهلَ الإلحاد ، وَمَنْ يكون حرْبا على دينِ الحقِّ ولو كانوا يَمتُّون إليه بقرابة أَو دَم . . والمؤمنُ فى ظلال الأُخوة الإيمانية يُرشد أَخاه إذا ضَلَّ . . . ويُبَصِّرُه إذا وَجَدَ فيه انحرافا . . ويُعينه على الخير والهُدى إن وجده مستقيمًا على الخير والهدى .

تِلكم هى الأُخوةُ الإيمانيةُ إنها أُخوةٌ تَعتمِدُ على رُكْنَين عَظِيمين : على رسالة مُقَدَّسَة تَنَزلتْ من ربِّ العالمين . . . فهم يَعِيشُون لها ، وَيَتفانَوْن فى سبيلها .

وعلى أُمةٍ مُتَساندةٍ ، متعاونةٍ للعملِ بها فى كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة.

يا أتباع محمد ﷺ :

لقد جاءت فى سنةِ رسولِ الله ﷺ أحاديثُ كثيرةٌ لِلْحَضِّ على الأُخوةِ وتأْكيدها وإقامتِها على مبادىء الدينِ وأَهدافِهِ وغاياتِه .. وجَعْلِ هذه الأُخوة شركةً روحيةً وماديةً قائمةً على الوفاءِ بتعاليمِ الإسلام ، وإنفاذِ وصاياه ، وإبلاغ هداياتِه ، وبتالك الأُخوةِ المخلصةِ تعيشُ الأُمة الإسلاميةُ مخلصةً لرسالتها ، حريصةً على إنجاحِها ، تحيا بها، وتحيا لها ، ولا تَرْضَى سِوى رسالتِها السماويةِ موضوعًا ولا عنوانًا . .

لماذا ؟ . . لماذا لا يَرْضَىٰ المؤمنُ عن منهاج غيرِ منهاج الإسلام ؟ ولا تتعلقُ نفسُه إلا بحبِّ هذا الدينِ وإنفاذِ وصاياه ، ولزوم مبادئِه وأَحكامِه ؟

ذالك لأَن الإِيمان فى الإِسلامِ ليس كلمةً تُقال ، وإنما هو اطمئنانُ القلبِ وعملٌ تظهرُ آثارُه فى سلوكِ الفردِ وحياةِ الجماعة . . يقول المصطفى ﷺ : « ثلاثٌ من كُنَّ فيه وَجَدَ حلاوةَ الإِيمانِ وطعمَه : أَن يكونَ اللهُ ورسولُه أَحبَّ إِليه مِمَّا سواهما ، وأَن يُحِبَّ فى اللهِ وَيُبْغِضَ فى الله . . وأَن تُوقَدَ نارٌ عظيمةٌ فيَقَع فيها أَحبُّ إِليه مَنْ أَن يُشرِكَ باللهِ شيْئًا . . » .

فالمسلمون ارتبطتْ آمَالُهُم وحياتُهم بهذا الدينِ الذى أَكرمَنا اللهُ بالانتسابِ إِليه . وحبُّ اللهِ يَقْتضِى اتباعَ أَوامرِهِ سبحانه ، وتطبيقَ

أحكامه ، واجتنابَ ما نَهَى عنه . وحبُّ الرسولِ ﷺ يقتضى اتباعَ سنتِه ، والسيرَ على منهاجه .

والحبُّ فى الله يقتضى أن تكون العلاقةُ بين المسلمِ والمسلمِ قائمةً على المودّة والتناصحِ والأمرِ بالمعروف والنَّهْى عن المنكرِ والوفاءِ والإخلاصِ فى السرِّ والعلنِ . . والبغضُ فى الله يقتضى أن يكرهَ المؤمنُ كلَّ ما من شأْنه أن يكونَ معاديًا لكلمةِ الله ، ولمبادىء الحقِّ والخيرِ التى جاءَ بها الإسلامُ ، ولهذ كان من الخيرِ للمؤمن . . أن يُقْذَفَ فى النار من أن يَحِيدَ عن منهاج الإسلامِ ومن أن يُشركَ باللهِ شيئًا .

والرسولُ الحبيبُ ﷺ أَخْبَرنا عن مكانةِ المتحابين فى الله ، المخلصين لدينِ اللهِ فقال : « إن مِنْ عبادِ اللهِ ناسًا مَا هُم بأَنبياءَ ولا شُهداءَ ، يَغْبِطُهم الأَنبياءُ والشهداءُ بمكانِهم من اللهِ ... قالوا يارسولَ الله ... فخبرنا مَنْ هُمْ ؟ قال : هم قَوْمٌ تَحَابُّوا بروحِ اللهِ على غيرِ أرحامٍ بينهم ، ولا أموالٍ يَتَعَاطَوْنها ... فَواللهِ إن وجُوهَهمْ لَنُورٌ . وإنهم لَعَلى نورٍ ، ولا يَخَافُون إذا خافَ الناس ، ولا يَحْزَنون إذا حزِن الناس . وقرأَ هذه الآية :﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) .

ويَروى أبو الدرداءِ رضىَ الله عنه عن الحبيب الهادى ﷺ قوله : « مَا مِنْ رجُلين تحابًّا فى اللهِ بِظَهْرِ الغَيب إلَّا كانَ أَحبُّهما إلى الله أَشَدَّهما حُبًّا لصاحبه » .

ولتوكيد أَواصر المحبة يخبر المؤمنُ أخاه الصالحَ بأَنه أَحبه لظهور استقامتِهِ وصلاحِهِ ، فعن المقدام بن معديكربَ رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « إذا أَحَبَّ أَحدُكم أَخاه فَلْيُخْبِرْه أنه يُحِبُّه » .

---

(١) يونس : ٦٢ .

وليسأل المسلمُ أخاه فى الله عن اسمه وأهله إذ إن ذلك يزيد القلوبَ قُربًا ، فعن يزيد بن نعامة الضبى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا آخى الرجلُ الرجلَ فليسأله عن اسمه واسم أبيه ، وممن هو فإنه أوْصَلُ للمودة » .

إن أهل الإخلاص المتحابين لله ، وفى سبيل الله يشملهم الله برحمته يوم تدنو الشمس من الرءوس .

فعن أبى هريرة رضى الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال : « يقولُ الله عزَّ وجل يوم القيامة : أينَ المتحابُّون بجلالى ، اليوم أظلهم فى ظلِّى يوم لا ظِلَّ إلَّا ظِلِّى » .

وعن أبى إدريس الخولانى عن معاذ رضى الله عنه أن النبىَّ ﷺ قال : « يقولُ الله تعالى : وجبت محبَّتى للمتحابِّين فىَّ ، وللمتجالسين فىَّ ، وللمتزاورين فىَّ ، وللمتباذلين فىَّ » .

وعن أبى ذرٍّ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « أفضل الأعمال ، الحبُّ فى الله ، والبُغض فى الله » .

فاتقوا الله — عباد الله — وتوبوا إليه توبه نصوحا فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

الحاسد والحسد

مذمومان في العقل والشرع

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إيَّاكُمْ والحَسَدَ ، فَإِنَّ الحَسَدَ يَأْكُلُ الحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الحَطَبَ » .

الحسد : أن يتمنى صاحبُ النفسِ المريضة زوالَ النعمةِ عن إنسان سواء تمنى أن تتحول إلى شخصه أم تمنى زوالها فحسب .

والحديث الشريف يبيِّنُ لنا أن الحسدَ مذمومٌ ينبغي للمؤمن أن يتحذر منه ، وأنه يسبب لصاحبه الإثمَ وذهابَ الحسنات .

ولما كان الحسدُ خُلقًا ذميمًا مع إضراره ببدن الحاسدِ وإفساده للدين ؛ فقد أمر الله عز وجل بالاستعاذة من شره ، فقال عز وجل : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾(١) . وجاء الأمر بالاستعاذة من شر حاسد إذا حسد بعد الأمر بالاستعاذة ﴿ من شرِّ ما خلق ﴾ . والحسدُ أحدُ الشرور فتخصيصُه بالذِّكر يدلُّ على أن الحسد من أعظم الشرور خطراً وأكثرها ضرراً .

وقد حذرنا النبيّ ﷺ من أمرين يناقضان سلامةَ الدين وصحةَ اليقين هما : البغضاءُ والحسدُ لأنهما عدوَّانِ شرسانِ للإنسان إذا تسلطا عليه أنهكاه وملآ قلبه بالهموم ، وشغلاه بتوافه الأمور ، فقال ﷺ : « دبَّ إليكم داءُ الأمم قبلكم : البغضاءُ والحسدُ ، هي الحالقةُ حالقةُ الدين لا حالقةُ الشعر ، والذي نفسُ محمد بيده لا تؤمنوا حتى تَحابُّوا ، ألا أُنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم أَفْشُوا السلامَ بينكم » .

---

(١) الفلق : ٥ .

فدعانا الرسول ﷺ إلى التحابّ وإفشاء السلام والمودة تأكيدا للتحابّ وبَعْثا عليه ، لأن إفشاء السلام يساعدُ على نَفْى الحسد .

والناسُ يعيشون فى خيرٍ وسَلام ومحبةٍ مَا لم يَظْهر داءُ الحسدِ بينهم كما جاء فى الحديث أن النبيّ ﷺ قال : « لا يزالُ الناسُ بخيرٍ ما لم يَتَحَاسَدُوا » .

حقاً إن الحسدَ قد يضرُّ المحسودَ إذا أرادَ اللهُ ذلك وقَدَّره ، ولكنَّ ضرره على الحاسد أَعظمُ وآكدُ . قال حكيم : عقوبةُ الحاسدِ من نفسِه ، ذلك أن الحسدَ يضرُّ بالدين والجسمِ والنفس .

أَما ضررُ الحسدِ بالدين فالحاسدُ ـ والعياذُ بالله ـ ناقمٌ على ربِّه ، منكرٌ لعدله ، لأنه يَبْغض النعمة التى تظهرُ على غيره ، فأين الإيمانُ بأن الله هوَ الرزاق المنعم ؟ ولذا كان الحسد نقصًا فى الدين ، وضعفًا فى اليقين ، مع ما فيه من مخالفة لطريق الأنبياء ، ومتابعةٍ لإبليس اللعين فى حب الأذى والشر للعباد ، والمؤمنُ بحق يُحِبُّ الخير لإخوانه ، وتسرُّه النعمة إذا أصابت المؤمنين .

أَما الحاسدُ فإنه ساخط لقسمة ربه ، ينظر لدنياه ، ولا يفكر فى العواقب فيعيش لذلك مهموماً ، معذَّب النفسِ ، مُنَغَّصَ البالِ ، وكلما رأى نعمةَ محسودِه زادتْه همًّا ، وكَأَنَّه يقول لربِّه : لمَ قَسَمْت هذه القسمةَ ؟ وذلك كما حَسَدُوا النبيَّ ﷺ لأنه فقيرٌ يتيمٌ واصطفاهُ اللهُ للنعمة التامَّة والرسالة العامةِ ، فماذاقالوا : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا القرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ القَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾(١). فوبَّخَهُم اللهُ ، وعلَّمنا فقال سبحانه :

﴿ أَهُمْ يَقْسِمُون رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَّعِيشَتَهُمْ فِى الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ورَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٢) .

---

(١) الزخرف : ٣١ .　　(٢) الزخرف : ٣٢ .

ولما حسد اليهودُ النبي محمداً ﷺ كانت العاقبة الكفرَ والهلاكَ ووبَّخَهم الله على ذلك ، وعلَّمنا فقال : ﴿ أَمْ يَحْسُدونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (١).

وكما يضرُّ الحسدُ دينَ الحاسدِ فإنه يضرُّ جسْمَه حتى لقد يؤدِّى به إلى التلفِ دون أن يصَابَ المحسود بضررٍ . قال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما : « ليسَ فِى خِصَالِ الشَّرِّ أعدل من الحسد ، يَقتل الحاسدَ قبلَ أن يصل إلى المحسود » . ذلك أن الحسد عظيم الضررِ بنفسِ الحاسدِ ، لانه يحَمِّل القلْبَ هموماً لا يطيقها ، ولذا قال حكيم : « يكفيك من الحاسدِ أنه يغتمُّ فى وقتِ سرورك » .

وقال الحسن : ما رأيتُ ظالماً أشبهَ بمظلوم من حاسد : نَفَسٌ دائِم ، وحُزنٌ لازم ، وعَبْرَةٌ لا تنفَدُ » .

فالحاسد والعياذُ بالله يخسر دينَه ، ويخسر دنياه ، ويصبح عدوًّا لنعم الله ، قال ابن مسعود رضى الله عنه : لا تُعادوا نعمَ الله ، قيل له : وَمَن يُعادى نعمَ الله ؟ قال : الذين يحسدون الناسَ على ما آتاهم اللهُ من فضله . قال الله تعالى فى بعض الكتب : « الحسودُ عدوٌّ نعمَتى ، مُتَسخِّطٌ لقضائى ، غيرُ راضٍ بقسمتى » .

ونعمةُ الله عز وجل لن تزولَ عن المحسود بسبب الحاسدِ ، فاللهُ عز وجل قدَّر وتقديره نافذ رضى الحاسد أم كره فكل شىء عنده تعالى بمقدار ، ولكل أَجلٍ كتاب ، ولن يغير الحسد من قضاء الله شيئاً ، ولو كانت كلُّ نعمةٍ تزول بالحسد لما بقى على الأَرض مَنْ يؤمنُ بالله ، لأَن الكفار يحسدون المؤمنين على نعمة الإيمان . قال الله تعالى : ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الحَقُّ﴾ (٢) .

---

(١) النساء : ٥٤ . (٢) البقرة : ١٠٩ .

ولما كان للحسد أثره فى إفساد القلوب وإثارة العداوة.، لأن الحاسد قد يسعى فى ضرر المحسود ، أو يعمل على التشهير به ، أو ينال منه بلسانه ظُلمًا وعدوانًا ، فإن الله عز وجل أمرنا أن نلتجئ إليه وحده نستعيذُ به من شرِّ الحاسد ، فهو وحده القادر على كَفِّ أذاه وإحباطِ سعيه . قال تعالى :﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الفَلَقِ * من شَرِّ مَا خَلق * ومن شَرِّ غاسِقٍ إذا وَقَب *ومن شَرِّ النفَّاثَاتِ فى العُقَد *ومن شَرِّحاسِدٍ إذا حسَد﴾ (١).

أيها المسلمون :

إن الحسدَ شرُّه عظيم ، فهو سبب كل قطيعة ، ومفرِّق كل جماعة ، وإذا تمكن من نفس صاحبه أفسد عليه أخلاقَهُ ، وسهَّلَ عليه الكذبَ والغِيبةَ والغدرَ والنميمةَ والسعاية إذا وجد فى واحد منها ماينال به غرضَه من محسوده .

ولذا كان الحاسد ممقوتًا عند الناس لا ينال فى المجالس إلا الندامة ، كما لا ينال عند الملائكة إلا لعنةً وبغضاء ، ولا ينال فى الخلوة إلَّا جزعًا وغمًّا ، ولا ينال فى الآخرة إلا حُزنا واحتراقاً ، ولا ينال من الله إلا بعداً ومقتاً .

ولنتدبر تبرُّؤَ النبيِّ ﷺ من الحاسد والنَمَّام والكاهن ، يقول : « ليسَ منِّى ذو حسدٍ ولا نَميمة ولا كَهانة ولا أنا منه . ثمَّ تلا قوله تعالى : ﴿ والَّذِينَ يُؤْذُونَ المؤمِنِين وَالمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ ما اكْتَسبُوا فَقَدِ احْتَملُوا بُهْتَانا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴾(٢) » .

إن الحسد يَصْدر من نفسٍ مريضةٍ والمرضُ يمكن علاجُه إذا صحَّ العزم ، وصدقت النيةُ ، وهو وليدُ العجزِ عن الفضائل التى منحها اللهُ

---

(١) سورة الفلق بتمامها . (٢) الأحزاب : ٥٨ .

للمحسود ، ووليدُ الحقد والبُغض ، وعلاجُه فى اتباع اللين والرضا بقضاء الله تعالى ، والقناعة ، ولذا قالوا : مَنْ رَضِيَ بقضاءِ الله تعالى لم يُسْخِطْه أحدٌ ، ومن قَنِعَ بعطائِهِ لم يَدْخُلْه حَسَد . وهذا المعنى مأخوذ من دعاء للنبيّ ﷺ ، وفيه يقول : « اللهمّ إنّى أسألُك نفساً بك مطمئنة ، تؤمن بلقائِك وترْضَى بقَضَائِك وتقْنَعُ بعَطَائِك » .

وكان من دعائه ﷺ : « اللهمّ احفَظْنى بالإسلام قائماً واحفظْنى بالإسلام قاعداً ، واحفظْنى بالإسلام راقداً ، ولا تُشْمِتْ بى عدوًّا ولا حاسداً ، اللهم إنى أسألُكَ من كلِّ خير خزائنُه فى يدِك ، وأعوذُ بِكَ من كلِّ شرٍّ خزائنُه فى يدِك » .

وقال ﷺ : « ثلاثةٌ لا يُستجابُ دعاؤُهم : آكل الحرامِ ، ومُكْثِرُ الغِيبَةِ ، ومَنْ كان فى قَلْبِهِ غِلٌّ أو حَسَدٌ للمسلمين » .

وقال ﷺ : « المؤمنُ يَغْبِط والمنافق يَحْسُد » .

وروى الإمام أحمد عن جابر بن عبد الله أن رسولَ الله ﷺ اشتكى فأتاه جبريلُ فقال : « باسم الله أَرْقِيكَ من كلِّ شيء يُؤْذِيك من كلِّ حاسدٍ وعَيْنِ اللهُ يَشْفِيك » .

وعن عقبةَ بنِ عامر أن رسول الله ﷺ قال : « إن النَاسَ لم يتعَوَّذُوا بمثلِ هَذين :﴿قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ الفَلَق﴾﴿ قُلْ أعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴾

وفى رواية أن النبيّ ﷺ قال له : « ما سأَل سائلٌ بمثلِهما ولا استعاذَ مُستعيذٌ بمثلِهما » .

فاتقوا الله عباد الله واستعيذوا من شرِّ حاسدٍ إذا حسد ، واطلبوا منه المغفرة والرحمة وتوبوا إليه لعله يرحمكم .

الأمانة

من خصال أهل البر والخير

قال رسول الله ﷺ : « أربعٌ إذا كُنَّ فيك ، فلا عليك ما فاتَكَ من الدُّنيا : حفظُ أمانةٍ ، وصِدْقُ حديث ، وحُسْنُ خَليقةٍ ، وعفَّةٌ فى طُعْمَة » .

أيها المؤمنون :

الحبيبُ المصطفى ﷺ يرشد أُمته إلى مكارم الأخلاق ، ويحثهم على التحلى بمحاسن الآداب ، وتلك أربع خصال من تحلى بها فلا عليه ما فاته من الدنيا : إذا اؤتمن حفظ الأمانة ، وإذا تحدَّث صدق ، وأن يكون حسَنَ الأخلاق ، سهلَ الطبع ، لينَ الجانب ، وأن يتحرى الكسبَ الحلال ، ولا يطمع فيما ليس له بحق .

والأمانة هى كلُّ ما يُؤمن عليه المرءُ من أمرٍ ونهى وشأن من دين ودنيا . فرعايةُ حقوق الله تعالى ، بتأدية الفرائض والواجبات ، وترك المحرَّمات أمانة ، وقد روى هذا المعنى مرفوعاً من حديث ابن مسعود رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « القتلُ فى سبيل الله يكفِّر الذُّنوبَ كلَّها » . أو قال : « كلّ شىء إلا الأمانةَ فى الصلاة ، والأمانة فى الصوم ، والأمانة فى الحديث ، وأشدُّ ذلك الودائع ». وقد قال جمع من الصحابة رضوان الله عليهم ، عن الأمانة فى قول الله تعالى : ﴿ إنَّ اللهَ يأمُركم أن تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلِها ﴾ (١) .

قالوا : الأمانةُ فى كل شىء ، فى الوضوء والصلاة والزكاة والصوم

---

(١) النساء : ٥٨ .

والكيل والميزان والودائع . ومن الأمانة حفظُ حقوقَ العباد ، فلا يطمع المرءُ فى وديعة اؤتمن عليها ، ولا ينكر مالا وُكل إليه أمر حراسته ، أو دينًا فى ذمته .

روى أُبَىٌّ بن كعب قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول : « أدِّ الأمانةَ إلى من ائتمنك ولا تخُن من خانك » . وواضحٌ من الحديث أنه لو كان المودِعُ نفسُه قد خان الأمانةَ من قبلُ ، فلا ينبغى للمؤمن أنْ يخونَه فى وديعتِه ، وإنما عليهِ أن يعملَ بدِينِهِ ، فيفِىَ له ، ويؤدِّى إليهِ أمانتَه ، ثمّ يستعين الله عليه ، وهذا نهايةُ الكمالِ الإنسانىِّ فى خُلقِ الأمانةِ ، ووجوبِ تَجنُّبِ الخيانة .

فالمؤمن الذى يخشى ربه ، ويرجو ثوابه يسارع إلى رد الأمانة إلى صاحبها إذا ما استردها منه . روى أبو أُمامة قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول فى خطبته عام حجّة الوداع : « العاريةُ مؤدَّاة ، والمنحة مردودة ، والدَّين مَقْضىّ ، والزعيم غارم » .

وعقود شركات التجارة بين التجار والمتعاملين من جملة الأمانة الواجب الاستمساك بها والوفاءُ بشروطها . قال رسول الله ﷺ : « المسلمون عند شروطهم » . وقال ﷺ : « إن الله يقول : أنا ثالثُ الشريكين ما لم يَخُن أحدُهما صاحبَه فإذا خانه خرجتُ من بينهما » .

والمعنى : أن معونة الله وتوفيقه يكونان مع الشريكين الأمينين ، فإذا خان أحدهما صاحبه ارتفع أثرهما من تجارتهما ، بالحرمان من معونة الله وتوفيقه ، وهذا أمر مشاهَدٌ فى الحياة ، فإن صفة الأمانة فى التاجر توطد ثقةَ إخوانه فيه ، وتجعلهم يُقبِلون على معاملته ، فتزداد أرباحُه ، ويتحقق نجاحه ، وبالعكس إذا كان غير أمين ، فإن الإفلاس

يَحِلُّ به ، والناس ينصرفون عن معاملته . . ومن ثَمَّ قال الحبيب المصطفى ﷺ : « الأَمانةُ غِنًى » . وقال : « الأَمانةُ تجلِبُ الرزق والخيانةُ تجلب الفَقرَ » . ومن صفات التاجر الأَمين أنه لا يستعمل الغش ، ولا التطفيف فى وزن أَو كيل ، ولا يُخْفِى عيوبَ السلعة . ولقد حذر الاسلام من الغش فى المعاملات والخيانة فيها . قال ﷺ : « من غَشَّنَا فليسَ مِنَّا المكرُ والخديعةُ والخيانةُ فى النار » .

يا أهـــل الإسلام :

إن الأَمانةَ عظيمةُ القدر فى الدين ، ومن عِظَم قدْرها أَنها تقوم هى والرحمُ على جَنَبَتَى الصراط ، فلا يُمَكَّن من الجواز إلَّا من حَفِظهما ، فلْيتقِ اللهَ المؤمنُ فى الأَمانة فإنه لا إيمان لمن لا أَمانة له كما أَخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ وليعلم المؤمن أَن الأَمانة كما تكون فى العبادات ، وفى الأَموال فإنها تكون أَيضاً فى كتمان السر ، وإخلاص المشورة للمستشير ، وفى الفَتْوى ، وفى الحديث ، وفى الشهادة ، وفى صِدْق التبليغ فيما كلف الشخصُ أَن يبلغه ، فمن حمل رسالة عليه أَن يوصلها على وجهها الصحيح بلا زيادة ولا نقصان . والذى يستودع أَخاه سراً فهو واثق به ، مطمئن إلى كتمانه ، فيصير السر أَمانة ينبغى أَن تُحفظ ، ومن يستشير أَخاه فى أَمرٍ ، فهو يبغى عنده النصيحةَ والإخلاصَ ، فصار من الأَمانة أَن ينصح له ، ولا يغشَّه . . ولنتدبر قول الحبيب المصطفى ﷺ : « المستشارُ مؤتَمن ، فإذا استشير أَحدكم فَلْيُشِر بما هو صانع لنفسه » . أَى يجعل أَخاه بمنزلة نفسه ، فما يُحبه لنفسه ينصح به أَخاه ، وقد حذرَ الحبيبُ المصطفى ﷺ من الخيانة فى الشورى فقال : « مَنْ أَشارَ إلى أَخيهِ بـأَمر يعلمُ أَن الرشدَ فى غيرِه فقد خانَهُ » . ومن الأَمانة أَن

يقوم المؤمن بواجبات العمل أو الوظيفة التى يشغَلُها بصدْقٍ وإخلاص ، فيجتهد فى أداءِ العمل على أكمل وجْه ولا يَتوانى فيه ، فالعملُ والوظيفة بمثابة العهد بين المرءِ وأُمته ، أو بينه وبين صاحبِ العمل ، فعليه أن يراقبَ الله فيه . وقد مدح القرآن الكريم الأبرار الناجين من عذاب جهنم فقال فى صفتهم : ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وعَهْدِهِم رَاعُون ﴾(١). وهذا عامٌّ فى كل ما اؤتمن عليه المؤمنون وعوهدوا به من جهة الله تعالى ، ومن جهة الناس كالتكاليف الشرعية والأموال المودعة والأيمان الموثقة ، والنذور الملتزمة ، والعقود المحترمة وغير ذلك ، ولهذا جُمِعت الأمانة فى الآية دون العهد . إن الأمانة هى ينبوع السعادة ، ومصدرُ الفلاح ، بها يثق الناس بالمرءِ ، فيمنحونه أموالهم يتجر بها وأعمالَهم يتصرف فيها ، فيفيد ويستفيد ويجد الأمين المعونة على الشدائد فى كل وقت ، والأمم لم ترقَ ولم تحظَ بالغِنى إلَّا بالأمانة ، فما رَبحت تِجارة وازدهرت إلَّا بها ، ولا راجت صناعة بغيرها ، ولا أفلحت شركة بسواها .

إن الأمانة فى الناس والمحافظة على العهود الموثَّقَةِ بينهم هى سبب كل خير وسعادة وصلاح ، وقد أخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ أن أُمته لا تزال بخير ، ما لم تر الأمانة التى تؤتمن عليها غنيمة حلالا لها ، فيخون المرءُ الأمانة ، ويغدر بصاحبها ، وفى هذا قال ﷺ : « لَا تَزَالُ أُمَّتِى بِخَيْرٍ ما لم تَرَ الأَمانةَ مَغْنَمًا ، والصدقَ مَغْرَمًا » .

وقال ﷺ : « أَربعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كانَ مُنافِقًا خالصًا ، ومَنْ كانت فيهِ خصلةٌ منهُنَّ كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يَدَعَها : إذا اؤْتُمِنَ خَانَ ، وإِذَا حَدَّثَ كَذَب ، وإِذَا عَاهَدَ غَدَر ، وإِذَا خَاصَمَ فجَر » .

---

(١) المؤمنون : ٨

نسأل الله عز وجل أن يُحَبِّبَ الأَمانةَ إلى نفوسنا ، وأن يرزقنا الإخلاص فى القول والعمل إنه نعم المولى ونعم النصير .

وقال ﷺ : « الأَمانةُ تَجْلِبُ الرزقَ ، والخِيانةُ تُجْلِبُ الفقرَ » .

فاتقوا الله — عباد الله — وسلوه من فضله فإن الله يحب أن يُسأل وتوبوا إليه لعله يغفر لكم .

❋ ❋ ❋

الخطبة الثانية :

إن كلَّ حق عندك للغير تُؤديه فهو أمانة ، فالدَّينُ أَمانةٌ والوديعةُ أَمانةٌ والرسول ﷺ يقول : « مَن أَخَذ أَموالَ الناسِ يريد أداءها أَدَّى اللهُ عنه وَمَنْ أَخذها يُريد إتلافها أَتلفَه الله » . والمِعيار الحقّ فى الكيل والميزان أمانة ، ونُصح الناس أَمانة ، وللزوج على الزوجة حقوق هى أَمانة ، وللزوجة على زوجها حقوق هى أَمانة ، ودم الإِنسان وعرضه أَمانة ، والسر أَمانة .

ومن الأَمانة أَلّا يستعملَ سمعَه أَو نظرَه ، أَو شيئًا من جوارحه فى فُحش أَو باطل وألا يقول لسانُه إلا حقًّا . وكل ما يطلبه الدين منا من خير أَمانة ، وكل ما يطلب تركه من شرٍّ أَمانة ، وإن الصادق فى قوله ، الوفيَّ بعهده ووعده ، الأَمين على ما اؤتمن عليه مقرب من الله ، منعَّم فى أَهله ، محبب من الناس أَجمعين ، إن قال قُبِل قوله ، وإذا طلب أُجيب إلى طلبه ، أموال الناس كأَنها أَمواله ، وثروتهم كأَنها ثروته لأَنهم يدفعون ما يحتاج إليه من أَموالهم ويسلمونه ما يشاء من البضائع المملوكة لهم طَيبة نفوسهم ، منشرحة صدورهم ذالك لأَنهم واثقون من دينه وأَمانته وأَنه لا يماطل فى حق ، ولا يسوِّف فى وعد .

وهكذا كان السلف الصالح فمثلوا هذا الدين أَصدق تمثيل ، وبلَّغوه للأُمم أَحسنَ بلاغ بالأَعمال قبل الأَقوال . ومن وصايا الرسول ﷺ قوله لأَبي بكر رضى الله عنه :

« عليك بصدقِ الحديثِ ، ووفاءِ العهدِ ، وحفظِ الأَمانة فإنها وصية الأَنبياء » .

وكان عمرُ بنُ الخطابِ رضى الله عنه يقول : لا يُعْجبُكم من الرجل طَنْطَنَتُه ، ولكن منْ أَدَّى الأَمانة وكفَّ عن أَعراضِ الناسِ فهو الرجلُ .

والإمام على رضى الله عنه قال : أَداءُ الأَمانةِ مفتاح الرزق .

وقال على رضى الله عنه : كنا جلوسا عند رسولِ الله ﷺ فطَلَع علينا رجلٌ من أَهلِ العالية فقال : يا رسولَ الله أَخبرنى بأَشدِّ شيء فى هذا الدِّينِ وأَلينهِ فقال : أَلينُه أَشهدُ أَن لا إِلٰهَ إلا الله وأَن محمدًا عبدُه ورسولُه ، وأَشدُّه يا أَخا العاليةِ الأَمانةُ ، إِنه لا دينَ لمَن لا أَمانةَ له ، ولا صلاةَ له ، ولا زكاةَ له» وقال ﷺ : « إذا جَمع اللهُ الأَولين والآخِرين يومَ القيامةِ يُرفعُ لكل غادرٍ لواء ، فقيل هذه غدرةُ فلانِ ابنِ فلانٍ » .

التعاطف والتراحم

الحمدُ للهِ نَحْمَدُه ونَستعينُه ، ونَستهديه ، ونَستغفرُه ، ونتوب إليه ونتوكل عليه ، ونسألُه العفْوَ والعافيةَ فى الدنيا والآخرة .

أَحمدُه سبحانه ، أَرسل نبيَّه محمدًا ﷺ ليتمِّمَ مكارمَ الأَخلاق ، ويدعو إلى التعاون والتكافلِ والتعاطف بين المؤمنين وأَجزل سبحانه الثواب لأَهل المروءات .

وأَشهد أَن لا إِلٰهَ إِلا الله وحده لا شريك له ولا معبود بحق سواه ، وأَشهد أَن حبيبنا ومعلمَنا وهادِيَنا محمدًا رسولُ اللهِ بَعثه ربُّه رحمةً للعالمين ، أَدَّبَه ربُّه فأَحْسَنَ تأْديبَهُ فكان قدوةً طيبةً لأَهل التوحيدِ الراغبين فى سعادةِ الدارين ، والفوز بالحسنيين .

اللهمَّ صلِّ وسلِّم وبارِكْ على نبيِّنا الأَمين وعلى آله وأَصحابه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين . .

أما بعــد : فيا أيها المؤمنون . .

عن أَبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : « مَنْ نَفَّس عن مُسلم كُرْبةً من كُرَبِ الدُّنْيا نفَّس اللهُ عنه كربَةَ من كُرَب يوم القيامةِ ، ومَنْ يسَّر على معسرٍ يسَّر اللهُ عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستَر مسلمًا ستره اللهُ فى الدنيا والآخرة ، واللهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عون أَخيه ، وَمَنْ سلَكَ طريقًا يَلتَمِسُ فيه علما سهَّل اللهُ له بِه طريقًا إلى الجنَّة ، وما اجتمعَ قومٌ فى بيتٍ من بيوتِ اللهِ يتلُون كتابَ اللهِ ويتدارسُونَه بينَهُم إلا نزلتْ عليهم السكينةُ ، وغَشِيَتهم الرحمةُ ، وحَفَّتهم الملائكةُ وذَكَرَهُم اللهُ فيمَنْ عندهُ ، ومن أَبْطأَ به عملُه لم يُسرِعْ به نسبُه » رواه مسلم بهذا اللفظ

أيها المؤمنون :

هذا الحديث الشريف من جوامع كلمه ﷺ وقد اشتمل على جملة من الفضائل ومكارم الأخلاق ، ومحاسن الآداب التى تُعد من خصال ذوى المروءات ، وصفاتِ المؤمنين الصالحين الذين يعرفون للأُخوَّةِ فى الدين حقَّهَا ، ويقدِّرون المروءةَ حقَّ قدْرِها ، ويستزيدون من الخيرات بفعل الصالحاتِ، ويرون للضعيف حقًّا من قُوَّتِهم ، وللفقير نصيبًا من أموالهم ، وللمغبونِ حظًّا من جاهِهم وسعيِهم .

فنى الحديث الشريفِ الترغيبُ فى تنفيسِ كُرباتِ المؤمنين ، والكربةُ هى الشدَّة العظيمةُ التى تُوقِعُ صاحبَها فى الكَرْبِ والضِّيق . وتنفيسُ الكربة : أن يخففَ عنه منها ، وأن يهوِّنَ من أثرِها على نفسِه ، فإذا فرَّجَها عنه كان جزاؤه أعظمَ لأن تفريجَ الكُرباتِ معناه إزالتُها فيزول هَمُّه وغمُّه ، ولذا جاءَ فى رواية ابنِ عمرَ : «ومن فرَّجَ عن مسلم فرَّجَ اللهُ عنه كربةً من كرب يوم القيامة » ذلك أن الجزاءَ من جنسِ العمل .

وفى الترغيب فى تفريج الكروب وإزالة الهموم عن المسلم يقول أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : « أَيُّما مؤمنٍ أَطعمَ مؤمنًا على جُوع أطعمه اللهُ يومَ القيامةِ من ثمارِ الجنة ، وأَيُّما مؤمنٍ سَقى مؤمنًا على ظمإٍ سقاه اللهُ يومَ القيامة من الرحيقِ المختوم ، وأَيُّما مؤمنٍ كسا مؤمنًا على عُرْى كساهُ اللهُ من خضرِ الجَنَّة » .

فطوبى لمن وقف إلى جانب أَخ له مسلم فى شدتِه ومحنتِهِ يخففُ عنه ويَمُدُّ له يدَه ، ويحملُ عنه بعضَ همومه ومتاعبِه إن ذلك من المروءاتِ التى يُجْزَلُ فيها الثوابُ ، وما دام العملُ خالصًا لوجه اللهِ فلن يضيعَ عند

الله عز وجل حتى إن العملَ الطيبَ ليقفُ إلى جوارِ صاحبِه يومَ الحشرِ يومَ تدنو الشمسُ من العباد ، جاءَ فى المسندِ من حديثِ عقبةَ بنِ عامر مرفوعًا : « كلُّ امرىءٍ فى ظِلِّ صَدَقَتِه حَتَّى يُفْصَلَ بَيْنَ النَّاسِ » .

وعن أبى مسعود رضى الله عنه قال : « يُحْشَرُ الناسُ يومَ القيامة أعرى ما كانوا قَط ، وأجوعَ ما كانوا قط ، وأظمأً ما كانوا قط ، وأنصبَ ما كانوا قط ، فمن كسا لله كساه اللهُ ، ومن أطعمَ للهِ أطعمَهُ اللهُ ، ومن سَقَى لله سقاه اللهُ ، ومن عفا لله أعفاه الله » .

عبـاد الله :

يقول الرسول ﷺ : « وَمَنْ يسَّر على مُعسرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه فى الدنيا والآخرة » .

وقد وصف الله عز وجل يوم القيامة بقوله : ﴿ المُلْكُ يومئذٍ الحقُّ للرحْمٰنِ وكان يومًا على الكَافِرين عسيرًا ﴾(١) وقال عزوجل: ﴿ فإذا نُقِرَ فى النَّاقُور * فذَٰلِكَ يومئذٍ يومٌ عَسِيرٌ * على الكافِرين غيرُ يَسِير ﴾ (٢).

فمن يسَّر على معسر من المؤمنين يسر الله أموره فى الدنيا ويسر عليه شدائدَ يومِ القيامة .

والتيسير على المعسر فى الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين : إمَّا بإمهاله حتى يتيسر له المال كما جاءَ فى قوله تعالى : ﴿ وإن كانَ ذُو عُسْرةٍ فَنَظِرَةٌ إلى مَيْسَرة ﴾ (٣) وإما بالوضع(٤) عن المدين

---

(١) الفرقان : ٢٦ (٢) المدثر : ٨ - ١٠ .
(٣) البقرة : ٢٨٠
(٤) الوضع عنه : التنازل عن جزء من الدين .

أى التصدُّق عليه ببعض الدين إذا كان المتصدق هو المُقرض ، أو بإعطائه ما يزول به إعساره ، وكلاهما له فضلٌ عظيم .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ : « كان تاجرٌ يُداينُ الناسَ، فإذا رأى مُعسراً قال لصبيانه تَجاوزوا عنه لعلَّ اللهَ أن يتجاوزَ عنَّا ، فتجاوزَ اللهُ عنه » .

وفى حديث أبى قتادة عن النبى ﷺ قال :

« مَنْ سَرَّه أن يُنْجِيَه الله من كُربِ يوم القيامةِ فَلْيُنَفِّسْ عن مُعسر أو يَضَعْ عنه » .

وفى المسند عن ابن عمر عن النبى ﷺ قال : « من أرادَ أن تُستجابَ دعوتُه أو تُكْشفَ كُربَتُه فليفرِّجْ عن مُعْسر » .

إن التفريج عن المعسر فيه تعاونٌ ، وفيه بِرٌّ ، وفيه صلةٌ فطوبى لمن جعله اللهُ أهلا للخير ابتغاءَ مرضاة الله .

أيها المؤمنون :

ومما جاءَ الترغيبُ فيه ، والحثُّ عليه السترُ على المؤمنين ، وعدمُ التحدثِ عن المساوىء ، أو ذِكْرِ العيوب ، أو تتبع عورات البيوتِ ، ففى الحديثِ : « وَمَنْ سَتر مسلمًا سَترهُ اللهُ فى الدنيا والآخرة » . .

وقد جاءَ عن بعض السلف قال : أدركتُ قومًا لم يكن لهم عيوبٌ فذكروا عيوبَ الناس فذكر الناسُ لهم عيوبًا ، وأدركتُ قومًا كانت لهم عيوبٌ فكَفُّوا عن عيوب الناسِ فنُسِيَتَ عيوبهُم .

وقد جاءَ الوعيد لمن يسعى لإشاعةِ السوءِ عن المسلم وتتبُّع عوارتِه للتحدث عنها فى قول النبى ﷺ :

« مَن سَتَرَ عورةَ أخيه المسلمِ سترَ اللهُ عورتَه يومَ القيامة ، ومن كشفَ عورةَ أخيه المسلمِ كشفَ اللهُ عورتَه حتى يفضحَهُ بِها فى بيتِه » .

وفى حديث أبى بردة أن النبى ﷺ قال :

« يَا معشرَ مَنْ آمنَ بلسانِه ولم يدخل الإيمانُ فى قلبه لا تَغْتابُوا المسلمين ولا تتبِعُوا عوراتِهم ، فإنه من اتّبع عوراتهم تتبّعَ اللهُ عورتَه ، ومَنْ تتبّعَ اللهُ عورتَه يفضحُه فى بيته » .

فطُوبى لمن شغله عيبُه عن عيوب الناس ، طُوبى لمن ينظرُ إلى نفسِه وصلاحِ بيته ، ويُشْغِلُ نفسَه بما يَعْنيه ، ويقف عند حدودِه ، ولا يعمل على إشاعة السوء فى المجتمع ولا يُسىء إلى مسلم مستورِ الحال ، ويكفّ أذاه ويُمسك لسانَه إلا عن خير . والرسولُ ﷺ يقول :

« ولا تَجَسّسوا (١) ولا تَحَسّسُوا (٢) » والتجسُّس البحثُ عن معايبِ الناس وأحوالِهم للتحدث عنها وهذا من أقبح الخصال ومداني الأخلاق .

يا عبـاد الله :

ثم حث الرسولُ ﷺ على السعى فى قضاء حوائج المسلم وهذا من التعاون على الخيرِ والبرِّ فيقول :

« واللهُ فى عونِ العبدِ ما كانَ العبدُ فى عونِ أخيه » .

فمَن سَعى فى حاجةِ أخيه المسلمِ باذلاً من وقتِه أو جاهِه أو مالِه حتى تُقضى له فإن اللهَ عز وجل يُيَسِّرُ له أمورَه ، ويُعينه ويسدِّده ويرشدُه

---

(١) ولا تجسسوا : أى لا تبحثوا عن عيوب الناس .

(٢) ولا تحسسوا : التحسس ورد بمعنى البحث والتتبع بغرض معرفة أحوال الناس وهم فى غفلاتهم وهو من الحس وهو الإدراك بإحدى الحواس الخمس .

وفى الحديث : « ومَنْ كانَ فى حاجةِ أخيه كان اللهُ فى حاجتِه » .

وفى فضل قضاء حوائج المؤمنِ والسعْى فيها جاءَ فى حديث ابنِ عمرَ مرفوعًا : « أفضلُ الأعمال إدخال السرورِ على المؤمن : كسوتَ عورتَه أو أشبعتَ جَوْعتَه ، أو قَضَيْتَ له حَاجَتَه » .

والنبى ﷺ وهو قدوتنا فى طريق الخير والبر والهدى كان يَخْلُفُ المسلمَ فى أهله عند سفره ، فيقضى لهم ما يحتاجون إليه ، ويحلب لهم بهيمتهم . . .

تقول بنتُ خباب بنِ الأَرَت : خرج خبّابٌ فى سَرِيَّةٍ ، فكان النبيُّ ﷺ يتعاهدُنا حتى يحلبَ عنزةً لنا فى جَفْنةٍ لنا فتمتلئُ حتى تَفِيضَ ، فلما عاد خَبَّابٌ حَلَبَها فعاد حِلابُها إلى ما كان .

وكذا كان يفعلُ أبو بكرٍ وعمرُ وغيرُهما من أجلَّاءِ الصحابةِ رضوانُ الله عليهم .

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « كلُّ سُلَامَى من الناسِ عليه صدقةٌ ، كلَّ يومٍ تطلعُ فيه الشمس تَعْدِلُ بين اثنين صدقةٌ ، وتُعين الرجلَ فى دابَّتِه فتحملُه عليها أو تَرْفَعُ له عليها متاعَهُ صدقة ، والكلمةُ الطيبةُ صدقةٌ ، وبكلِّ خطوةٍ تمشيها إلى الصلاةِ صدقة ، وتُميط الأذى عن الطريق صدقة » .

فاتقوا الله عباد اللهِ وتُوبوا إليه توبةً نصوحًا فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنبَ له .

الخطبة الثانية :

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على رسوله الأمين وعلى آله وأصحابه ومن اقتدى به وعمل بسنته إلى يوم الدين .

أمـا بعـد :

فقد جاء فى الحديث الذى استمعنا إليه اليوم ما يدلُّ على فضل العلم ومرتبةِ أهله ، وفضل السعى إلى طلبه ولنتدبَّرْ :

« وَمَنْ سَلَكَ طريقًا يَلْتَمِسُ فيه عِلْمًا سهَّلَ اللهُ لهُ بِهِ طريقًا إلى الجَنَّة ، وما اجتمع قومٌ فى بيت من بُيوت اللهِ يتلُون كتابَ اللهِ ويتدارسُونه بينهم إلا نزلتْ عليهم السكينةُ ، وغَشِيَتْهم الرحمةُ ، وحفَّتهم الملائكةُ ، وذكَرهم اللهُ فيمن عنده ، ومن أبطأَ به عملُه لم يُسْرِع به نسبُه » .

فطالبُ العلمِ من أعلى أهلِ الايمانِ منزلةً إذا هو أخلص فى طلبه وَجَدَّ فى مدارسته ، ورجا بطلبه وجهَ اللهِ لمنفعة نفسه ومنفعةِ أهله وأمته .

وأشرفُ عِلْم يَسْعَى الإنسانُ إلى طلبه هو ما يُعِين المسلمَ على معرفة ربِّه ، والعلم بما يليقُ به سبحانه وتعالى من صفاتِ الكمال ونعوتِ الجلال ، وحقوقِه سبحانه فى أعناق عباده .

ومن سعى لطالب العلم النافع مع الإخلاص والصدقِ مهَّد الله له طريقه إلى جنةِ الخُلد ، حيث النعيمُ الدئم ، وما أشْرَفَ مجالسَ العلمِ ، ومجالسةَ العلماء العاملين المخلصين ، فمجالسُ العلم التى يتدارس فيها أهلُها كتابَ الله ليعرفوا حدودَه ، ويقفوا على عِبَرِه وعظاتِه ، ويتفهموا شرائعَه وفضائلَه هذه المجالسُ تُظللها رحمة الله عز وجل ، ويشعرُ أهلها

ببرد الطمأنينةِ والقناعةِ ، وتجالسُهم الملائكةُ ، ويُباهى بهم اللهُ السميعُ العليم أهلَ السماء .

وإننا فى يوم القيامة لا نُسأَل عن الأَنساب والأَحساب، وإنما عن الأَعمال والأَقوال . . فمن عمِل خيرًا ، وقال حُسْنًا وعَدْلًا كان من الفائزين ، ومن ساءت سريرته ، وخبث عملُه ، وقبُح كلامُه وغلبت سيئاتُه حسناتِه فالويلُ له « وَمَنْ أَبْطَأَ به عمله لم يُسْرِعْ به نسبُه » .

فطُوبى للمتنافسين فى طاعة الله ، الراغبين فى عفوه ورحمته ، اللهم أَصْلِحْ لنا دينَنا الذى هو عصمةُ أمرنا ، وأَصلِحْ لنا دنيانا التى فيها معاشُنا ، واجعل الحياةَ زيادةً لنا فى كل خير ، واجعل الممات راحةً لنا من كلِّ شر يا أَرحمَ الراحمين .

اللهم زِدْنا ولا تُنْقِصْنا ، وأَكْرِمْنا ولا تُهِنَّا ، وآثِرْنا ولا تُؤْثِرْ علينا ، وبارِكْ لنا فيما أَعطيتَنا ، واجعلْنا من عبادك الصالحين .

اللهم لا تَدَعْ لهذا الجمعِ فى هذا اليومِ ذَنْبًا إلا غَفَرْتَهُ ولا هَمًّا إلا فَرَّجْتَهُ ولا دَيْنًا إلا قَضيتَه ، ولا حاجةً هى لك رضًا ولنا فيها صَلاحٌ إلا قضَيْتَها ويسرْتَها يا أَرحمَ الراحِمين ، ولا مَرِيضًا ولا مَرَضًا إلَّا شَفَيْتَه بعَفْوك ورحمتك .

اللهم انْصُر الإسلامَ وأَهلَه ، واخْذُل الباطلَ وأَهلَه واجمعْ كلمةَ المسلمين على المحبّةِ الخالصةِ ، وارضَ اللهمَّ عن أَصحابِ رسولِ الله ﷺ وصلِّ اللهم على الحبيب المصطفى وأَكثِروا من الصلاة عليه ﴿ إنَّ اللهَ وملائكَتَهُ يُصَلُّونَ على النَّبى يٰأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عليه وسَلِّموا تَسْليمًا ﴾

بِرُّ الوالدين وواجبنا نحوهما

الحمد لله الذى أنزل الناسَ منازلهم فى الرعاية والاحترام ، وجعل حقوق الوالدين فى أعلى مقام ، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمد أدّب أمته وأحسن تعليمها . . أحمد الله تعالى وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله جعل طاعة الوالدين سببا فى حبه ورضاه . . . وأشهد أن سيدنا محمدًا رسولُ الله ، خير مَنْ حفظ الحقَّ لأصحابه ورعاه . . . صلى الله على الحبيب الهادى محمد وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه . .

أما بعد :

فيأيُّها المسلم : يقول الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ، وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ،وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴾ (١).

أيها المسلم :

والداك سببُ وجودِك ، وأصلُ حياتك ، يحفظانك برعايتهما ، ويتعهدانك بالتربيةِ والتهذيبِ .

أمك حملتك فى بطنها جنينا ، وبرغم آلام الحمل كانت فرحةً بك قبل ولادتك . . ووضعتك وليدًا ، ومهما تقاسى من آلام الوضع فإنها تنسى عذابها برؤية وجهك ، وغذّتك بلبنها رضيعًا وحفظتك فطيمًا تسهر لمرضِكَ متخوفة لا تنام ، مشفقة عليك من العِلَلِ والأسقام . . . تفضِّلُك على نفسِها فى العطيةِ . . وتنسى نفسها فى سبيلك .

أما الأَب فإنه يجاهد الزمن ، ويسعى فى طلب الرزق لينفقَ عليك،

---

(١) الإسراء : ٢٣، ٢٤ .

ويسدَّ حاجتَك ويَمْضى ساعيًا عاملًا ، فإذا رجع إليك والاك بعطفه وحُبِّه وحنانِه وبِرِّه . . .

وضع الله عز وجل الرحمةَ فى قلب الوالدين من أجل وليدهما . . ولهذا لن نجدَ صلةً قويةَ البنيان ، متينةَ الأساس كصلة الوالدين بولدهما . لأنها صلةٌ طبيعيةٌ من صنع الله عز وجل تملأُ قلب الأُم والأَبِ برغمهما لا باختيارهما . . إنه الحنانُ الإلهىُّ من الوالدِ لولدِه . . . حنانٌ يظهر أثرُه فى تلك الرعايةِ الشاملةِ وذلك العطفِ الأبوىِّ ، وتلك الرحمة التى تملأُ قلبَ الأبوين . .

أيها المسلم :

إن فضلَ الوالدين عظيم . . لهذا قضى اللهُ فى محكم كتابه علينا بتوحيده وعبادتِه وحده لا نُشرك به أَحدا ، وقَرَنَ ــ سبحانه ــ الأَمرَ بتوحيده بالأَمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين وعدم الإساءة إليهما ولو بأَدنى كلمة تصدر من اللسان ، أَمرنا عز وجل بِحُسْن الخلقِ معهما ، وبلينِ الجانبِ ، وجميلِ القولِ ، وخفضِ الجَناح تواضعًا ورِفْقًا بهما وبخاصة إذا تقدمت بهما أَو بأَحدِهما السنُّ ، واحتاجا إلى ولدهما الذى كان بالأَمس أفقر خلقِ الله إليهما .

هيا أيها المسلم :

إن عليك لوالديك دَيْنًا لا يمكنك سدادُه مهما بالغتَ فى إكرامهما والتودُّد إليهما ، ورعايةِ جانبهما . إن لهما عليك حقوقًا واجبةَ الأَداءِ . أَمر بها الشرع ، وأَقرَّها العقلُ إن من حقهما عليك أَن تطيعَهُما ، وتحترمَهما ، وتساعدَهما بمالك إن احتاجا ، وأَن تتولَّى خدمتَهما إن ضَعُفا . . وأَن تلازمهُما فى المرض ، وتجتهدَ فى إرضائِهما ، وأَن تُدخِلَ

السرورَ عليهما بإظهارِ حُبِّك لهما ، وسكُونِك عند غضبهما عليك .

فمهما خدمتهما وأرضيتهما فلن تكافئهما بعمل أو تجزيَهُما بخدمة .

رُوى أن ولدًا اشتكى إلى رسول الله ﷺ سوءَ خُلق أُمِّه فقال عليه السلام : « لَمْ تَكُنْ سيئة الخُلُقِ حينَ حمَلَتْك تسعة أشهر ؟ قال الابنُ : إنها سيئةُ الخُلق . . قال عليه السلام : لم تكن كذلك حين أرضعتكَ حَوْلَيْن . . ؟ قال الابنُ : إنها سيئةُ الخُلق . . قال عليه السلام : لم تكن كذلك حين أسهرت ليلَها وأَظْمَأَت نهارَها ؟ . . . قال الابنُ : لقد جازَيْتُها . . قال : ما فعلتَ؟ قال : حججتُ بها على عاتِقى : قال عليه السلام : ما جَزَيْتَها ولو طَلْقَة » .

أيها المسلمون :

إن الله أوجب علينا طاعةَ الوالدين ، والرفقَ بهما ، ولينَ الجانب معهما . . فيجب علينا أن نحرصَ على رضا الوالدين .

فإن رضا الوالدين سعادةٌ فى العاجل والآجل ، كما يجب علينا أن نحذرَ غضبَ الوالدين ، فإن غضب الوالدين شقاءٌ فى الدنيا ووبالٌ فى الآخرة . . قال رسولُ الله ﷺ :

« . . . رِضَا اللهِ فى رِضا الوالدِ ، وسخطُ اللهِ فى سخطِ الوالد . . »
والمراد بالوالد الأُم والأَب . .

انظر – أيُّها المسلم – إلى ديننا الحنيف يأمر ببرِّ الوالدين وإن كانا كافرين أو مشركين ، ولم يجعل من الاختلاف فى العقيدة والدين سببا لهجرهما وقطيعتهما ، فلهم دينُهم – إن كانا على غير الإسلام – ولنا دينٌ . . ولو كانا مخالفين للدين فإن الإسلام لا يبيحُ للمسلم الإساءة إليهما أو تركَ البرِّ والإحسانِ إليهما قال جل شأنه : » .

﴿ . . . وَإِنْ جاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلم فلا تُطِعْهُمَا ، وصَاحِبْهُمَا فى الدُّنيا معْرُوفًا ﴾ . (١) .

أى لا طاعة لهما فى معصية الله . . لا طاعةَ لهما إن طلبا من ولدهما المؤمِن الإشراك بالله . . ولكنّ طاعتهما فيما ليس فيه معصية الله عز وجل . . ينبغى أن يصاحبهما الولدُ بالمعروف مع الإحسانِ إليهما والبرِّ بهما وطاعتهما وخفض الجَناح لهما .

وعن أسماء بنت أبى بكر رضى الله عنهما قالت : « قَدِمت علىَّ أُمِّى وهى مشركةٌ فى عهد رسول اللهِ ﷺ فاستفتيتُ النبىَّ ﷺ قلت : قَدِمَت علىَّ أُمِّى وهى راغبةٌ ـ أَفَأَصِلُ أُمِّى ؟ قال : نعم صِلِى أُمكِ » .

وفى هذا تأكيد لحقِّ الوالدين فى حُسن الصلة والبِر .

إن من برِّ الوالدين الدعاء لهما بعدموتهما ، والوفاء بعهدهما بإنفاذه . . وإكرامَ أصدقائِهما . . وصلةَ أرحامهما . .

فعن مالك بن ربيعة قال : « . . . بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ جاءه رجلٌ فقال : يا رسولَ الله هل بَقِىَ علىَّ من برِّ أبوىَّ شىءٌ أبرُّهُمَا بِه بعدَ وفاتِهما ؟ قال : نعم . . الصلاةُ عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ عهدِهما وإكرامُ صديقِهما وصلةُ الرحمِ التى لا تُوصَلُ إلا بِهما » .

فاتَّقوا الله ـ عبادَ الله وَبِرُّوا آباءكُم تَبَرُّكم أبناؤُكُم وتُوبوا إلى الله واطلبوا منه العونَ على طاعته .

---

(١) : لقمان : ١٥ .

النميمة والنمام دونهما سُمُّ الأفاعي

عن حذيفةَ بن اليمانِ رضى اللهُ عنه قال : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ :
« . . . لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ نمَّام . . » .

أيها المؤمنون :

اللهُ عزَّ وجل أَمرَ عبَادَه بالتوادِّ والتناصرِ ، ودعا المؤمنين للتآلف والتآزرِ وحذرهم الشحناء والبغضاء ، ونهاهم عن الخصامِ والتنافر ، كى لا تضيعَ قواهم ، ولا تتبددَ جهودُهم ، ولا تَفْنَى أَعمارهم فى تنابذ ، وتشاجرٍ ، وعداواتٍ . . وإن أكبرَ مِعْوَل يهدمُ وحدةَ الجماعةِ هو عملُ النَّمام . . ذلك لأَن النمام هو ذلك الذى ينقلُ الحديثَ بينَ الناسِ على جهة الإفسادِ بينهم ، وإيغارِ الصدورِ ، والتفريقِ بين الأَحبة ، وتمزيقِ أَواصرِ الأُلفة ، وتقطيعِ حبالِ المودةِ ، والنمامُ بعمله ذاك يولِّدُ النفور ، ويوقدُ نارَ العداواتِ . . وما أَقبحه من عمل . . وما أَدنأَ الإنسانَ الذى يُقدِم عليه . . وما أَلأَم من يتصف بتلك الخصلة النميمة . فالنميمةُ آفةٌ أَشدُّ خطرا من جراثيم الأَمراض ، وأَفتكُ من الوباء . . لأَنها تقلبُ سعادة المتحابّين شقاءً ، وتباعدُ المتقاربين ، وتباغض الأَهلَ ، وتُثِقلُ النفوسَ بالهموم ، وتملأُ الصدورَ بالسموم . . إلا من رَحِم ربُّك .

لهذا كان المشاءون بالنميمة شِرارَ الناسِ ، يتحاشاهم العقلاءُ كما يتحاشَوْن النارَ المحرقةَ ، ويتقون أَخطارهم ، كما يلجئُون إلى الوقايةِ مِن الأَوبئة الفتاكة .

ولنتدبر قولَ الصادقِ الأَمين ﷺ : « . . أَلا أُخبرُكم بشرارِكم . . ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : مِنْ شِرَارِكُم المشَّاءون بالنميمةِ : المُفْسِدُون بينَ الأَحبةِ ، الباغونَ العيوب . . » .

حقًّا . . إن النَّمام من شرارِ الناس ، فهو لصٌّ بارعٌ يعرفُ كيف يسترقُ أسرارَ الناس ، ويلتمسُ عُيوبَهم ، وهو محتالٌ مخادعٌ يُزَيِّن الأقوالَ لِيَضَعَ السُّمَّ فى الصدورِ ، فأَنت ترى العائلةَ تعيشُ فى راحة وسلامٍ ، مؤتلفًا أَفرادُها مجتمعًا أَبناؤها يضمهم الصفاءُ ، ويشملهم الهناءُ ، فإذا تَسَرَّب النَّمَّامُ إلى حياتِهم، ومشى بينهم بِسَعَايتِه ، وتحايلَ عليهم بوقيعتِه ، فإذا بهم ينقلبُ هناؤُهم شقاءً ، وصفاؤُهم كرهًا وعداءً ، وإذا بالأَخ ينفصلُ عن أَخيه والولدُ عن أَبيه ، بل الرجلُ من زوجته . . لهذا كان النمَّام ملعونًا على لسانِ خاتَم الأَنبياء الذى لا ينطقُ عن الهوى ولنتدبر ما رواه أَبو هريرة رضى الله عنه قال :

قال رسولُ الله ﷺ : « . . ملعونٌ ذو الوجهين ، ملعونٌ ذو اللسانين ، ملعون كلُّ شغَّارٍ ، ملعونٌ كلُّ قتَّاتٍ ، ملعونٌ كل منَّانٍ . . »

ومن حديث آخر : « . . ومن كان ذا لسانين فى الدنيا فإن الله يجعلُ له لسانين من نار يومَ القيامة . . » .

وذو اللسانين هو الذى يتكلم مع هؤلاءِ بكلام ، وهٰؤلاء بكلامٍ ، وهو يعنى صاحب الوجهين ، والشغَّار : هو المحرِّشُ بين الناسِ يُلقى بينهم بالعداوة ، والقتَّات: النَّمَامُ يسمع حديثَ القوم فينقلُه إلى الآخرين بقصدِ الإفساد ، وقد جاءَ فى الحكمة : النميمةُ سيفٌ قاتِلٌ .

وقال بعضُ البلغاء : النميمةُ دناءَةٌ ، والسّعَايةُ رداءَةٌ ، وهما رأْسُ الغدرِ ، وأَساسُ الشرِّ ، فتجنبْ سُبُلَهُما ، واجتنب أَهلهما .

إن النمَّام خبيثُ القلبِ ، حُلْو الحديثِ ، وعمله مما تعجزُ عنه الشياطينُ ، لأَن عملَ الشيطان بالوسوسة ، وعملَ النمام بالمواجهة ، يُعْجِبُ السامعَ قولُه إن يَفْطِنْ له ، وهو لا يدرى أَنه كمن يقدِّمُ السُّم القاتِلَ فى العسل : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُه فى الحياةِ الدُّنْيا ،

ويُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الخِصَام * وإِذَا تَوَلَّى سَعَى فى الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيها ، ويُهْلِكَ الحَرْثَ والنَّسْلَ واللهُ لا يُحِبُّ الفَسَاد .. ﴾ (١) .

ولقد تبرأ الصادقُ الأمينُ ﷺ من الحاسدِ والكاهنِ والنمَّام فقال :

« ليسَ منِّى ذو حَسَدٍ ولا أنا منه ، وليس منِّى ذو كهانةٍ ، ولا نَميمة ولا أنا منه ثم تلا قولَه تعالى :

﴿والَّذِينَ يُؤْذُونَ المُؤْمِنِين والمُؤْمِنَاتِ بِغيْرِ مَا اكتَسَبُوا فَقَد احْتَملُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا . . ﴾ »(٢) .

إن الناسَ لا يستقيم لهم أمر إلا بالتعاون ، ولا ينجح لهم عملٌ إلا بالتكاتُف والتسانُد ، ولا تعاونَ إلا عن مَحبَّةٍ ، والتسانُد أثر الأُلفة والمودة ، وإن الخيرَ الذى تُنْتِجُه الجماعةُ المتآلفة المتحابة ، أنفع مما ينتجُه الأفرادُ المتباعدون ، وإن القوة المجتمعةَ خيرٌ من القُوى المفكَّكة . .

لهذا فإن دينَنا الحنيفَ ، يأْمُرنا بالمحبةِ وقوةِ الرابطةِ ، وينهانا عن التنازعِ ، والتفرقِ ﴿ . . . وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذهَبَ رِيحُكُم ﴾ .(٣) .

وقال سبحانه : ﴿ . . واعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا ولا تَفرَّقُوا ﴾ . . (٤) .

وأمرنا دينُنا الحنيفُ بجمعِ القلوبِ ، والإصلاح بين الناس ؛ لتظلَّ الجماعةُ المسلمة قويةً . .

قال تعالى : ﴿ . . إنما المؤْمنونَ إخوةٌ فأَصْلِحُوا بينَ أَخَوَيْكُم ﴾(٥) . .

وقال الهادى الحبيب ﷺ : « ألا أُخبِرُكُم بأفضلَ من درجةِ الصيامِ والصلاةِ والصدقةِ ؟ قالوا : بلى يارسولَ اللهِ .قال : إصلاحُ ذاتِ البَيْنِ»

(١) البقرة : ٢٠٤ ، ٢٠٥ (٢) الأحزاب : ٥٨ .
(٣) الأنفال : ٤٦ (٤) آل عمران : ١٠٣ .
(٥) الحجرات : ١٠ .

ولما كان النمام مصدرَ إفساد ، يغرِسُ الأَحقادَ بين العبادِ ، ويزرعُ الأَضغانَ فى قلوب المتصافين ، فقد نهى اللهُ عز وجل عن سماع قولِهِ ، وتصديقِ كلامه حيث قال سبحانه :

﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ * هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ * مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴾(١) .

وحذَّرنا الهادى الحبيبُ ﷺ من النميمة ، وأَخطارها ومن إفسادِ العلاقات بين الناس ، وبيّن لنا عليه السلامُ أَن السعْىَ بين الناسِ بالفسادِ يَذْهَبُ بدينِ الساعى النمَّام . فقال ﷺ : « إيَّاكُم وسوءَ ذاتِ البَيْنِ ، فإنها الحالقةُ ، لا أَقولُ حالقة الشعرِ ولكن حالقة الدِّين » . فنعوذ باللهِ من القيلِ والقالِ ، وفتنةِ النمَّامين ، الذين لا يعيشون إلا فى الماءِ العكر ، ولا تطيب لهم المجالسُ إلا بإغراءِ العداوةِ بين المسلمين ، أُولئك شِرارُ الخلقِ عند الله .

إن واجبَ المؤمنِ أَلَّا يصدقَ تَمَامًا ، لأَن النمام فاسقٌ : وهو مردودُ الخبرِ ، كما ينبغى أَن ينهاه عن ذلك وينصحُه ، ويُقَبِّح فعلَه ، وأَن يَبْغَضَهُ فى الله عز وجل ، فإنه بغيضٌ عندَ الله والبُغْضُ فى الله واجبٌ — إلَّا إن تاب وأَقلع — كما ينبغى أَلَّا يرضى المؤمنُ لنفسه ما يستقبحه من عملِ النمَّام ، فلا يحكى نميمتَه ولا ينقلُ أَقوالَه . . وعلى المؤمنِ أَلَّا يظنَّ فى المنقول عنه السوءَ لقوله تعالى : ﴿ اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾(٢) .

أَلا ما أَكرم المؤمنَ الذى يصون لسانَه ، ويحفظُ سمعَه ، ويتقى اللهَ ربَّه ويراقبُ مولاه فى كلِّ قولٍ وعملٍ ، ويحاسبُ نفسَه قبلَ أَن يُحاسب.

---

(١) القلم : ١٠ و ١٢ .
(٢) الحجرات : ١٢ .

إن النميمةَ حرام بإجماع المسلمين ، وقد تظاهرت على تحريمها الأَدلة من الكتابِ والسنة ، والنميمةُ قبيحةٌ وإن كانت صحيحة ، والساعى بالإفساد ملعون ومطرود من رحمة الله والعياذُ بالله .

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ مَرَّ بقبرين فقال: « إنهما يُعَذَّبان ، وَمَا يُعَذَّبانِ فِى كَبِير . . بَلَى إنه كَبِيرٌ ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فكان يَمْشى بالنميمة ، وأَمَّا الآخَرُ فكان لا يَسْتَبْرِى مِنَ بَوْلِهِ » . ومعنى وما يُعذَّبان فى كبير ، أى ليس بكبير تركُه عليهما ، أو ليس بكبيرٍ فى زعمهما .

وجاء فى حديث آخر : « إن النميمةَ والحقدَ فى النارِ لا يجتمعان فى قلبِ مسلمٍ » .

فاتقوا الله عباد الله واخشوه ، واذكروا أنه سبحانه يُحصى علينا كلَّ قول وعمل ، وأَنَّ الإنسانَ مجزىٌّ بالإحسان إحسانًا وبالسوء سوءًا ، وتوبوا إليه فإنه هو التواب الرحيم .

طوبى لمن طاب كسبه

أمـا بعـد :

فقد قال الله تعالى من سورة النساء : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِّنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾(١) .

يا أتباع رسول الله ﷺ :

ينهى اللهُ عز وجل فى هذه الآيةِ عن أَخْذِ أموالِ الناسِ بغيرِ حَقٍّ ، أو الحصولِ عليها من غيرِ وجهٍ مشروع ، وخَصَّص الأَكْلَ بالذكرِ فى الآية لأنه أَغلبُ وجوهِ الانتفاعاتِ ، وأَكْلُ أموالِ الناس بالباطل يشملُ كلَّ ما أُخِذَ بغير حقٍّ كالمال المغصوب ، والسرقةِ وشهادةِ الزُّور ، وما اقتطعه المرءُ من مالِ أخيه باليمينِ الكاذبةِ ، ويدخلُ فى ذلك ما أُخِذ على وَجْهِ الهَزْلِ واللعبِ كالذى يُؤخَذ فى القمارِ والملاهى ونحوِهما ، وكذلك ما أُخذ بالمعاوضات الفاسدةِ مثلِ ثَمَنِ لحمِ الخنزيرِ والخمرِ والميتةِ ونحوِها .

وفى صحيح البخارى أن رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ رجالًا يتخوَّضون فى مالِ اللهِ بغيْرِ حقٍّ فلهُمْ النارُ يومَ القِيامةِ » .

وبَيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ التى استمعنا إليها أَن التجارةَ ليست من جنسِ الباطلِ ، بل هى عملٌ مباحٌ مشروعٌ ، وطريقٌ للكسبِ الحلال الطيِّبِ ، حيث تتمُّ المبادلاتُ فيها بالتراضى بين المتعاقدين عن طيبِ نفسٍ على وجهٍ يُلْزِمُ فيه المتعاملان أنفسَهُمَا بحدود الله . ﴿ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُم ﴾ .

---

(١) النساء : ٢٩ .

والإسلامُ يحثُّ على تقليبِ البضائعِ ، وتبادُلِ السلعِ والخيراتِ ، وذلك بالعملِ بالتجارةِ إذ إن الناسَ لا غِنى لهم عنها ، بل إن اشتغالَ فريقٍ من الناسِ بالتجارةِ وجَلْبِ البضائعِ يُعَدُّ أمْرًا واجبًا ، يتحتَّمُ عليهم ما دامَ أمرُ المعاشِ متوقفًا عليه .

ولما كانت التجارةُ تَمَسُّ حياةَ الناسِ لَزِمَ أن يكونَ القائمون عليها والمشتغلون بها صادقين ، أُمناء ، أَوفياء ، صالحين ، وقد جاءت البُشرى على لسانِ الصادقِ الأمين ﷺ للتاجر الأَمينِ المسلمِ الصدوقِ بأَن له يومَ القيامةِ منزلةً عاليةً ، فقال : « التاجرُ الصَّدوقُ الأَمينُ مع النبيِّين والصِّدِّيقينَ والشهداءِ » . وفى الحديث : « التاجرُ الصدوقُ الأَمينُ المسلمُ مع الشهداءِ يومَ القيامةِ » .

ومما يؤكِّد فضلَ التِّجارةِ أن صفوةَ اللهِ من خَلْقِه النبيَّ محمداً ﷺ كانَ من أَهلِ بيتِ التجارةِ ، واشتغلَ ﷺ فترة من عُمره تاجرًا ، كما كان كبارُ الصحابةِ من التُّجارِ قبلَ الإسلامِ وبعده ، ومنهم أبو بكر وعثمان وغيرُهما .

أيها المؤمنون :

إنَّ رِبْحَ التاجرِ الأَمينِ الصادقِ من أَطيبِ الكسبِ ، وعملَه من أشرف الأَعمالِ ، بهذا أَخبر الحبيبُ الهادى ﷺ ، فقال مُحَرِّضًا التجار على الأَمانة والوفاء بالوعد وتَحَرِّى الكسبِ الحلال : « إنَّ أَطيبَ الكسبِ كسبُ التجارِ الذينَ إذا حَدَّثوا لم يَكْذِبُوا وإذا ائْتُمِنُوا لم يَخُونوا ، وإذا وَعَدُوا لم يُخْلِفُوا ، وإذا اشْتَرَوْا لم يَذُمُّوا ، وإذا باعُوا لم يُطْرُوا ، وإذا كانَ عليهم لم يَمْطُلوا وإذا كانَ لَهُمْ لم يُعَسِّروا » .

وفى هذا الحديثِ يمدحُ الرسولُ ﷺ الكسبَ الحلالَ الطيبَ ويمدحُ التاجرَ الصادقَ الذى لا يكذبُ والأَمينَ الذى لا يخونُ ، والوفىَّ

الذى لا يُخْلِفُ الوعدَ ، والمتحرِّىَ الحلالَ فى معاملاته ، فهو لا يَذُمُّ سِلعةً يُريد أن يشتريَها ليبخسَها ويُلْجِىءَ صاحبَها إلى التخلُّصِ منها يعملُ ذلك تغريراً وخِداعاً ، كما يمدح النبىُّ ﷺ التاجرَ الذى إذا باع سلعةً لا يبالغُ فى الثناءِ عليها ، وتحسينِها للمشترى ليغُشَّه ، ويدفعَه إلى شرائِها ، ومن صفاتِ التجارِ الأُمناءِ أنهم يُؤَدُّون الحقوق ولا يُؤَخِّرونها ، وإذا كان لهم دَيْنٌ على مُعْسِرٍ غيرِ قادرٍ على الوفاءِ أمهلوه حتى يتيسرَ حالُه .

ويدعو الإسلامُ التاجرَ إلى أن يبين ما قد يكون فى سلعتِه من عيوبٍ ليبارِكَ اللهُ له فى ثمنِها وكسبِها ، والرسولُ ﷺ يقول : « البَيِّعَان بالخيار ما لم يتفرَّقا فإن صَدَقَا وبَيَّنا بُورِك لهما فى بَيْعِهما ، وإن كَتَمَا وكَذَبا مُحِقَتْ بركةُ بيْعِهما » .

كما حذَّر الإسلامُ التجارَ من الحلِفِ على السلعة ، وجاء الوعيدُ الشديدُ للتاجر الذى يَتَّخذُ اليمينَ الكاذبةَ وسيلةً يستعينُ بها على كسبِ ثقةِ المشترى بقصدِ التغرير به ليَكْثُرَ بيعُه ، وتروجَ بضاعتُه . وفى الحديث : « اليمينُ الفاجرةُ منفقَةٌ للسلعةِ ممحقةٌ للكسبِ والبركَة » .

وكما تَمْحَقُ اليمينُ الكاذبةُ كسبَ التاجرِ وتُزيلُ عنه البركة، فإنَّ اللهَ يَغْضَبُ عليه ويطرُده من رحمته . وفى الحديث : « ثلاثةٌ لا يُكَلِّمُهم اللهُ يومَ القِيامةِ ولا ينظرُ إليهم ، ولا يُزَكِّيهم ، ولهُمْ عذابٌ أليمٌ : المُسْبِلُ إزارَهُ ، والمنَّانُ الذى لا يُعطى شيئًا إلا مَنَّهُ ، والمُنْفِقُ سِلعتَه بالحَلِفِ الكاذبِ » .

وعن عبد الله بن أبى أوفى : أن رجلا أقام سلعةً فى السوق فحلفَ لقد أُعْطِىَ بها ما لم يُعطَ ، ليُوقِعَ فيها رجلًا من المسلمين فنزلت : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وأيْمَانِهِم ثَمنًا قَلِيلًا أُولئكَ لا خلاق لَهُمْ

فى الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُم اللهُ ولا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ القِيامَة ولا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(١) .

أيها المؤمنون :

إن التاجرَ يَنْبَغى له أَن يُمسك لِسانَه عن الحَلِفِ بالله ، وأن يَلْزَمَ الصدق والأَمانةَ والبيانَ والوضوحَ والوفاءَ والعدلَ دون اللجوءِ إلى الحَلِفِ أو الخداعِ . . وقد جاءَ النَّهْىُ عن كثرةِ الحَلِفِ ولو كان الحالفُ صادِقًا ؛ فقد أَمر اللهُ المؤمنين بحفظ أَيمانهم ، والرسول ﷺ يقول : « إِيَّاكُمْ وكثرةَ الحَلِفِ فى البيعِ ، فإنه يُنْفِق ثُمَّ يَمْحَقُ » .

إن العملَ الشريفَ والكسبَ الذى يأْتى عن طريقِ حلالٍ يكفى المرءَ به نفسَه وعيالَه مهما كان قليلا أَفضلُ من الطمعِ فيما ليس للإنسان حقٌّ فيه ، ولذا أَثنى الإِسلامُ على المجتهدين فى السعى من أَجل الحلالِ الطيِّبِ وذمَّ الحرامَ ومصادرَه ومواردَه ، وللإِمام أَحمد بإسناد جيد : « والذى نفسى بيدِه لأَنْ يأْخذَ أَحدُكم حَبْله فيذهبَ به إلى الجبل فيحتطبَ ثمّ يأْتى فيحملَه على ظهرِه فيأْكل خيرٌ له من أَن يجعلَ فى فيه ما حَرَّمَ اللهُ عليه » .

وفى البيهقى : « الدُّنيا خَضِرَةٌ حُلْوةٌ من اكتسبَ فيها مالًا من حِلِّه وأَنفقَهُ فى حَقِّه أَثابه اللهُ عليه وأَوْرَدَهُ جَنَّتَهُ ، ومن اكتسب فيها مالًا من غيرِ حِلِّه ، وأَنفقه فى غيرِ حقِّه أَورده اللهُ دارَ الهوانِ ، وَرُبَّ مُتَخَوِّضٍ فى مال اللهِ ورَسولِهِ له النارُ يومَ القِيامةِ » . يقولُ اللهُ تعالى : ﴿ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً ﴾(١) .

فطُوبى لمَن طاب كَسْبُه ، وصَلَحَتْ سَرِيرَتُه وكَرُمَتْ علانيتُه ، وعَزَلَ عن الناسِ شَرَّه . طوبى لمن عمل بما علم ، واتقوا الله — عبادَ الله — واستعينوا به سبحانه فى كل أُموركم ، وأَحسنوا التوكلَ عليه ، وتوبوا إلى الله توبةً نَصُوحا ، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له .

---

(١) آل عمران : ٧٧ (٢) الإسراء : ٩٧ .

الربا وآثاره السيئة

أما بعد :

فقد قال الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِين * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾(١) .

أيها المؤمنون :

إن الله سبحانه وتعالى بعباده رءُوف رحيم ، ومن رحمته تعالى بهم أن أرسلَ رسوله محمداً ﷺ ، وأنزل عليه القرآنَ الكريمَ هدايةً ونوراً ، يبينُ لهم الخيرَ والشرَّ ، والنافعَ والضارَّ ، والحلالَ والحرامَ ، ليَحْيَوْا حياةً طيبةً مباركةً إن هم طبقوا أَحكامَه ، واستقاموا على منهجه .

ومن رحمة اللهِ بعبادِهِ أَنه سبحانه أَحلَّ لهم الطيباتِ لينتفعوا بها ، وحرَّمَ عليهم الخبائثَ ، وأَباح لهم التوسُّعَ فى كسبِ المالِ من طريقِ حلالٍ ، وبالوسائل المشروعةِ ، وحرَّم عليهم الرِّبا لأَن الكسبَ عن طريق الرِّبا كسبٌ خبيثٌ ، يدنِّس الأَموالَ ، ويذهبُ بالبركةِ ، ويدلُّ على الجشع ، ويعودُ على المتعاملين به بأَفدح الأَضرار ، وأَقبح العواقبِ فى الدنيا والآخرة .

وكم كان الرِّبا سبباً فى خراب بيوت كانت عامرةً .. وكم أَرهق نفوساً وأذلها تحت وطأَةِ الأَرباحِ التى تتضاعفُ ، فيزيدُ الهمُّ ، وتتضاعفُ المتاعبُ والآلام .

---

(١) البقرة ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

لهذا شدد اللهُ الوعيد على الرِّبا ، وجعله سبحانه وتعالى من أفحش الخبائث ، وأكبرِ الكبائر ، ونفَّر الناسَ من تعاطيه بأبلغِ الزواجرِ ، فقال تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ﴾(١) .

وفى هذا تهديدٌ شديدٌ ، ووعيدٌ أكيدٌ ، لمن استمرَّ على تعاطى الرِّبا ، والتعاملِ به ، بعد الإنذار ، وأىُّ زاجرٍ أبلغُ من جَعْلِ المرابى محارَبًا من الله ورسوله ؟ . ذلك لأنه شوَّه وجهَ المعروفِ بأخذه الزيادةَ عن رأس ماله بغيرِ حقٍّ ، وقطع يدَ التعاون بين المؤمنين الذى أمر الله به فى قوله : ﴿ وتَعَاوَنُوا عَلَىٰ البِرِّ والتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَىٰ الإِثْمِ وَالعُدْوَانِ ﴾(٢) .

إن الذين يأكلون الرِّبا ، ويتعاملون به ، إنما يرتكبون كبيرة من الكبائر ، وكسبهم منه كسبٌ خبيثٌ لا بركة فيه ﴿ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبا ﴾(٣) أى يُذهِبُ بركتَه وإن كان كثيراً . وعن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، عن النبىِّ ﷺ قال : « ما أَحَدٌ أكثرَ من الرِّبا إلَّا كان عاقبةُ أمره إلى قلة » . وفى لفظ له قال : « الرِّبا وإن كثُر ، فإن عاقبتَه إلى قُلٍّ » . أى عاقبتَه إلى فقر ، لأن الله تعالى ينزع منه البركة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى قوله تعالى : ﴿ يَمْحقُ اللهُ الرِّبَا ﴾(٣) قال : لا يقبل منه صدقةً ، ولا حجًّا ، ولا جهاداً ، ولا صلة .

وروى أن رجلا جاء إلى مالك بن أنس رضى الله عنه فقال : « يا أبا عبد الله ، إنى رأيتُ رجلًا سكرانًا ، يتعاقر ، يريد أن يأخذ القمر ، فقلتُ : امرأتى طالق إن كان يدخلُ جوفَ ابن آدمَ أشرُّ من الخمر ، فقال مالكٌ : ارْجعْ حتى أنظرَ فى مسألتك ، فأتاه من الغد ،

---

(١) البقرة : ٢٧٩ .

(٢) المائدة : ٢

(٣) البقرة : ٢٧٦ .

فقالَ له : ارْجعْ حتى أنظر فى مسألتك ، فأتاه من الغد . فقال له مالك : امرأتُك طالقٌ ، إنى تصفحتُ كتابَ الله ، وسنة نبيِّهِ ، فلم أرَ شيئًا أشرَّ من الرِّبا ، لأن اللهَ أذِن فيهِ بالحرب » .

وبلغ أمَّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها من امرأة من أهل الكوفة أنَّ زيدَ بنَ أرقم اشترى منها ، وباع لها ما اشتراه بثمن أقلَّ من ثمن الشراءِ ، وكان زيد اشترى على أجل ، وباع لها نقداً ، فقالت عائشة للمرأة : بئسما شريتِ ، وما اشتريتِ ! . . فأبلغى زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب . فقالت لها : أرأيت إن لم آخذ منه إلَّا رأسَ مالى ؟ قالت عائشةُ : ﴿ فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّنْ رَبِّهِ فَانْتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ ﴾(١) . وما أفتت عائشة بذلك إلَّا لما فى هذا التعامل من تحايل يؤدى إلى الوقوع فى الرِّبا المحظور .

أيها المؤمنون :

إن الله عز وجل أحل لعباده البيع ، وحثَّهم على الكسب ، وتحصيل المال من وجوهه المشروعة ، وما أكثَرَ ميادينَ الكسبِ الحلالِ ، والربحِ الطيِّبِ . أمَّا التعاملُ بالرِّبا فإنه يعودُ بأفدحِ الأضرارِ على المتعاملين به فى الدنيا ، مع ما أوعد الله به من عقابٍ شديدٍ ، وعذابٍ أليم لمن يتعاملون بالربا ، ثمّ لا يتوبون منه توبة نصوحا بشروطها ، فمن أكَلَ الرِّبا بُعث يوم القيامة مجنونا يتخبط ! فمن حديث عوف بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إياك والذنوبَ التى لا تُغفَرُ ، ثمّ ذكر منها : « وآكلُ الرِّبا ، فمن أكل الربا بُعث يومَ القيامةِ مجنونًا يتخبَّطُ ، ثمّ قرأ : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾(١) .

---

(١) البقرة : ٢٧٥ .

(١) البقرة : ٢٧٥ .

والرِّبا من السبع الموبقاتِ التى أمرنا الهادى ﷺ باجتنابها ، والحذرِ منها ، لأنها تجلبُ لصاحبِها غضب الرب ، وتسببُ هلاكَه ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه ، عن النبى ﷺ قال : « اجتنبوا السبعَ الموبقاتِ ، قالوا : يا رسول الله ، وما هن ؟ قال : الشركُ بالله ، والسحرُ ، وقتلُ النفس التى حرَّم اللهُ إلَّا بالحق ، وأكْلُ الربا ، وأكلُ مال اليتيم ، والتولِّى يوم الزحف ، وقذْفُ المحصناتِ الغافلاتِ المؤمنات » .

وقد دعا رسولُ الله ﷺ باللعن ، والطرد من رحمة الله على كل الأطراف التى تشترك فى عقد الربا . . لعن آكلَه ، ومُوكلَه ، والذى يشهدُ على العقدِ ، والذى يكتبه . . فعن ابنِ مسعود رضى الله عنه قال : « لعنَ رسولُ الله ﷺ آكلَ الرِّبا ومُوكله » .

وعن جابر رضى الله عنه قال : لعن رسولُ الله ﷺ آكلَ الربا ، ومؤكلَه ، وكاتبَهُ ، وشاهِدَيْه ، وقال : هم سواء . وآكله هو الآخذ للزيادة ، ومؤكله هو الدافع لها .

أيهـا المؤمنون :

إن المؤمنَ يرضى بما قسم اللهُ ، ويُذعنُ لأمره ، ويطيعُه سبحانه ، ويقفُ عند حدودِه ، ويسعى لتحصيلِ المالِ من وجُوهه المشروعة . ولا يتعاملُ بالربا لعظيم خطره ، وسوءِ عواقبه . . والتعاملُ بين المؤمنين ينبغى أن يقومَ على رعاية المصلحةِ ، وحبِّ الخير . . وما أجمل القرضَ يقدِّمه المسلمُ لأخيه المسلمِ عند حاجتهِ بلا فائدةٍ تعودُ على صاحبِ المالِ وبلا زيادةٍ عند السداد . . إن هذا الأسلوبَ من التعاملِ يجمع القلوبَ على المحبة ، ويثيبُ اللهُ عز وجل عليه ، ففى الحديث الشريف : « قرضُ مرتين يَعْدِلُ صَدَقَةَ مرة » .

نسأل اللهَ عز وجل الرزق الحلال الطيب ، والتوفيق لطاعته ، إن ربى سميعُ الدعاء .

عن عمرو بن الأَحوص رضى الله عنه قال : سمعتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقول فى حجة الوداع : « أَلا إِن كلَّ ربا من ربا الجاهلية موضوعٌ ، لكم رءوسُ أَموالِكم لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُون » .

وعن أَبى سعيد رضى الله عنه قال : « جاءَ بلالٌ رضى الله عنه إلى رسولِ الله ﷺ بتمرٍ بَرْنِىٍّ فقال له : من أَين هذا ؟ فقال : كان عندنا تمرٌ ردىء فبعتُ منه صاعين بصاع لمطْعَمِ النبىّ ﷺ ، فقال : عند ذلك (أَوّه) عينُ الرِّبا ، عينُ الربا ، لا تفعل ، ولكن إذا أَردتَ أَن تشترىَ فبع التمرَ بَيْعًا آخر ثـمّ اشترِ به » .

فاتقوا الله ـ عبادَ الله ـ وتحرَّوا الكسب الحلال ، واحذروا مقت الله وغضبه فى المعاملات المحرمة ، وتوبوا إليه لعله يرحمكم .

صلة الرحم

أمـا بعـد :

فعن عائشة رضى الله عنها أن رسولَ الله ﷺ قال : « الرَّحِمُ مُعَلَّقَةٌ بِالعَرْشِ ، تَقُولُ : مَنْ وَصَلَنِى وَصَلَهُ اللهُ ، وَمَنْ قَطَعَنِى قَطَعَهُ اللهُ » .

أيها المؤمنون :

صلةُ الرَّحِمِ معناها : مَبَرَّة الأَهلِ والأَقارب والإحسان إليهم.

إنَّ كل أُمة تتكون من أُسرٍ وقبائلَ وعشائرَ ، فإذا تآلفت الأُسر ، وتماسكت العشائر والقبائل وعمَّهم الحبُّ والإخاءُ سَعِدوا وانتظمت أُمورُهم ، وقويت شوكةُ الأُمةِ وتقدمت وارتفعت رايتُها تظلِّلُ أَبناءَها المتعاونين المتآخين المتراحمين المتعاطفين .

إن قريبك جزءٌ منك ، منسوبٌ إليك ، متصلٌ بك رغبتَ أَم لم ترغب ، له عليك حقوق واجبةُ الرعاية ، وعليك له واجبات يلزم أَداؤها .

ولأَجل أن يكون بناءُ المجتمع الإسلامى قويًّا متماسكاً متسانداً أفرادُه أَوصى القرآن الكريم بالأَقارب ولنتدبر قول الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾(١) الآية .

فبدأَت الآية بتوحيد اللهِ عز وجل ، ثمّ جاءَ الأَمرُ بالإحسان إلى الوالدين والأَقاربِ ، وبعد ذلك الإحسان إلى اليتيم والمسكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل.

---

(١) النساء : ٣٦ .

إن من حق القريب على قريبه أن يساعده بماله إذا افتقر وأن يُمِدَّه وقت الحاجة ويُفَرِّجَ كُربتَه ، وينفِّسَ عنه غُمَّته ، وإن كان هذا هو حقَّ كلِّ مسلم فهو بالقريب أولى وأجدر .

قال تعالى : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾(١) . وأمرنا الله عز وجل بتقواه فى الأرحام فَنَصِلُهم ، ولا نَقْطعهم ، ونتودَّدُ إليهم ونُدْخل السرورَ على قلوبهم فقال سبحانه : ﴿ وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾(٢).

ومن حق ذوى الرّحم الإحسانُ إليهم بقدر الطاقة ،والشفقةُ عليهم، وتقديمُ النصح لهم وإفشاءُ السلام عليهم ، وعيادةُ مرضاهم ، والسؤالُ عنهم ، وشهودُ جنائزِهم ، ومقابلةُ الإساءة منهم بالإحسان إليهم .

ومن كان ذا مالٍ فأقاربه أولى الناس بصلَتِه وبرِّه وصدقتِه . قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُون ؟ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾(٣) :

والرسولُ ﷺ يقول : « أفضلُ الصدقةِ ، الصدقةُ على ذى رحمٍ كاشحٍ » [أى مبغض] .

وعن حكيم بن حزام رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اليدُ العُليا خيرٌ من اليدِ السُّفلى وابْدَأْ بِمَنْ تَعُول » .

فالمسلمُ فى نظر الإسلام كالشجرة الحانيةِ الوارفةِ الظلال تُظِلُّ الأقربَ فالأقربَ فيبدأُ بِمَنْ يعول كالأبْناءِ والآباءِ والأخوات والعماتِ والإخوة والأعمام وغيرهم الأقرب فالأقرب .

(١) الإسراء : ٢٦ .
(٢) النساء : ١ .
(٣) البقرة : ٢١٥ .

وقد ورد عن النبيِّ ﷺ أن اللهَ لا يقبلُ صدقة من مسلم وله قرابة محتاجون إلى بِرِّه وعطفه ثمّ يصرفُها بعيداً عنهم . يقول ﷺ : « يا أُمةَ محمدٍ ، والذِى بعثَنِى بالحقِّ ، لا يقبلُ اللهُ صدقةً من رجلٍ وله قرابةٌ محتاجون إلى صِلته ، ويصرفُها إلى غيرهم ، والذِى نفسى بيدهِ لا ينظرُ اللهُ إليه يومَ القِيامة » .

وقد ورد فى التنبيه إلى فضْل تفقد الأَقارب الضعفاء وبرِّهم قولُ رسول الله ﷺ : « مَنْ كانَ له أَقاربُ ضعفاءُ ولم يُحسن إليهم ، ويصرفُ صدقَتَه إلى غيرهم لم يقبل اللهُ منه صدقَتَه ولا ينظر إليه يوم القِيامةِ » . وقال ﷺ : « الصدقةُ على المسكين صدقةٌ وعلى ذى القرابة اثنتان : صدقَةٌ وَصِلَةٌ » .

والمسلم الفقير عليه أَن يصل رحمه بالزيارة وإلقاءِ السلام عليهم والسؤالِ عنهم لجلب محبَّتهم ، وتوثيق الصلة . يقول ﷺ : « صِلُوا أَرْحَامَكُمْ ولو بالسّلام » .

ومن حقوق الرَّحم تقديمُ الهدايا ، والنصيحة والإرشاد للخير والحق والصواب والله عز وجل يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ والحِجَارَةُ ﴾(١) .ويقول سبحانه : ﴿ وأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالعاقِبَةُ للتَّقْوى ﴾(٢) .

وامتدح الله رسوله إسماعيل عليه السلام بقوله : ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾(٣) .

---

(١) التحريم : ٦ .
(٢) طه : ١٣٢ .
(٣) مريم : ٥٥ .

أيها المؤمنون :

هذه أوامر الله ، وتوجيهات رسوله تنطق بأن صلةَ الرَّحم قُرْبَةٌ عاليةٌ ، وعملٌ جليلٌ عظيم الأجر عند الله . . فهل سأل المسلم نفسه : إلى أى حَدٍّ هو متمسِّك بتعاليم دينه ؟ . إلى أىٍّ حد هو بارٌّ بوالديه؟ . إلى أى حد هو عطوفٌ على أهله رحيمٌ بهم ساعٍ فيما يصلحهم ، مشغولٌ بأُمورهم ، متجاوز عن هفواتهم ، واصل لهم وإن قطعوه ؟ .

إن صلة الرحم تسبب سَعَةَ الرزق ، كما أنها سببُ البركة فى العمر ، ويُرشدنا الحبيب المصطفى ﷺ إلى ذلك فيقول : « مَنْ سَرَّهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِى رِزْقِهِ ، ويُنْسَأَلهُ فى أَثَرِهِ ، فَلْيَصِلْ رَحِمَه » .

وصلةُ الرحم من ثمراتِ الإيمانِ الصحيح وعلامةٌ على الصدق والإخلاص. فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « مَنْ كَانَ يُؤْمن بالله واليومِ الآخرِ فليكرمْ ضيفَه ، ومنْ كانَ يُؤمن باللهِ واليومِ الآخر فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ ، وَمَنْ كانَ يُؤْمِنُ باللهِ واليوْمِ الآخرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمت » .

إن صلة الرحم ومساندةَ الأَهل والدفاعَ عنهم بالحق والعدل أَمر واجب وفى الوقت نفسه إنه ليس من الخير ولا من البر أَن يُعين المسلم قريبًا له على شرٍّ أَوْ يساعده على الهروب من حق ، فالله عز وجل يقول :

﴿ وإذا قُلْتُمْ فاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾(١) .

ويقول سبحانه وتعالى :

« يَاأَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلوْ على أَنْفُسِكُم أَوِ الْوالِدَيْنِ »(٢) .

فحذارِ أَن تُعين أَخاك على ظلم أَو تشهد له بالباطل .

(١) الأنعام : ١٥٢ . (٢) النساء : ١٣٥ .

وإذا كان الإسلام حبَّب إلينا صلَة الرحم ، وحثَّنا على البر بهم والتودد إليهم وجعل ذلك من القربات فإنه نهى عن قطيعة الرحم وجعل ذلك من أسباب غضب الله على عبده ، ويلعن اللهُ المرءَ الذى إذا استغنى تكبَّر على أهله ، وقطع رحمه ، ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُم إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فى الأَرْضِ وتُقَطِّعُوا أَرحَامَكُمْ * أُولئكَ الَّذِينَ لَعَنَهُم اللهُ فأَصمَّهُمْ وأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴾(١) .

وفى قاطع الرحم المهمل شأْن أَهله كالأُخت والخالة والأَخ والعم ونحوهم يقول الرسول ﷺ : « لا يدخل الجنة قاطعٌ » .

وقال صلى الله عليه وسلم: « أَسْرَعُ الخيرِ ثوابًا البرُّ وصلةُ الرحمِ ، وأَسرعُ الشرِّ عقوبةً البغْىُ وقطيعةُ الرحِم » .

أيها المؤمنون :

إن القريب قطعةٌ من قريبه فينبغى أَن يفرحَ لفرحه ويحزنَ لأَلمه ويشاركَه سراءَهُ وضراءَهُ ولا يمنع عنه نصْحَهُ وإرشادَه ولا يحسدَه على ما آتاه اللهُ من فضله .

كما أَن المسلم لا ينبغى له أَن يقابل إساءَة أَهله بالإساءَةِ أَو قطيعتَهم بالقطيعة ، لأَنه بذلك يعيبُ شرَّهم معه ويَرضى لنفسه ما عابه عليهم ، وهو يستطيع أَن يكسب قلوبهم باستمراره فى الإحسان إليهم ، فالشرُّ لايَدْفع شرًا ، وليس من الحق ولا من الصواب ما أَوعز به الشيطان إلى بعض النفوس فزيَّن لهم المثل « الأَقارب كالعقارب » فهذا المثل ليس صحيحًا وإنما هو من تَزْيين إبليسَ ليُفسد فى الأَرضِ ويباعدَ القلوبَ .

فاتقوا الله عباد الله فى الأَقارب وصِلُوهم يرحمكم الله ويبارك لكم

---

(١) محمد : ٢٢ ، ٢٣ .

قال ﷺ عن ربِّه : « أَنا اللهُ وأَنا الرحمنُ ، خلقتُ الرحمَ ، وشققتُ لها اسمًا من اسمى ، فمَنْ وصلها وصلتُه ، ومن قطعَها قطعتُه » .

وعن جابر رضى الله عنه أَن رسول الله ﷺ وسلم قال : « إِذا كان أَحدُكم فقيرًا فليبدأْ بنفسِه ، وإِن كان فضل فعلىٰ عياله ، وإِن كان فضلٌ فعلىٰ ذوى قرابتِه أَو قال : ذوى رحمِه ، وإِن كان فضلٌ فها هذا وها هنا . . . » .

وقال ﷺ « لا يزالُ يُستَجَابُ للعبدِ ما لم يدْعُ بإِثم أَو قطيعةِ رحمٍ » .

فاتقوا الله — عباد الله — وبرُّوا آباءَكم وأُمّهاتِكم وصِلُوا أَرحامكم ، وتوبوا إِلى الله توبة نصوحا فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

للخطبة الثانية :

جاء فى مسند الإمام أحمد :

عن أبى أُسَيد وهو مالك بنُ ربيعة الساعدىّ قال : بينما أنا جالس عند رسول الله ﷺ : إذْ جاءه رجل من الأنصار فقال : يا رسولَ الله هل بَقِىَ علىَّ من بِرِّ أبوىَّ شىءٌ بعد موتهما أبرُّهما به ؟ قال : نعم خِصال أربع : الصلاةُ عليهما ، والاستغفارُ لهما ، وإنفاذُ عَهْدِهما ، وإكرامُ صديقِهما ، وصلةُ الرحم التى لا رحم لك إلا مِنْ قِبَلِهما ، فهو الذى بقى عليك بعد موتهما من برهما » .

وفى المسند :

عن المقدام بن معد يكرب أن النبى ﷺ قال :

« إن الله يوصيكم بأُمهاتكم ، إن الله يوصيكم بأُمهاتكم ، إن الله يوصيكم بأُمهاتكم ، إن الله يوصيكم بالأَقرب فالأَقرب » .

وعن رجل من بنى يربوع قال : أَتَيْتُ النبى ﷺ وهو يكلم الناس يقول : « يد المعطى (العليا) أُمّك وأَباك وأُختَك وأَخاك ثم أَدناك فأَدناك » .

ومن أقواله صلى الله عليه وسلم :

* « لا يُجَالِسُنَا اليومَ قاطعُ رحِم » .

* « إنَّ الرحمة لا تنزلُ على قومٍ فيهم قاطعُ رحم » .

* « إن اللهَ ليعمِّر لقوم الديار ويُثمِّرُ لهم الأَموالَ وما نَظَر إليهم منذ خَلَقَهم بُغْضًا لهم ، قيل وكيف ذلك يا رسولَ الله ؟ قال : بِصِلَتِهم أَرحامَهم» .

طوبى لمفاتيح الخير

قال تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ . . . ﴾(١) .

وعن سهل بنِ سعدٍ رَضِيَ اللهُ عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « إنَّ هذا الخيرَ خزائنُ ، ولتلك الخزائنِ مفاتيحُ ، فطُوبى (٢) لعبْدٍ جعله اللهُ مِفْتاحًا للخَيْرِ ، ومِغْلَاقًا للشرِّ ، وويلٌ لعبدٍ جعله اللهُ مِفْتاحًا للشرِّ مغلاقًا للخير . . . » .

يا أحباب رسول الله ﷺ :

الإسلامُ يَحُثُّ المؤمنين على التناصرِ والتحابِّ والإخلاصِ ويأْمُرهم بالمعاونة على فعل الخيراتِ ﴿ وَتَعَاوَنُوا على البِرِّ . . ﴾ كما يأْمرهم بالمعاونة على تركِ ما يُغْضِبُ اللهَ والكفِّ عمَّا يَجْلبُ سخطَه ، أي يأمرهم بالتَّقْوىٰ ثم نهاهم عن أن يكونوا أعوانًا للشرِّ والفساد ﴿ ولَا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ والْعُدْوَانِ (١) ﴾ .

وفى الحديثِ الشريفِ السابقِ يحثُّ الحبيبُ المصطفى ﷺ المؤمنين على بابٍ عظيمٍ من أبوابِ البِرِّ ، به تسودُ المحبةُ وتَقْوى الروابطُ بين أفرادِ الأُمةِ ، ذلك هو سَعْيُ القادرين فى مصالحِ الناس ، والمساعدةُ على إيصال الخيرِ لهم ، والعملُ على دَفْعِ الشَّرِّ عنهم .

وقد وصف رسولُ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ أهلَ المروءاتِ بأنهم أهلُ المعروف فى الدنيا ، عُرفت عنهم السماحةُ وسَعَةُ الصدر ، يقصدُهم

---

(١) المائدة : ٢

(٢) طوبى : بضم الطاء وفتح الباء من الطيب ، يقال : طوبى لك وطوباك ، وطوبى اسم شجرة فى الجنة .

الناسُ فى مصالحهم ، فيبذلون لهم من وقتهم وسعيهم وجاهِهم ما يحققُ لهم الخيرَ ، أو يدفع عنهم الضرَّ ، ولهذا العمل وفقهم اللهُ ، فهو يسوقُهم إلى الخير كما يسوقُ الماءَ إلى الأَرضِ الجرز(١) فتنبتُ ما شاءَ اللهُ من نبات وثمرٍ، ولهذا أخبر الرسولُ ﷺ بأَنَّ هؤلاء « هم الآمنون من عذابِ الله » .

ولنتدبر قولَ الهادى الحبيبِ ﷺ :

عن ابن عمرَ رضى الله عنه قال : « قال رسولُ الله ﷺ : « . . . إنَّ للهِ خلقًا خَلَقَهُم لحوائجِ الناسِ ، يفزعُ الناسُ إليهم فى حوائجِهم ، أُولٰئكَ الآمنون من عذابِ الله . . . » .

عن علىٍّ كرَّمَ اللهُ وجهَه قال : قال لى رسولُ اللهِ ﷺ « يا علىُّ ، إنَّ اللهَ تعالى خلقَ المعروفَ ، وخلق له أهلاً فحبَّبَه إليهم وحبَّبَ إليهم فِعاله ، ووجَّه إليهم طُلَّابَه ، كما وجَّه الماءَ فى الأَرضِ الجَدْبةِ لتحيا به ، ويحيا به أهلُها إن أَهلَ المعروف فى الدنيا ، هم أَهلُ المعروفِ فى الآخرة » .

وروى عن الهادى الحبيب ﷺ أنه قال :

« . . . مَنْ قَضَىٰ لأَخيه المسلمِ حاجةً كنتُ واقفًا عند ميزانِه ، فإن رجحَ وإلا شفعتُ له . . . » .

فهذه بشاراتٌ نبويةٌ كريمةٌ ينبغى أن يفرحَ بها أُولئك الذين يَسَّرَ اللهُ لهم خدمةَ الناس ، والسعْىَ فى مصالحِهم ، ومعاونةَ أَصحابِ الحاجات حتى يتحققَ لهم ما يأْملون من جلب منفعةٍ أو دفعِ مَضَرَّة . . إن أَصحابَ المروءاتِ ينبغى لهم أن يفرحوا بالبشارات النبويةِ ، ويستقبلوا حاجاتِ الناسِ التى تُوجَّهُ إليهم على أنها نِعَمٌ قد أنعم اللهُ بها عليهم ، على أنها منازلُ عليا قد ارتضاها لهم ، وَشُكْرُ النعمةِ فى هذا المجالِ أن يبذلوا كل جهدٍ فى سبيلِ القيام بما ندبهم اللهُ له ، وجعلهم أسبابَه ومفاتيحَه .

---

(١) الجرز : أرض جرز لا نبات بها .

فطوبى لمن يساعد أخاه المسلم بجاهِه أو بمالِه حتى يدركَ ما يرجوه من خير ، جاءَ من حديث شريف :

« مَنْ كانَ فى حاجةِ أخيه كان اللهُ فى حاجتِه . . . » .

أى يسّر اللهُ له أمورَه ، وأعانه ، ودفعَ عنه المكروه .

وقال الرسولُ ﷺ من حديث : « واللهُ فى عونِ العبدِ ما كان العبدُ فى عونِ أخيه » .

أيها المؤمنون :

إن كلَّ إنسانٍ منا يستطيعُ أن يكونَ مِفْتاحا للخير مِغْلاقًا للشر ، بالمال يفعلُ ذلك من آتاه اللهُ المال ، وبالرأى يفعل ذلك من آتاه الله سَدَادَ الرأى ، وبالقلم يفعله من آتاه اللهُ القلمَ ، ويسَّر له القدرةَ على التعبير عَمَّا فى النفس ، وبالجاه يفعلُه من آتاه اللهُ الجاه ، والزوجةُ تفعلُه فى بيتِ زوجِها والابنُ مع أبيه ، والأبُ مع ابنِه ، والصاحبُ مع صاحبِه ، والجارُ مع جاره .

فمن استطاع بما له أن يدفعَ حاجةَ مُحتاج فهو مفتاحٌ للخير ، مِغْلَاق للشرِّ ، ومن استطاع بجاهِه ونفوذِه أن يحققَ الخيرَ لإنسان أو يوصِّلَه إلى حقٍّ فهو مفتاحٌ للخير مِغْلَاقٌ للشرِّ ، وإذا آتاك اللهُ قلمًا تدافعُ به عن الحقِّ ، وتدعو إلى الخيرِ والفضيلة ، وتدفعُ به فى صَدْرِ الإلحادِ والباطلِ ، فأنت مفتاحٌ للخير مغلاقٌ للشرِّ ، والزوجةُ إذا استطاعت أن ترققَ قلبَ زوجِها على أهله ورَحِمِه حتى يصلَهُم ببِرِّه وإحسانِه فهى مفتاحٌ للخير مغلاقٌ للشر ، وكذلك مَنْ يَجْمَعُ القلوبَ على المحبة ، والجارُ الذى يأْمنُ جارُه بوائقَه (١) ، والإنسانُ الذى يسعى

---

(١) بوائقه : دواهيه ومفرده « البائقة » أى الداهية ويدخل فى المعنى الشر والظلم .

لأصحابِ المطالبِ العادلةِ ليقضِى لهم مصالحَهم هؤلاء مفاتيحُ للخير .

وهكذا نجدُ فى ميادين الحياةِ المتعددةِ فُرَصًا لعمل الخيرِ ودفعِ الشرِّ ، حتى ولو بالكلمةِ الطيبةِ ، والإرشادِ لما فيه الخيرُ ، والرسول ﷺ يقول : «الدالُّ على الخيرِ كفاعِلِه . . » .

وروى عن عمر رضى الله عنه مرفوعًا : « أفضلُ الأعمالِ إدخالُ السرورِ على المؤمنِ : كسوتَ عورتَه ، أو أشبعتَ جوعتَهُ أو قضيتَ له حاجة . . . » .

ومن حديث بن عمر : « أَحَبّ الأعمالِ إلى اللهِ عز وجل سرورٌ تُدْخِلُه على مسلمٍ أو تكشفُ عنه كُربةً ، أو تَطْرُدُ عنه جَزَعًا ، أو تقضى عنه دينًا . . . » .

فطوبى للمؤمن الصالح الذى يُفَرِّجُ عن أخيه كُرَبهُ ، ويدفعُ عنه المَضَرّةَ ، ويجلبُ له خيرًا وينصحُ له ، ويقفُ إلى جانب إخوانِه فى عسرِتهم ، ويفتحُ قلبَه وصدرَه لأصحاب الحاجاتِ ، ويكونَ دائمًا ساعيًا فى الخَير ، مُحِبًّا للحقِّ ، معاونا على البرِّ والهدى .

ولقد كان النبيُّ ﷺ إذا قدِم عليه أحدٌ وهو فى صلاتِه خفَّفَ فى صلاتِه ، وأقبل عليه فقال : أَلكَ حاجةٌ ؟ فإذا فَرَغَ من حاجتِه عاد إلى صلاتِه .

روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال : « إنَّ أَحَبَّ الأعمالِ إلى اللهِ تعالى بعدَ الفرائضِ إدخالُ السرورِ على المسلم . ».

وفى حديث روته عائشةُ رضى الله عنها: « مَنْ أَدخلَ على أَهلِ بيتٍ من المسلمين سرورًا لم يرضَ اللهُ له ثوابًا دونَ الجنة . . . » .

وفى الحديث : « طُوبى لمن أُجْرِىَ الخيرُ على يديه ، وويلٌ لمن

أُجْرِى الشَّرُّ على يَدَيْه » . وقد حثَّ النبي ﷺ المسلمَ على أن يشفعَ لأخيه المسلمِ فقال : « إنى أُوتَى ، وأُسْأَلُ ، وتُطْلَبُ إلىَّ الحاجةُ ، وأنتم عندى ، فاشْفَعُوا لِتُؤْجَرُوا ، وَيَقْضِى اللهُ على يَدَىْ نَبِيِّه مَا أَحَب » .

[متفق عليه]

وقال : ﷺ : « اتَّقُوا النارَ ولو بِشِقِّ تَمرةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فبكلمةٍ طيبةٍ » .

وفى الحديث : « خصلتان ليس فوقَهما شىءٌ من الشرِّ : الشركُ بالله والضُرُّ لعبادِ الله ، وخصلتان ليس فوقهما شىءٌ من البِرِّ : الإيمانُ باللهِ والنفعُ لعبادِ الله » .

فاتَّقوا الله ـ عبادَ الله ـ وتُوبوا إلى اللهِ توبةً نصوحًا فالتائبُ من الذنب كَمَنْ لا ذنب له .

اللهم اجعلنا من أهل المعروف .

الزنى وآثاره السيئة

الحمد لله حرم الزنى ليطهر العباد ، والصلاة والسلام على من سلمت نفسه من الفساد ، سيدنا محمد الداعي للرشاد ، وأشهد أن لا إلٰهَ إلا الله لا يحرم علينا إلا الفواحش والضرر ، وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله نبهنا إلى مزالق الخطر ، صلى الله على سيدنا محمد وعلى كل حر كريم .

عباد الله :

شرفُ المرأةِ طهارةُ عِرْضِها ، وبياضُ صحيفتها ، ونقاءُ ذيلها ، سعادةُ المرأة فى العفة والصيانة ، والكرامة والحرص على السمعة ، قيمةُ المرأة إباؤُها وعزتُها ، ميزانُ المرأة نزاهتُها وترفُّعها ، بل إن سعادة الرجل وسعادةَ الأسرة وسعادةَ الأُمة كلِّها فى عِرض المرأة وحسنِ سلوكها ؛ كلُّ خطإٍ قد يمكن إصلاحه ، كل داءٍ قد يوجد له دواؤه ، ومن أساء لجار أو صديق أمكنه الاعتذار ، من تسبب فى ضرر فهين عليه معالجة المضار ، من اغتصب شيئًا فإنه يستطيع رده لأهله ، إلا عِرضَ المرأة إذا خُدِش ، وشرفَها إذا نزل ، وسمعتها إذا مُسَّت هيهات أن تعود لسلامتها ، وأن تَرجع لنصُوعها ، ومن اغتصب شرفَ امرأةٍ كيف يردّ ما اغتصب ، وهل تحيا الكرامةُ إذا ماتت ؟ وهل يعود المقبور بعد دفنه ؟ العرض مرآة يظهر عليها كلُّ شيءٍ حتى التنفس يؤثر على المرآة ، والعرضُ زجاج شفافٌ تخدشه الشُّبهُ ، وتكسِرُه الرِّيَبُ والتهم ، فإن كُسر لا يلتئم ، وإن عُولج والتأم ظل مكانُ الكسر واضحًا ، ينطق بالجرم ويشهد بالإثم ، وإن كان متماسكاً ؛ ولقد كان العربُ فى الجاهلية يعتزون

---

* من خطب الشيخ محمود على أحمد .

بشرف نسائهم ، ويقفون دون أعراضهم أُسودًا كاسرة ونمورًا مفترسة ، يغسلون إهانة أعراضِهم بأَسنة الرماح وحد السيف ، ولا ينامون على إهانة ولا يصبرون للعار والذل أَبدا ، فجاءَ الإِسلام يقوى فيهم الحِفاظ للعِرض ، والغَيْرة على النساء ، ويمتدحُ الشهمَ الكريم ، ويندِدُ بالديوث الذميم ، لتبقى الأَعراضُ مصانةً والشرفُ موفورًا .

لكنّ الإِنسان ركبت فيه الشهوات البهيمية واللذاتُ البدنية ، وهو فى الغالب الكثير عبدٌ لشهواتهِ مُطيع للذاته ، وفى النادر القليل يتغلب على هواه ، ويَعْصِى نَفْسَهُ الأَمارةَ بالسوءِ ؛ خلق اللهُ له آلة الجماع ، وعُضْوَ الوقاع ، وجعل طلبه للمرأَة إجباريًّا ، وَشَوْقَه لها طَبَعيًّا لا مفرَّ منه ولا مَحِيص ، إلا إذا كان به مرض يصرفه ، ليضمن الله بذلك بقاءَ النوعِ الإِنسانى ، وعَمار الأَرض بالتناسل والولادة ، وجعل الله لارتباط الذكر بالأُنثى نظامًا هو الزواج ، يستحل به امرأَة تكون له خاصة ، ليبنى معها بيت السعادة والنعيم .

﴿ وَمِنْ آياتِه أَن خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكم أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مودَّةً ورحْمةً إن فى ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يتفكَّرُون ﴾ (١) .

ولكنَّ دافِعَ الشهوةِ شديدٌ ، ولا يصدها إلا من كمل عقلهُ ، وسَلِم دينُه ، واستقام خُلُقه ، فأخضع نفسَه لقلبه ، وسلَّط عقله على عواطفه ، وَمِثْلُ هذا فى الرجال قليل .

كيف يرضى المسلم لنفسه الوقوع فى الحرام ؟ أَو يقبل الاستجابة لدعوة شيطانه فَيَتمرغ فى الآثام ؟ كيف يستبيح امرأَة قد حرمها عليه ربه ؟ ويتمتع بها بدون زواج ؟ أَو يشترى عرضها بقليل من المال !

(١) الروم : ٢٢ .

وبكثير من القول المعسول والخداع والإضلال ؟ وكيف يفر المسلم من ميدان الشرف ، إلى بؤر الفساد والتلف ، كلما تحركت شهوته ، ألا يدرى أن الزنى مصدرُ المرضِ والوباء ، ، هل يظن الزانى أنه غير مقيد وأنه حر طليق ، وهو عبد لكل امرأة ، وتابعٌ لكل خليعة . عرضةٌ للأمراض السرية ، والعلل التى تُنَغِّصُ عيشَه ، وتقضُّ مضجعه ، من سيلانٍ وزُهْرىٌّ وقُرَحٍ آكلة وتشويش وغيره ، مع ضياع المال فيما يغضب الله وفقدان الكرامة ، وانهيار الأخلاق وذهابِ الحياء ، والجرأة فى الفجور ، والتسكع على الأرصفة ، وأبوابِ الدور ، والتعرض للمهانة وأحيانًا للضرب والمحاكمة ، أليست هذه قيودًا أشدَّ من قيود الزواج ؟ وهل من الرجولة أن يفر الرجل من واجب العائلة ، لتستعبده كل متهتكة فاجرة ؟

لقد حرمت كلُّ الشرائعِ السماويةِ الزنى لعظيم ضرره ، وشدةِ خطره ، وحتى لا تختلطَ الأنسابُ ، ولا تضيعَ الأولاد ، ولا يُرْمَىٰ اللقطاءُ فى الطرقات بدون شفقة ولا رحمة ، عرضةً للموت والعُدْم ، مما خجل منه الحياء ، ويندى له جبين الأخلاق ، وانكمش من هوله الأدب .

قال تعالى: ﴿ ولا تَقربُوا الزِّنَى إنَّه كانَ فَاحِشةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾(١) .

وليست علة تحريم الزنى فى ضياع الأنساب والأموال فحسب ، بل ، إن التحريم لحفظ العرض وهو تاجُ المرأة ، وصونِ الشرف وهو إكليلُ النساءِ والرجالِ جميعًا ، وإبقاءً على الحياءِ أن يبيد ، واستمساكًا بالفضيلة أن تزلزلَ وتَميد ، وحرصًا على الحرمات أن تُنْتَهك ، وتحريضًا على الزواج لئلا ينصرفَ الناسُ عنه . أيقاس الأمرُ بضررِه المادى فقط وقد

---

(١) الإسراء : ٣٢ .

وضحت أضرارُ الزنى المادية ؟ إن من يجرؤ على هذه الفاحشة ، ولا يحس خجلا ولا ندمًا ، يجرؤ على حقوق وطنه فلا يحس حياءً ولا ألمًا ،

وقد قال ﷺ : « إن مِمَّا أَدْرَكَ الناسُ من كلام النبوة الأُولى ، إذا لم تَسْتَحِ فاصْنَعْ مَا شِئْتَ » .

الزنى فى نظرِ الإسلام جريمةٌ منكَرَةٌ ، وكبيرةٌ فاحشة ، جعل لها حدًّا فى الدنيا ، زجرًا وتـأْديبًا وعبرة ، وجعل لها عقابًا عظيمًا فى الآخرة ، جعل الرجْمَ للمتزوج إذا زنى ، والجَلْدَ للأَعزب ، ونهى عن استعمال الرأْفة مع الزُّناة ، وقد أمر بالرأفة حتى مع الحيوان ، ولكن الزانى تسفَّل عن الحيوان فلم يتخذ له زوجة يرعاها ، ومن الحيوان ما يرعى أليفته ، ويصونُ صلتها ، ولا يخونها مع غيرها .

الدين الذى يُحِبُّ السترَ على عورات الناسِ ، يُوجب حدَّ الزناة فى جَمْع حاشد ﴿ الزانية والزَّانِي فاجْلِدُوا كلَّ واحدٍ مِّنْهُما مائةَ جلدة ، ولا تـأْخُذْكم بهما رأْفةٌ فى دينِ اللهِ إنْ كُنْتُم تُؤْمِنُونَ باللهِ واليومِ الآخرِ ، ولْيشهَدْ عذابَهما طائفةٌ مِّنَ المؤْمنين * الزَّانِي لا يَنكحُ إلا زانِيةً أَو مشركة والزانية لا ينكِحُها إلا زَانٍ أَوْ مُشرِكٌ، وحُرِّم ذلك على المؤمنين ﴾(١).

عبـــاد الله :

تداركوا المرأَةَ فهى ربةُ بيتكم وشريكةُ حياتكم وأُمُّ أولادكم وموضعُ شرفكم ، صونوا المرأة ولا تحرضوها بتعرضكم لها فى الطرقات ، تطرون شكلها ، وتغازلونها ، وتتملقون لها وتتوددون ، وتدعونها للفاحشة ولا تخجلون ، ثم تذمون النساءَ ولا تتحرجون ، وتعرضون عن تزويجها تعففا وأنتم لعفتها مضيعون ، أَيرضى أَحدُكُم أن تزنِى زوجَتُه أَو بناتهُ ؟

---

(١) النور : ٢ ، ٣ .

فإن لم يرضَ الفسادَ لأَهله فكيف يرضاه لأَىِّ امرأَة ، وهى مهما بعدت فهى مسلمةٌ أَو إِنسانةٌ مثله أَيا كان دينُها أَو مذهبها .

يقول الله يصف عباده ﴿ وَلَا يَزْنُون ومَنْ يَفْعل ذلِكَ يَلقَ أَثامًا ، يُضَاعَف لهُ العذابُ يومَ القِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهانًا ﴾ (١) .

وقال ﷺ « مَنْ يَضْمَنْ لى ما بَيْنَ لَحْيَيهِ وما بينَ رِجْلَيْهِ تَضمَّنْتُ لهُ بالجنَّة » .

وقال أَيضًا : لا يزنى الزانى حينَ يَزْنى وهو مُؤْمنٌ ، ولا يسرقُ السارق حين يسرقُ وهو مؤمن ، ولا يشربُ الخمرَ حينَ يشرَبُها وهو مُؤْمنٌ » .

وقال سعد بن عبادة لرسول الله ﷺ لو وجدتُ مع أَهلى رجلاً أُمهِله حتى آتِى بأَربعةِ شُهداءَ ؟ قال : نعم ، فقال سعد : كلا ، والذى بعثَك بالحق إن كنتُ لأَعجله بالسَّيْف قبل ذلك فقال : اسمعوا إلى ما يقول سيدُكم إنه لغيُورٌ ، وأَنا أَغيرُ مِنه ، والله أَغيرُ منى » .

---

(١) الفرقان : ٦٨ ، ٦٩ .

الرشوة من مفاتيح الشر

أما بعـــد :

فقد قال اللهُ تعالى : ﴿ وافْعَلُوا الخيرَ لعَلَّكُمْ تُفْلِحُون ﴾(١) .

وفى حديث ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من كان فى حاجةِ أخيه كان اللهُ فى حاجته » .

عبـاد الله :

أَمر اللهُ عزَّ وجلَّ عبادَه المؤمنين بالتعاونِ على الخيرِ ، وحثَّهم على التناصُرِ والتآخى والسعْى فى المصالح ، والتعاونِ على اجتنابِ الشرِّ ودفعِ الضُّر ، ونهاهم أن يُعاونوا على إثْم ، أو يَتناصَرُوا على شرٍّ .

قال تعالى : ﴿ وَتَعاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوىَ ولا تَعَاوَنُوا على الإثْمِ والعُدْاون ﴾(٢) .

والمؤمن مفتاح للخير ، مِغْلَاقٌ للشَّرِّ ، تدفعُه مروءتُه لمعاونة إخوانِه عند حاجتِهم والسعْى لهم فى قضاءِ مصالحِهم ، ولا يرجُو من وراءِ ذلك إلا ثوابَ اللهِ عزَّ وجل .

وقد جعل الإسلام قِوامَ (٣) أعمالِ الناسِ بالأمانة والذمةِ ، وجعل انتظامَ الروابطِ والصلاتِ بالوفاء وحسنِ السُّمعة ، كما جعل سعادةَ الفردِ والمجموعِ فى الحياء وشرفِ النفس ، ومُجَانَبَةِ القبائح ، والدنايا ، فالناسُ لا يستغنون عن التعامل والتبادلِ والأخذِ والعطاءِ والتعاونِ والتساندِ فى جميع شئونِ حياتهم ، فإذا لم تكنْ المعاملةُ على الصدق

(١) الحج ٧٧ (٢) المائدة ٢ .

(٣) قوام : بكسر أوله تقول : قوام الأمر أى نظامه وعماده ، وفلان قوام أهل بيته وقيامهم أى الذى يقيم شأنهم ـ وقوام الأمر أيضا ـ ملاكه الذى يقوم به وقد يفتح أوله .

والأمانة ضاعت الثقةُ ، وساءت الظنونُ ، وتقطعت الصلاتُ ، وإذا لم يؤدِّ كلُّ إنسانٍ واجبَه نحو الآخرين بضميرٍ نقيٍّ ، وطهارةِ نفسٍ تعرضت الحقوقُ للضياع ، واضطربت الأعمالُ .

ومن صفاتِ المؤمنين الصالحين أنهم أُمناءُ على المصالح ، أوفياءُ بالعهودِ ، مُتْقِنُون للأعمال ، مراقبون للهِ فى كلِّ ما يَصْدُرُ عنهم من قول أو عملٍ يبسطون أيديَهم بالمعروف ؛ فإذا وُكِلَ إليهم عملٌ نَهَضُوا بمسؤولياتِه ، وقاموا بتبعاتِه على خيرِ وجهٍ وأكمله ، لا يضيعُ لديهم حقٌّ ، ولا يتأخرُ عمل ، أغنى اللهُ نفوسَهم بالحلال الطيِّبِ من الرزقِ لا يأكلون الحرامَ ، ولا يَمُدُّون أيديَهم للسُّحْتِ ، لإيمانهم بأن المالَ الذى يأتى عن طريقٍ غيرِ مشروعٍ كالرِّشْوةِ يُذْهِبُ البركةَ ، ويُفسِد الأخلاقَ ، ويهدمُ العفة والنزاهةَ ، ويُميتُ الضميرَ ، ويَجلِبُ غضبَ الربِّ سبحانه وتعالى وكيف لا يُبْغِضُ المؤمنُ الرشوةَ ونحوَها وهو يقرأُ قولَ الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (١)

كيف لا يُبْغِضُ المؤمنُ الرشوةَ وينزِّهُ نفسه عنها ، وهو يعلمُ أن المرتشِيَ إنسانٌ فَقَدَ حياءَهُ ومروءتَه وأمانتَه وأضاع ذِمتَه ، وأَيْقَظَ مَطَامِعَه ، وسيطرت عليه أهواؤُه وأغضب رَبَّهُ ، ولم يَرْعَ لأُمتِه حقوقَها وديونَها فى عُنُقِه .

إنَّ المالَ الذى يأتى عن طريقِ الرشوةِ حرامٌ يَذْهَبُ بالبركةِ ويسببُ الطردَ من رحمةِ اللهِ لفاعليه ، والساعين فيه .

---

(١) البقرة : ١٨٨ .

وقد جاءَ من الحديث الذى رُوى عن ابنِ مسعود رضى الله عنه موقوفًا بإسناد صحيح :

« والرشوةُ بينَ الناسِ سُحْتٌ » أَى حرامٌ يُهْلِكُ البركةَ .

أيها المؤمنون :

إن المؤمنَ يعلمُ تمامًا أَن الرشوةَ ما دخلتْ فى أمر إلا جعلت نُورَه ظلامًا وطريقَه قاتِمًا ، فالرشوةُ والعياذُ باللهِ ، تَطْمِسُ الحقَّ ، وَتَحْجُبُ العدْلَ ، وتكون سببًا فى ضَياع الحقُوق وإعطاءِ مَنْ لا يَسْتَحِقُّ ما ليس له ، كما أَن الرشوة تُساعدُ على إخفاءِ الجرائِم ، وتسترُ القبائحَ ، وتقلبُ الوقائعَ ، وبالرشوةِ قد يفلتُ المجرمُ ويُدَانُ البرىءُ ، ولهذا كانت الرشوةُ فى نظرِ أَهلِ الدنيا خيانةً وطنيةً ، وهى فى رَأْى الشرعِ إِثمٌ عظيمٌ ، وقد جاءَ فى الحديثِ الصحيح أَن رسولَ اللهِ ﷺ قال :

« لَعَنَ اللهُ الراشِىَ والمُرْتَشِىَ » .

والراشى هو الذى يُعطى الرشوةَ ، والمُرتشى هو الذى يأْخذُ الرشوةَ ، والمُرتشى ملعُونٌ ومطرودٌ من رحمة اللهِ ، وكذلك الراشى خصوصًا إذا قَصَدَ بتقديمِ الرشوةِ أَذيةَ مسلمٍ أَو الحصولَ على شىءٍ لا يَسْتَحِقُّه .

وقد جاءَ فى حديث آخر أَن اللعنة على الرائش أَيضا ، والرائشُ هو الشخص الذى يَسْعى بين الراشى والمرتشى لتسهيلِ توصيلِ الرشوةِ وما يتصلُ بذلك .

وما ذلك إلا لأَنَّ الرشوةَ خطرُها جسيمٌ ، وآثارُها قبيحةٌ على الفرد وعلى المجموع ، فهى قد تُقَدِّم غيرَ الكفءِ على الكفءِ ، وترفعُ الخاملَ ، وتخفضُ المجدَّ العاملَ فتساعدُ على إضعاف عزائم المجدِّين ، وعلى نشرِ الخمول والتراخِى فى أداءِ الأَعمال .

ولكي يزدادَ الأَثرُ القبيحُ للرشوة وضوحا علينا أن نتصورَ حراسَ الحدودِ لأُمةٍ من الأُمم يَقْبلون الرشوةَ من تجارِ الموادِّ المخدِّرة ومهرِّبيها إلى الداخل ـ مثلًا ـ ؟ فماذا يترتبُ على ذلك من المفاسدِ والجرائم ؟ . . . . كما علينا أن نتصورَ مرابطين على ثغورِ أُمةٍ من الأُممِ يقبلون رشوةً من أعدائِها ، ويسمحُون لهم ـ مثلًا ـ بالتقاط صورٍ ، أو الاطلاع على مواطنِ ضَعْفٍ ، أو الحصولِ على أيِّ معلومات ، نتصورُ هذا وما يترتبُ عليه من المفاسد والآثارِ البالغةِ السوءِ لندْرِكَ مَدى قبحِ الرشوةِ ، ومدى أهليةِ فاعليها ، والساعين فيها لَمَقْتِ اللهِ وغضبِه . . .

إن الرشوةَ ما دخلت عملًا إلا أفْسَدَتْه ، ولا قلبًا إلا أظْلمتْهُ ، ولا جَيْبًا إلا أفقرَتهُ ، ولا بَيْتا إلا خربتْهُ ، ما دخلت الرشوةُ على إنسان إلا بالخسارة وَنَزْعِ البَرَكَةِ .

إن المؤمنَ يتعفَّفُ عن الحرام ، ويكتفى بالحلال ، ويقنعُ برزقِه ، ويَرْضى بعطاءِ ربِّه ، ويقفُ عند حدود أمرِ اللهِ ونهْيِه ، محسنًا التوكلَ عليه وحدَه ، لأنه يعلمُ أنه سَيُحَاسَبُ على المالِ الحلالِ ، وسيعذَّبُ على الحرامِ ، ويؤمنُ بأَن المالَ يتخلَّفُ عن صاحبِه عند الموت ، وأنه لن يَصْحَبَه إلا عملُه ، ولن يرافقَه سِوى فعْلِه . . . كما أن المؤمنَ يعلمُ أن الدنيا ليست غايةً مقصودةً لذاتها وإنما هى مزرعةٌ للآخرة ، وسبيلٌ إليها ، فالحريصُ عليها ذليلٌ ، وآكلُ الحرام فيها مردودُ الدعاءِ لا تُفْتَحُ له أبوابُ السماءِ ، ، ويتوبُ الله على مَنْ تَاب ، فَفَضْلُه واسعٌ :

قال الحبيب المصطفى ﷺ : « لا دِينَ لِمَنْ لَا أَمَانةَ له ، ولا صَلَاةَ لِمَنْ لا عَهْدَ له » .

وقال : « مَنْ أَصَابَ مالًا من حرامٍ فوصلَ به رَحِمًا ، أو تصَّدقَ به أو

أَنْفَقَه فى سبيلِ اللهِ ، جَمَعَ اللهُ ذلك جميعًا ثم قَذَفَهُ فى النار » .

فطُوبى لمن تجنَّب الحرامَ ، وابتعد عن الشبهات وقنع بالحلال الطيب.

نسأَل الله التُّقى والهُدى والعفَاف والغِنَى ، واتقوا الله - عباد الله - وتوبوا إليه ، واستغفروه إنه تَوّابٌ غفَّارٌ رحيمٌ .

لِمَ شهدتم علينا ؟

﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللهِ إلى النَّار فَهُمْ يُوزَعُون ﴾ (١) .

هذا مشهد من مشاهد يوم القيامة ، يوم تُبْلَىٰ السرائر ، وتُكشفُ الخبايا حيث يُرَىٰ الذين كذَّبُوا رسلَ الله ، وخالفوا أمرَ الله ، يُسَاقون ويُدْفَعون إلى جهنَّمَ وقد أُوقِفَ أوائلُهم لتلحقُهم أواخرُهم .

وفى هذا الموقف العظيم يكون على المرءِ شاهِدٌ من نفسه ، يَنْطِقُ بما فعل ﴿ حَتَّى إذا ما جَاءوها شَهِدَ عليهم سَمْعُهم وأبصَارُهُم وجُلُودُهم بِمَا كانُوا يَعْمَلُون ﴾ (٢) .

وفى صحيح مسلم عن أنس بن مالك : كنا عند رسول الله ﷺ فضحك ، فقال : « هل تَدْرون مِمَّ أَضحكُ » ؟ قلنا : اللهُ ورسولُه أَعلمُ ، قال :« مِنْ مُخَاطَبة العبدِ رَبَّهُ يقول : يا ربّ ، أَلَمْ تُجِرْنى من الظُّلْم ، قال : يقول ، بَلَىٰ ، قال : فيقولُ فإنى لا أُجيزُ اليومَ على نفسى إلا شاهدًا منِّى ، قال : يقول : كَفَىٰ بنفسِكَ اليومَ عليكَ شهيدًا ، وبالكرام الكاتِبين شُهودًا ، قال : فيُخْتَمُ على فِيهِ ، فيقالُ لأَركانه : انْطِقِى ، فتنطقُ بأَعمالِه قال : ثم يُخَلَّىٰ بينَه وبينَ الكلامِ ، قال : فيقول بُعْدًا لَكُنَّ وسُحْقًا فعنكنَّ كنتُ أُناضلُ » .

وزيادة فى تبكيتهم يقال لهم : إنكم ما كنتم تتقُون فى الدنيا أن تشهدَ عليكم جوارحُكم فى الآخرة فتتركوا المعاصِىَ خوفًا من الشهادة ، أو ما كنتم تظنون ﴿ أَنْ يَشْهدَ عليكُم سمعُكم ﴾ بأَن يقول : سمعتُ

---

(١) فصلت : ١٩ .

(٢) فصلت : ٢٠

الحقَّ وما وعيتُ وسمعتُ ما لا يجوزُ من المعاصى ، ﴿ولا أَبصارُكم﴾ فتقول : رأَيتُ آياتِ اللهِ وما اعتبرتُ ونظرتُ فِيما لا يجوز ، ﴿ ولا جلودُكم ﴾ فتقول أَجزاءٌ منها : بَاشَرْتُ المَعَاصِى : ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُم عَلَيْنَا قَالُوا : أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُون ﴾(١) .

أَى أَن الله هو الذى ركَّبَ الحياة فيكم بعد أَن كنتم نُطَفًا فَمَنْ قَدَر على ذلك قَدر على أن يُنْطق الجلودَ وغيرَها من الأَعضاء .

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُون أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُم وَلَا أَبْصَارُكم وَلَا جُلُودُكُم وَلَكِنْ ظَنَنْتُم أَنَّ اللهَ لا يعلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُون * وَذَلِكُمْ ظَنُّكم الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُم أَرْدَاكُم فَأَصْبَحْتُم من الخَاسِرِين ﴾(٢) .

فليتق المرءُ ربه ، وليخش يومًا تُبلى فيه السرائر ، وتكشفُ الخبايا ولا يستطيعُ العبد جحود ذنوبه إذ تشهد عليه الأَرض ، وتشهد الأَيام والليالى ، وتشهد الجوارح ، وما أَحسن قول من قال :

العُمْرُ يَنْقُصُ والذُّنُوبُ تَزِيدُ ... وَتُقَالُ عَثَرَاتُ الفَتَى فَيَعُودُ
هَلْ يَسْتَطِيعُ جُحُودَ ذَنْبٍ وَاحِدٍ ... رَجُلٌ جَوَارِحُهُ عَلَيْهِ شُهُودُ
وَالمَرْءُ يُسْأَلُ عَنْ سِنِيه فَيَشْتَهِى ... تَقْلِيلَهَا وعن المَمَاتِ يَحِيدُ

وعن معقل بن يسار عن النبيّ ﷺ قال : « لَيْسَ من يوم يَأْتى على ابنِ آدمَ إِلَّا ويُنادى فيه : يا ابنَ آدمَ أَنا خَلْقٌ جَدِيدٌ ، وأَنا فيما تعملُ غداً عليكَ شهيدٌ ، فاعْمَلْ فىَّ خيراً أَشهدْ لكَ بهِ غداً ، فإِنى لو قد مضيت لم تَرَنِى أَبداً ، ويقول الليل مثل ذلك » .

(١) فصلت : ٢١ .
(٢) فصلت : ٢٢ و ٢٣ .

ولنتدبر صورةً من صُور الموقف العظيم وفيها يقول الرب لعبدٍ من عباده : « أظننتَ أنكَ مُلاَقِيَّ ، فيقول : أي ربّ ، آمنتُ بك وبكتابِك ، ورسلِك ، وصلَّيتُ وصمتُ وتصدَّقتُ، وَيُثْنِي(١) بخيرٍ ما استطاع . فيقول : أَهَا هُنَا مَنْ يَشْهدُ لك ؟ فيقول : لا . فيقول : الآنَ يُبْعَثُ عليكَ شاهدٌ ، فيتفكّر في نفسه : مَن ذا الَّذي يشهدُ عَلَيَّ ؟ فَيُخْتَمُ علىٰ فِيه ، فيُقال لفَخِذِه : انْطِقِي : فتنطق فَخِذُه ولحمُه وعظامُه بعملِه ، وذلك لِيُعْذر من نفسِه — أي ليزيلَ اللهُ عذرَهُ من قِبَلِ نفسِه بكثرةِ ذنوبهِ ولشهادةِ أعضائهِ عليه بحيثُ لم يبقَ له عذرٌ — وذلك المنافقُ وذلك الذي سَخِطَ اللهُ تعالى عليه » .

فعلى المؤمن أن يحذر أعمال المنافقين وصفاتهم فهم لا يُخلصون العمل لله عز وجل ، وإنما يعملون للدنيا : حتى العبادات يؤدونها لغرض دنيوى ، لهذا كثرت معاصيهم وجرأتهم على اقتحام حدود الله .

وعلى المؤمن أن يبادر بفعل الخيرات ، وأن يكثر من الصالحات وأن يتوب من ذنبه ، ويندم على ما فرط منه عسى أن يبدل الله سيئاته حسنات ، وأن يوفقه لأداءِ الطاعات ، ولا يرجئُ التوبة وفعل الخير إلى غد ، فالإنسان لا يضمن الغد وما أحسن قول من قال :

مَضَىٰ أَمْسُكَ الأَدْنَىٰ شَهِيدًا مُعَـدَّلاً ويومُك هَذَا بالفِعَالِ شَهِيـدُ(٢)
فإن تكُ بالأَمسِ اقترفتَ إساءَةً فَثَنِّ(٣) بإحسانٍ وأَنتَ حَمِيدُ
ولا تُرْجِ فِعْلَ الخيرِ منك إلى غَدٍ لَعَلَّ غَـدًا يأْتِي وأنتَ فَقِيدُ(٤)

واعلم — أيها المؤمن — أنك مُطَالَبٌ بشكر المنعم على كل نعمة له ،

(١) يثنى : يمدح .
(٢) شهيداً معدلا : أى شاهداً مقبول الشهادة لعدله .
(٣) فثن : أى اجعل الثانية بمعنى اتبع السيئة الحسنة تمحها .
(٤) ولا ترج : أى لا ترجئ وتؤخر .

مطالب بشكر الحواس والطعام والشراب وما نَعِمْتَ به فى حياتك قبلَ أن تُسأَل عنها وتُحاسَب ، ولنتدبر الحديثَ الذى رواه أبو سعيد وأبو هريرةَ رضىَ الله عنهما قالا : قال رسول الله ﷺ : « يُؤْتَىٰ بالعبدِ يومَ القِيامة فيقول الله تعالى له : أَلَمْ أَجْعَلْ لك سَمْعًا وَبَصَرًا ومالًا وولداً وسَخَّرتُ لك الأَنعامَ والحرثَ ، وتركْتُكَ تَرْأَسُ وتَرْتَعُ ، أكنتَ تَظنُّ أَنَّكَ مُلَاقِيَّ يومَك هذا ؟ فيقول : لا . فيقول له : اليومَ أَنساكَ كما نَسِيتَنى ».

فالعاقل لا ينسى حقوق ربه ، ولا يغفل عن ذكره وشكره ولا ينى عن طاعته ، ويراقب الله فى السر والعلن مؤمنا أَن الدنيا إلى زوال وأَن المرءَ محاسَب على كل صغيرة وكبيرة، وأنه فى حاجة إلى رحمة ربه يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلَّا من أَتى الله بقلب سليم ، ولا ينبغى للعاقل أَن تلهيه الأَمانى حتى يخرج من الدنيا ولا حسنة له اتكالا على المغفرة والرحمة بدون عمل ، فهؤلاءِ هم المفاليس بعد الدنيا كما يقول عمر رضى الله عنه . ثمّ تلا : ﴿ وَذَٰلِكُم ظَنُّكُمْ الَّذِى ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِّنَ الخَاسِرِينَ ﴾(١) .

وفى الحديث : « لَا يَزولُ قَدما عَبدٍ يومَ القِيامةِ حتى يُسْأَلَ عن أَربع : عن عُمره فِيما أَفناه ، وعن عِلْمِه ما عَمِلَ به ، وعن مالِه من أَينَ اكتَسَبَهُ وفيما أَنفقه ، وعن جسمِهِ فيما أَبلاه » .

نسأَلُ الله التوفيق لما يحبه ويرضاه ، واتقوا الله ــ عباد الله ــ واخشَوا غضبه وانتقامه من العصاة ، وتوبوا إليه فإنه سبحانه توابٌ رحيمٌ.

(١) فصلت : ٢٣ .

رعاية اليتيم ومسؤوليتنا عنه

قال الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عن الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُم ، وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « أَنَا وكافِلُ اليَتِيمِ فِى الجَنَّةِ هكذا ـ وأشارَ بإِصْبعيه السبابةِ والوسطى ـ».

أيها المؤمنون :

اليتيم هو من فقد والده صغيراً ، فالآجال بيد الله سبحانه وتعالى يقبضها حيث يشاءُ ، وقد يموت الرجل عن أطفال قصَّر وعيال رضع ، فيحرمون من عطف الأُبوة وحنانها وهم صغار ضعاف فى حاجة إلى المعين والراعى والمجير .

هؤلاء اليتامى هم أَحقُّ الناس بالشفقة ، وأولاهم بالحبِّ والرعاية ، حيث فقدوا المعين وتعرَّضوا للذلِّ المؤلِم والحِرمان المُهين ، لذلك أوصى الله سبحانه وتعالى خيراً باليتامى وأمرنا بالإِحسانِ إليهم ، وحُسنِ التصرُّفِ معهم ، والمحافظةِ على أموالهم والقيامِ على تربيتهم ، والعنايةِ بتهذيبِ نفوسِهم ، حتى يكونوا أفراداً نافعين ، وأعضاء فى المجتمع صالحين .

فما أَجدر اليتيمَ بالرعاية والعطف والشفقةِ والبر ، إنه إنسانٌ صغيرٌ حُرِم من حنان الأَب وهو فى مطلعِ حياته ، إنه طفلٌ لا يُصْلِحُه إلَّا السرور ، والمرحُ والهدايا والبشاشةُ والرحمةُ ، فطوبى لمن يُعَوِّضُهُ حنانَ الأَبِ ورقَّتَه ورحمتَه .

---

(١) البقرة : ٢٢٠ .

لقد عنى القرآنُ الكريمُ بأمر اليتيمِ أشدَّ عنايةٍ مستقصياً أحوالَه مُبيناً أحكامَه ، وجاء ذلك فى آياتٍ كثيرة .

أمرَ بالإحسانِ إليه ، والرفقِ به والعطف عليه ، فقال تعالى : ﴿ واعْبُدُوا اللهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وبِذِى القُرْبَىٰ والْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ الآية(١) .

وذكَّرَ النبيَّ ﷺ بأنه كانَ يتيمًا ، يستثير بهذا التذكير عطفَه وعطفَ المسلمين على اليتامى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيما فآوى ﴾(٢) .

ونهانا الله عز وجل عن إذلال اليتيم وإهانته فقال : « فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾(٣) . أى فلا تُذِلَّه ولا تتكبرْ عليهِ ولا تحقره ، بل المطلوب من المؤمن أن يحنُو على اليتيم ويرْأفَ بحاله ويرفعَ نفسَه بالأدبِ ، ويهذبه بمكارمِ الأخلاقِ ، ليكونَ عضواً نافعاً فى الجماعة المسلمة .

وقد جعل القرآنُ الكريمُ زجْرَ اليَتيم وتعنيفَه والتعاظمَ عليه من التكذيب بالدين وعدمِ التصديقِ وضعف اليقينِ ، ولنتدبر قولَ الحق تبارك وتعالى : ﴿ أرأَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّين * فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ اليَتِيمَ * وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ المِسْكِينِ ﴾(٤) .

و ﴿ يَدُعُّ اليتِيم ﴾ أى يدفعُه ، ويزجره زجراً عنيفًا إذا جاء يطلب منه حاجةً احتقاراً له واستهانة بأمره وتكبُّرا عليهِ لِفَقْدِه النصيرَ ، وخلوِّ ظهرِه من المُجير ، واليتيمُ مظهر الضعفِ والحاجةِ ، فالمستهينُ به قاسٍ مستهينٌ بكل ضعيفٍ ، محتقرٌ لكلِّ محتاجٍ ، مخدوعٌ بدنياه ، لاهٍ عن يوم الدين .

---

(١) النساء ٣٦
(٢) الضحى ٥
(٣) الضحى ٧
(٤) الماعون ١ — ٣ .

وقد وبَّخ القرآنُ أقواما وبَيّنَ فَسَادَ مُعْتَقداتِهم ، وسوءَ مسالِكِهم لأَنهم لا يُكْرِمون اليتامى ، ولا يرغِّبُ بعضُهم بعضًا فى العطفِ على الضعيف وإطعام المسكين . . ولنتدبر قول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُون الْيَتِيمَ * ولا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِين ﴾(١) .

وكأَن الآيات تقول لهؤلاءِ : إذا لم تُكْرِموا اليتيم ، ولم يوصِ بَعْضُكم بعضًا بطعامِ المسكين ، فقد كذبت مزاعمكُم فى أنكم من قوم صالحين .

وقد أمر القرآنُ بإصلاحِ اليتيمِ فى كافةِ أحوالِهِ ، فى نفسِه ، وفى خُلقه ، وفى تربيتِه وتعليمه وبإصلاحه فى ماله .

يقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامىٰ قُلْ إِصلاحٌ لَهُمْ خَيْر ﴾(٢) .

أى العمل على إصلاحِ أحوالِهم بالتربية والتهذيب وبالتدريب لاكتسابِ الخبرةِ وتنميةِ أموالهم وتثميرِها بالطرق الشرعية ونحو ذالك مما يعودُ على اليتيم بالصلاح فى نفسه وجسمه وغير ذالك .

يا وصِيًّا صُن الموصَّى عليه فى جميع الأُمور كى لا تُضاما
عَلِّموهم وبالغُوا فى هداهم إن حفظ اليتيم صار لِزاما

عباد الله :

واللهُ الذى حرَّم إهانةَ اليتيم بكلمةٍ ، حرَّم بالأَولى مالَهُ ، ومالُ اليتيم أَولى بالرعاية والحفظِ والاستثمار .

قال تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيم إِلَّا بِالَّتِى هِىَ أَحْسَن حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّه ﴾(١) .

ومعناها : النهى عن قربان مال اليتيم بأَى نوع أو حال من حالات القربان اللهم إلَّا عند السعى لاستثمار مال اليتيم واستعماله على وجه هو أحسن الوجوه بما ينفع اليتيم فى حاضره ومستقبلِه ، كالإنفاق منه على

(١) الفجر ١٧ ، ١٨
(٢) البقرة ٢٢٠ .
(٣) الأنعام ١٥٢

تربيته وتعليمه وكحفظ ماله باستثماره فى زراعة أو صناعة أو فى تجارة .

أما إهمال شأن اليتيم ، وإهمالُ ماله ، وتجميده أو الإسرافُ فيه بما لا يكسبُه خيراً ، ولا يدفعُ عنه شرًّا فذلك مُحَرَّمٌ ومنهىٌّ عنه .

قال تعالى : ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وبدارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوف فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُم فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِم وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾(١) .

وفى التحذير من أكل أموال اليتامى يقول سبحانه :﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إنه كَانَ حُوبًا كَبِيراً ﴾(٢) أى إثماً عظيما .

ثمّ يحذِّرُ القرآنُ المسلمين من إهمال شأن اليتيم فيأمر الأوصياء أن يعنوا باليتامى كما يعنون بأولادِهم وكما يحبون أن يُصان أولادهم من بعدهم .

﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيهم فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾(٣) .

وأوحى الله عز وجل إلى داود عليه السلام : يا داودُ كُنْ لليتيم كالأب الرّحيمِ ، وكن للأرملة كالزوجِ الشفيق ، واعلم أنك كما تزرع تحصد .

ثمّ ينذر الطامعين فى أموال اليتامى بنارٍ تتلهب فى بطونِهم وبتسخينِ جسومِهم بنار جهنَّم ، ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سعِيرًا ﴾(٤) .

---

(١) النساء ٦
(٢) النساء ٢
(٣) النساء ٩
(٤) النساء : ١٠ .

وفى التحذير من ظلم اليتيم قيل :

يَا وَصِيًّا عَلَى اليَتَامَى أَكُولاً ... كُلَّ مالِ اليَتِيم أَكْلاً حَرَاما
جِئْتَ إِدًّا وعن قريبٍ ستفنى ... والذرارىُّ تلقَى خُطوبًا جِساما
ويقولُ الأَنامُ ظُلمُ أَبِيكم ... كابِدُوه وأنتَ تَصْلَى ضراما
وأنت والموتُ تقسوان عليهِ ... أيها الناسُ رحمةً باليتامى

قال السدّى : يُبعث آكلُ مالِ اليتيمِ يومَ القيامة ، ولهبُ النار يخرجُ من فيهِ ، ومن سمعه ، وأنفه ، وعينيه ، يعرفه من رآه بآكلِ مال اليتيم .

هذه بعضُ مظاهر عناية الإسلامِ باليتيم : عُنِى به من جهةِ ذاته ، فنهى عن ازدرائِه واحتقارِه وإهانتِه ، وعُنِى به من جهةِ مالِهِ فأَمر بالمحافظةِ عليه واستثمارِه وبإعطائِهم أموالهم كاملةً عند بلوغهم ، وعُنِى به من جهةِ تربيتِه وتمرينِه على التصرُّفِ بما ينفعُه حتى يبلغَ أَشُدَّه . . فطُوبى لمن اتَّقَى اللهَ فى اليتَامى ، وأَحسن إليهم وأكرمهم .

ومِمَّا أَوحى اللهُ إلى يعقوب عليه السلام : « إِنِّى لم أُحِبَّ شَيْئًا من خَلْقِى حُبِّى اليتامى والمساكين » .

قال رسولُ الله ﷺ : « مَنْ قَبَضَ يَتِيمًا من بين مُسْلِمَين إلى طعامِهِ وشرابِهِ أَدخله اللهُ الجنَّة أَلبتَّةَ إلا أَن يعملَ ذنبًا لا يُغْفَر » .

وقال ﷺ : « مَنْ عَالَ ثَلَاثَةً من الأَيتامِ كانَ كَمَنْ قَامَ لَيْلَهُ وصامَ نهارَه وغدا وراح شاهراً سيفَه فى سبيل الله ، وكنتُ أَنا وهو فى الجنةِ أَخوان كما أَن هاتين أُختان — وأَشار بالسبابة الوسطى — » .

فاتقوا الله فى اليتامى ، واخشوه ، وراقبوه فى كل قول وعمل ، وتوبوا إليه سبحانه توبة نصوحاً ، فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له .

للخطبة الثانية :

إنَّ إكرامَ اليتيم فى بيتٍ مسلمٍ يسبِّبُ البركة .

فعن أبى موسى رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « ما قعد يتيمٌ معَ قوم على قصعتهم ، فيقربَ قصعتهم شيطانٌ » . والبيت الذى يُكرِم اليتيمَ يكونُ موضعَ رحمةٍ من الله ورعايته .

فعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « إنَّ أَحَبَّ البُيُوتِ إلى اللهِ بَيْتٌ فيه يَتيم مُكْرَم » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبىّ ﷺ قال : « خَيْرُ بَيْت فى المُسْلِمينَ بَيْتٌ فِيهِ يَتِيمٌ يُحْسَنُ إليهِ ، وشَرُّ بَيْتٍ فى المُسلمين بيتٌ فيهِ يَتِيمٌ يُساءُ إليهِ » .

والعطف على اليتامى يُهذبُ النفوس ويرقق القلوبَ القاسية ، فقد روى أبو هريرة أن رجلًا شكا إلى رسول الله ﷺ قسوةَ قلبه ، فقال : « امسَحْ رَأْسَ اليَتيم وأَطْعِم المسْكِينَ » .

ويحذِّرُنا الحبيبُ الهادى من أن نكونَ سببًا فى بكاءِ يتيم ، فيقول ﷺ : « إيَّاكُمْ وَبُكَاءَ اليَتيم فإنَّهُ يَسْرِى فى الليل والنَّاسُ نِيامٌ » .

عن عمرو بن دينار عن جابر رضى الله عنه : أن رجلا قال : يارسول الله ، فيم أضرب يتيمى ؟ قال : « ما كنتَ ضاربًا منه وَلَدَكَ ، غيرَ وَاقٍ مالَكَ بمالِهِ ، ولا مُتَأَثِّل(١) منه مالًا » .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « اجتنبوا السبع الموبقات ! قيل : وما هن ؟ قال : الشركُ بالله ، والسحرُ ، وقتلُ النفس التى حرَّم الله إلَّا بالحقِّ ، وأكلُ الربا ، وأكلُ مالِ اليتيم ، والتولِّى يومَ الزحف ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ الغافلات » .

---

(١) المتأثل : الجامع .

يا معاذ أحسن خلقك للناس

أيها المؤمنون :

أثنى الله عز وجلّ على نبيِّه وخاتم رسله محمد ﷺ فقال له :
﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(١) .

والخلقُ العظيم الذى أثنى الله به عليه هو أدبُ القرآن الذى ظهر فى مَنْطِقه ﷺ ، وفى مَسَالِكه ، وفى معاملاتِه للقريب والبعيد ، وفى رِفْقه بأُمَّته وإكرامه إياهم ، وفى سَعةِ صدره وَحِلْمِه ، وفى سهولة طبعِه ، وانبساط وجهِه للناس ، وفى إقباله على محدِّثه بذوق رفيع وأدب عالٍ ، كما ظهر الخلق العظيم فى عَفْوه عند القُدرة ، وفى صلتِه مَن قَطَعه ، وفى تواضعه للفقير والمسكين والأرمل واليتيم ، كما ظهر الخلق العظيم فى مشاركته ﷺ أهلَه فى مهنتهم ، ورفقِه بِخَدَمِه ومعاونتهم بنفسِه فى أعمالهم . . فقد جمع الله عز وجل لنبيِّه فى نفسه العظيمة كلَّ محاسن الآداب ، ومكارم الأخلاق .

ولذا فإن أُم المؤمنين عائشة رضى الله عنها حين سُئلت : كيفَ كانَ خلُق رسول الله ﷺ ؟ قالت : كانَ خُلُقُه القرآنَ . ولما سألَها ابنُ أُختها عن خلقه ﷺ ، قالت له : أَمَا تقرأُ سورةَ « المؤمنون » ؟ . قال : بلى . قالت : اقْرَأْ . فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم :﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ

---

(١) القلم ٤

وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ العَادُون * وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِم وَعَهْدِهِمْ رَاعُون * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوٰتِهِمْ يُحَافِظُون * أُولَٰئِكَ هُمُ الوَارِثُون ﴾(١) .

فلما وصل إلى هذه الآية قالت له عائشةُ : هكذا كانَ خلقُ رسولِ اللهِ ﷺ .

وحين نزلت هذه الآياتُ من سورة « المؤمنون » استقبل رسولُ اللهِ ﷺ القبلة ، ورفع يديه وقال : « اللهُمَّ زِدْنَا وَلَا تُنْقِصْنا ، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تُهِنَّا ، وَأَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا ، وَآثِرْنا وَلَا تُؤْثِرْ عَلَيْنَا ، وارْضَ عَنَّا وَأَرْضِنا ، ثمّ قال : لقد أُنزِل عليَّ عشرُ آياتٍ من أقامهنّ دخل الجَنَّةَ » .

وفى هذه الآيات تشويق للمؤمنين الصالحين الصادقين للتحلى بأعظم الفضائل التى تُسعد المؤمن فى حياته الدنيوية ، وتُؤهِّلُه للسعادة الأُخروية ، فمن أقام هذه الفضائل وحققها فى نفسه فاز ونَجا .

فقد تضمّنت الآيات تشويقَ المؤمنين للخوف من اللهِ وخشيتِه ، وذلك بطاعتِه والخشوعِ والخضوعِ والتذلُّلِ بينَ يديه . كما شوقت إلى عفةِ اللسانِ وَجِدِّيته فلا ينطقُ إلا بخير ولا يقول إلّا حقًّا وحُسْنا ، وإلى السخاءِ والجودِ وبذلِ المالِ فى وجوهِ الخيرِ ، كما حرّضت الآياتُ على طهارةِ الذَّيْلِ وحفظ الفروجِ من الحرامِ ، وعلى الوقوفِ عند حدودِ اللهِ فى الحلال والحرام ، وأعْلَتْ الآيات أيضاً من شأْن الأمانة بحفظها ورعايتِها ومن شأْن العهود والمواثيق وضرورة رعايتِها والوفاء بها ، كما أَكّدت فَضْلَ الصلاة ولزوم المحافظةِ عليها بأَدائها فى أَوقاتها والمداومة عليها .

---

(١) المؤمنون ١ — ١٠

أيها المؤمنون :

إنَّ المتدبرَ لهذه الآياتِ من سورةِ « المؤمنون » يرى أنها جمعت خَيْرَى الدُّنيا والآخرةِ ، ولهذا لفتَ المصطفى ﷺ أمتَه إلى أنَّ مَنْ عمِل بما جاءَ فيها كان من أهل الجنة .

ونحن — المسلمين — قد أُمِرْنا بالاقتداءِ بالنبيِّ ﷺ ، فهو أسوتُنا الحسنة ، وقدوتنا الطيبة ، فى عباداته ، وأخلاقه ، ومسالكه التى أثنى اللهُ عليه بها ، فقد سُمِّيَ خُلقُه عظيا ، لأن مكارمَ الأخلاق اجتمعت كلُّها فى نفسِه الطاهرةِ ، وقد قال ﷺ : « إنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْـلَاق » .

وما أحوجَنا إلى مكارم الأَخلاقِ ، ومحاسنِ الآدابِ ، فهىَ زينةُ المؤمن ، ودليلُ حسنِ إيمانهِ ، وأكْمَلُ المؤمنين إيمانًا أحسنُهم خُلُقًا ، كما قالَ الحبيبُ المصطفى ﷺ .

وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال : « أَدَّبَنِى رَبِّى تَأْدِيبًا حَسَنًا » إذ قال : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾(١).

وهذه الآية الكريمة موجزة اللفظ ، ولكنها عظيمة المعنى ، سامية فى مراميها ، وما اشتملت عليه من آداب وفضائل ، ففيها حثٌّ على العفو عمن أساءَ وعلى الرفق بالمؤمنين والتواضع لهم وذلك فى قوله : ﴿خُذ العَفْو﴾ أما قوله تعالى ﴿وأْمُر بالعُرف﴾ فقد تضمن الحضَّ على صلةِ الأَرحام ، وعلى تقوى الله فى الحلال والحرام ، والتعاونِ على نشر الخير وقمعِ الشر ، ثم تحضُّ الآية على التخلُّق بالحِلم ، وتجنُّب السفهاء والأَشرار والتنزُّه عن منازعتهم بقوله تعالى : ﴿وأَعْرِض عن الجاهلين﴾

---

(١) الأعراف ١٩٩

فباتِّباع ما تدعو إليه هذه الآيةُ الكريمةُ يعيشُ المؤمنُ وَقُورًا حَلِيمًا مَحْبوبًا داعِيًا للخيرِ مُبْغِضًا للإثم والشر، مُقَرَّبًا من ربه سبحانه وتعالى .

وورد أن جبريل عليه السلام قال للنبي ﷺ فى هذه الآية : « إن اللهَ تعالى يأمرك أن تَعْفُو عمَّن ظَلَمَك ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ ، وتَصِلَ مَن قَطَعك » .

أيها المؤمنون:

إن سعادةَ الفردِ والجماعةِ مقترنةٌ بحسنِ الخُلُقِ ، وإن الشقاء إنما يكونُ إذا ساءَ الخلقُ ،لذا فقد بَنَى الإسلامُ للفضائِل العاليةِ والأخلاقِ الكريمةِ صرحًا عاليًا ، وجعل الخُلقَ الكريمَ من أسبابِ رحمةِ اللهِ بالمؤمنِ وقُرْبِه من الحبيبِ المصطفى ﷺ يومَ القيامة .

وفى الحديث الذى رواه أبو الدرداء رضى الله عنه يقول النبي ﷺ : « ما مِن شيء أثقلَ فى ميزانِ المؤمنِ يوم القيامةِ من خُلُقٍ حَسَنٍ ،وإنَّ الله تعالى لَيُبْغِضُ الفاحشَ البَذِيءَ » .

وسُئِل رسولُ الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة فقال : « تَقْوىٰ اللهِ وحسنُ الخُلق » .

ومن حُسْن الخلق الكرمُ والسخاءُ والبشرُ وطلاقة الوجه، وكفُّ الأذى واحتمال ما يكون من الناس ، وكظمُ الغيظ لله، ولينُ القول ، وكلُّ عمل من أعمال المروءةِ التى تدلُّ على علوِّ الهمَّةِ وَكَرَمِ الشمائِل .. وهذا أبو جُرَىّ يسأل رسولُ الله ﷺ أن يعلمَه شيئًا ينفعه اللهُ به فقال له : « اتَّقِ اللهَ ، ولا تحقِرَنَّ من المعروف شيئًا ، وأن تَلْقَىٰ أخاك بوجْه مُنْبسط، وأن تُفرغَ مِن دَلْوِكَ فى إناءِ المُستسقى ، وإن امْرُؤ سَبَّك بما لا يعلمُ منك فلا تَسُبَّه بما تعلمُ فيه ، فإن اللهَ جاعلٌ لك أجرًا ، وعليه وزرًا ، ولا تَسُبنَّ شيئًا مِمَّا خَوَّلَكَ اللهُ تعالى » .

قال أبو جُرى : فوَالَّذِى نفْسى بيده ما سببتُ بعده شاةً ولا بَعِيراً .

نسأَلُ الله عز وجل أن يرزقنا حسن الخلق ، واتقُوا الله ـ عبادَ الله ـ وسلوه من فضله فإنَّ الله يحبُّ أن يُسْأَل ، وتوبوا إليه توبةً نصوحًا فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له .

* * *

الخطبة الثانية :

ومن الوصايا الجامعةِ التى ينبغى لنا أن نتدبرَها وأن نحققَها فى نفوسنا ومَسَالِكنا قولُ نبيِّنا ﷺ : « أمرنى ربِّى بِتِسْع : الإخلاصِ فى السر والعلانية ، والعدلِ فى الرضا والغضب ، والقصدِ فى الغنى والفقر ، وأن أعفوَ عمّن ظلمنى ، وأصِلَ مَن قطعنى ، وأُعطِيَ من حَرَمنى ، وأن يكونَ نُطْقى ذِكرًا ، وصَمْتِى فِكْرًا ، ونَظَرِى عِبْرَةً » .

وكان من دعاءِ النبي ﷺ : « اللهمّ حَسِّنْ خُلُقِي كما حَسَّنْتَ خَلْقِي » .

وفى الحديث الذى رواه جابر يقول النبي ﷺ : « إن من أَحَبِّكم إلىّ وأَقربِكُم منِّى مَجْلِسا يومَ القيامةِ أَحاسِنَكُم أَخلاقًا ، وإنَّ أَبغضَكم إلىّ وأَبعدَكم مِنِّى مجلسًا يومَ القيامةِ الثرثارونَ والمتشدِّقُون والمتفَيْهقُون » ، قالوا يا رسولَ الله ما المتفيهقون ؟ قال : « المتكبِّرون » .

الخمر أمُّ الكبائر *

الحمد لله الذى أنعم على عباده بنعمةِ العقلِ والإدراكِ ، والصلاةُ والسلام على سيدنا محمدٍ قَطَع أسبابَ الفسادِ والهلاك ، أحمدُ الله تعالى وأستغفره ، وأشهدُ أن لا إله إلا اللهُ أَمرَ بحفظِ العقولِ ، والأبدانِ ، والأموالِ ، وأشهدُ أن محمدا رسول اللهِ حذَّرنا طريقَ الضلال ، صلى الله على سيدنا محمد وآله وأصحابه الأبطال .

أما بعد : فيا أيها المؤمنون :

الإنسان فى الدنيا سلاحُه عقلٌ سليم ، وصحةٌ قوية ، ومالٌ يغنيه ، وكرامةٌ وشرفٌ يُعليه ، والدينُ حارسٌ على أتْباعِه ، حريصٌ على سعادتِهم ، حَرَّمَ عليهم ما يضُرُّ بعقولهم وأبدانِهم ، ويُذْهِبُ أموالَهم وشرفَهم ، ولكن الشيطانَ يُغرى الناسَ بالمحرَّم الممنوع ، والنفسَ تتشوقُ للبعيد ، ولو كان فيه هلاكُها ودمارُها فى الدنيا ؛ وعذابُها وسعيرُها فى الأُخرى ، حرَّم اللهُ شُرب الخمر لإفسادِها العقولَ ، وضياع الأموالِ وتهدُّمِ الأبدان ، وفقدانِ الكرامة ، وتدهورِ الأخلاق ، فمُدمِنُ الخمرِ مآله للخبل والجنونِ ، والفقرِ والحاجة ، والضعفِ والعلل ، وكم من رجلٍ مُجِدٍّ نافع أرسلته الخمورُ لمستشفى المجانين ، وكم من بيوتٍ أُغلقت ، وعائلات تعذبت وتَشرَدَت ، لأَن كبيرَها عاقر الخمرَ ، وترك أهلَه فى حاجة للخبز المجرد ، والقوتِ الضرورى ، وكم من رجالٍ

* مختارة من مجموعة خطب الشيخ محمود على أحمد خطيب مسجد الرفاعى بالقاهرة فى العقد السابع من القرن الرابع عشر الهجرى والعقد الخامس من القرن العشرين الميلادى وكان رحمه الله من أفاضل الوعاظ والخطباء .

أشداء أقوياء هدمتهم الخمرُ وطحنتهم ، فصاروا مجمعًا للعلل ، وكشكولًا للأسقام ، كم من رجل فاضلٍ صيَّرته الخمرُ سفيها بذيئًا ، لا يستحي من أقبح القولِ .

حرم الإسلامُ الخمرَ ليمنعَ التباغضَ والتقاتلَ ، فإن السكِّير يسبُّ ويلعنُ ويُؤذي ويَضْرب ويعتدي على عفاف النساءِ فيزني ويفسُق ، وإنْ لزِم الأمرُ يسرقُ وينهبُ ، ويقتلُ النفسَ التي حرمها الله ، فتكون الجرائمُ والمصائبُ والنزاعُ والعداوةُ ، والتقاطعُ الممقوت ؛ حرم الدينُ الخمرَ لأنها تُنسى ذِكْرَ الله ، وكيف يذكرُ اللهَ شخصٌ يَنْسى نفسَه وكرامتَه ، يَنْسَى بيتَه وأولادَه ، ينسى واجبَه ودينَه . حرم الدينُ الخمرَ لأنها تصدُّ عن الصلاةِ ، وهي عمودُ الدين وعلامةُ الإيمان . ﴿ يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا إنما الخمْرُ والميسِرُ والأَنصْابُ والأَزْلام رجسٌ مِّنْ عَملِ الشيطانِ فاجتنبوهُ لعلكمْ تفلِحونْ * إنما يريدُ الشيطانُ أنْ يوقِعَ بَيْنَكُمُ العَداوةَ والبغضاءَ في الخمْرِ والميسِرِ ويَصدَّكمْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وعَنِ الصَّلاةِ فهل أنتُمْ مُّنْتهون ﴾ (١) ، متى سَكِر المرءُ وانتشى ، فلا يبالي بما يقول ولا بما يفعل ، ولا يبالي بزني ولا بفاحشة ، ولا يعبأُ بعِرْضٍ أو عفاف ، فالسكيرُ لا يتعففُ عن منكر ، ولا يخجلُ من تهتك .

عباد الله :

قال عليه السلام : « الخمْرُ أُمُّ الخبائثِ » .

يقول السكارى إن الخمر تُذْهِبُ الهمومَ والأحزانَ ، وتجلبُ المسرةَ والفرحَ ، وفاتهم أنه فرحٌ مزيفٌ مغشوش ، وسرورٌ كاذب ، يعقُبه هبوطٌ وحسرة ، وركودٌ وذلة : وهل خُلِقَ الرجلُ ليفرَّ من الهموم ،

---

(١) المائدة ٩٠ ، ٩١

فيقع فى محرم يضاعفُ هَمَّه ، ويزيدُ غَمَّه ، يقولون إنها تُقَوِّى الجسمَ ، وتفيدُ الصحة . وتُحْدِثُ فى الوجه احمرارًا ونضرة ، وفاتهم أن للخمر ردَّ فعلٍ يصحبُه اصفرارٌ وهُزال ، وقىءٌ وكسل ، وفاتهم أن الطبَّ أثبت أن الخمرَ سببٌ لالتهاب الكبد ، والكلى ، والشللِ ، والصرعِ ، والجنونِ ، وضعفِ النسل ، دخلت الخمرُ القرى فانصرف الفلاحُ والمزارع عن الرى والحرث ، دخلت الخمرُ قلوبَ العمالِ والصناعِ ففترت الهممُ ، وانحلت عزائمُ الرجال ، فقلَّ الإنتاج ، وضعفت حركةُ التعامل ، لذلك كانت أُمَّ الكبائر ، وأُمَّ الخبائث ، أوجب فيها الدينُ ثمانين جلدةً زجرًا وردعًا ، وحفظًا للعقول والأموال ، والأخلاقِ والأعراضِ ووقايةً وصونًا « ضربَ رسولُ الله فى الخمر بِالجريد والنعالِ ، وجلدَ أبو بكر أربعين » ، يقولون ليس فى الدين ذكر للكنياك والوسكى والشمبانيا ، ودينُنا يضعُ الأُصولَ لتشملَ الفروعَ ، ويضعُ القواعدَ العامةَ ، ويحرمُ الشىء لعلة الضرر ، والرسولُ ﷺ يقول : « كلُّ مُسْكرٍ خَمرٌ وكلُّ خمر حرامٌ ؛ ومن شربَ الخمرَ فى الدُّنيا وماتَ وهو يُدمِنها لمْ يَشْرَبْها فى الآخِرةَ » ، تمكنت الخمرُ من نفوس العربِ قبل الإسلام ، لا يخلو منها بيتٌ ولا يتركها إنسانٌ حتى أتقن النساءُ صُنعها . وتمدحَ الرجالُ بها فى أشعارهم وكانت لهم فيها منافع ، يتجرون بها ويربحون منها ، فكان من حصافة الإسلام أن تدرجَ فى تحريمها وترقى فى منعها ، فنزل أولا قول الله تعالى: ﴿ يسألونكَ عَنِ الخمرِ والميسرِ قُلْ فيهما إثمٌ كبيرٌ ومَنافعُ للناسِ وإثمُهُما أكبرُ مِنْ نَفعِهما ﴾(١) فتركها قوم لإثمها الكبير ، وشربها آخرون لنفعها الحقير ، ولما صلى بعضُهم وهو سكران فَهذَى وخَلَط نزل قول الله : ﴿ يا أَيها الّذينَ آمنُوا لا تقربُوا الصلاةَ وأنتمْ سُكارَى

(١) البقرة ٢١٩ .

حتَّى تعلموا مَا تَقُولونَ ﴾(١) ولتقاربِ أوقاتِ الصلاة ، ما كانوا يشربون إلا بعد العشاء ، لبعدها عن الفجر ، فلما قَلَّ شربُها ، وأعرض الكثيرُ عنها ، وتمشى الإيمانُ فى القلوب ينيرُها ويَهديها .

قال عمر رضى الله عنه ، اللهم أنزل لنا فى الخمر بيانا شافيًا ، فنزل التحريمُ الباتُّ القاطعُ بقوله ﴿ يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إنما الخمرُ والميسِرُ والأَنصابُ والأَزْلامُ رِجسٌ مِنْ عَملِ الشيْطانِ فاجتنبوه لعلكم تُفلِحُون * إنما يُرِيدُ الشيَّطَانُ أَنْ يوقِعَ بينْكمُ العَدَاوةَ والبَغضاءَ فى الخمْرِ والميسرِ ويصُدَّكمْ عَنْ ذِكرِ اللهِ وعنِ الصلاةِ فهلْ أنتمْ منْتهون ﴾(٢) .

ثم أُقيم الحدُّ على كل شاربٍ فانعدم شربُها أو كاد ، حتى إذا أُهملت الحدودُ الشرعية (٣) . وضعُف وازعُ الدين ، واختلط المسلمون بالإفرنج ، يقلدونهم فى السوءِ ، ويتشبهون بهم فى الشر ، صارت الخمرُ تُشْربُ بلا خوفٍ ولا حياء .

فاتقوا الله فى دينكم ، وعقولكم ، وأموالكم ، وأعراضكم ، وساعدوا الحكومة بالإعراض عن الخمور تهتدوا .

قال ﷺ « لا يزنِى الزانِى حين يزنِى وهوَ مؤمِنٌ ولا يَسْرِقُ السَّارقُ حينَ يسرق وهو مؤمِنٌ ولا يشْرب الخمر حينَ يشْربُها وهوَ مؤمِنٌ » .

---

(١) النساء ٤٣ (٢) المائدة ٩٠ ، ٩١

(٣) الخطبة أُلقيت فى مصر بعد تطبيق القوانين الفرنسية لا الشرعية وهذا حال معظم الدول الإسلامية .

أخلصوا العمل لله، وأحسنوا إلى من أمر الله بالإحسان إليهم

قال الله تعالى من سورة النساء :

﴿ واعبدُوا اللهَ ولا تُشرِكُوا بِه شَيْئًا وبالوالِدَيْن إحسانًا وَبِذى القُرْبَى واليَتَامَى والمساكين والجارِ ذى القُربى والجارِ الجُنُبِ والصَّاحِبِ بالجنْبِ وابْنِ السبيلِ ومَا مَلكَتْ أَيْمَانُكُمْ إن اللهَ لا يُحِبُّ مَنْ كانَ مُخْتَالًا فخُورًا ﴾(١) .

أيها المؤمنون :

أَجمع أَهلُ العلمِ على أَنَّ هذه الآيَةَ الكريمة من المحْكَمِ المتَّفَقِ عليه، وبدأها سُبحانه بالأَمرِ بالعبادةِ له والنَّهْى عن الإِشراكِ به ، والعبادةُ عبارةٌ عن توحيدهِ وإلزامِ النفس شرائعَ دينِه ، وأَصلُها : الخضوعُ والتذلُّل ومن معانيها الطاعةُ ، ولن تُؤتِىَ العبادةُ ثِمَارَها ، ولن يتحققَ المقصودُ منها للعابد إلا إذا كانت الأَعمالُ فيها خالصةً لله تعالى ، صافيةً من شوائبِ الشرك ، .

قال تعالى : ﴿ أَلَا لله الدِّينُ الخَالِصُ ﴾ . (٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وما أُمِروا إلَّا ليعْبدوا اللهَ مُخْلِصِينَ له الدِّينَ ﴾(٣) .

فما كان من صلاةٍ أَو صيامٍ أَو صدقةٍ أَو نذرٍ أَو خوفٍ أَو رجاء أَو توكُّل أَو استغاثةٍ واستعانةٍ ودعاء ما كان من ذلك ونحوِه فهو لله وحده ،وكلُّ عَمَلٍ منها يتوجَّهُ به صاحبُه لغير اللهِ ، فعملُه باطلٌ لما فيه من الشرك ، وما

---

(١) النساء : ٣٦ .
(٢) الزمر : ٣ .
(٣) البينة : ٥ .

كان تقديمُ أهلِ الجاهليةِ القرابينَ للأصنام إلا لاعتقادِهم أنها تقربهم إلى اللهِ زُلْفَى مع إيمانِهم بوجودِ اللهِ ، وبأنه الخالقُ الرازقُ المنعمُ ؛ وما أخرجهم هذا الاعتقاد من دائرة الشرك والمشركين لتقديمهم العبادةَ والخضوعَ والتذللَ والخوفَ والرجاءَ لغيرِ اللهِ تعالى .

والعملُ الذى يُخالطُه رياءٌ ويرجو به صاحبُه السمعةَ وحُسْنَ الصِّيت لا يكونُ خالصًا لله .

وقد جاءَ فى صحيحِ مسلمٍ عن أبى هريرةَ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « قال اللهُ تبارك وتعالى : أنا أغْنَى الشُّركاءِ عن الشِّركِ مَنْ عَمِلَ عمَلًا أشركَ فيه معى غَيرِى تركْتُه وَشِرْكَهُ » .

وجاءَ فى سنن ابنِ ماجه عن أبى سعيد بن أبى فضالة الأنصارى وكان من الصحابة قال ، قال رسولُ الله ﷺ : « إذا جمع اللهُ الأولين والآخرين يوم القيامة ليوم لا ريبَ فيه نَادَى منادٍ : مَنْ كان أشركَ فى عملٍ عَمِلَه للهِ أحدًا فلْيَطْلُبْ ثوابَهُ من عندِ غيرِ اللهِ فإنَّ اللهَ أغْنَى الشُّركاءِ عن الشِّركِ » .

والرياءُ على هذا النحوِ مُبطلٌ للأعمال مُضيِّعٌ لثمرتها ؛ فينبغى للمؤمن أن يراقب نفسَه ، وأن يستعينَ باللهِ عليها ، وأن يجعلَ نيتَهُ خالصةً لِمن بيَدِه الأمرُ ، وأن يطلبَ بعمله الدَّارَ الآخرة .

نسألُ اللهَ أن يرزقنَا الإخلاصَ فى السرِّ والعَلَن ، وأن يَحْفَظَنا من الشِّرك ومزالقِه .

عباد الله :

ثم أمر اللهُ عزَّ وجل فى الآية الكريمة بالإحسان إلى الوالدين بعد الأمر بعبادتِه وحْده ، وعدمِ الإشراكِ به سبحانه وتعالى ، والإحسانُ إلى الوالدين وبرُّهما مِنْ أعْظَمِ القُرباتِ إلى اللهِ عز وجل ، وعقوقُ

الوالِدَين والإساءةُ إليهما ، وإهمالُ شأْنِهما من أعظمِ ما يَجْلِبُ غضبَ اللهِ على فاعله .

قال العلماءُ : فأَحقُّ الناسِ بعد الخالقِ المنَّانِ بالشكر والإحسانِ والتزامِ البِرِّ والطاعةِ والإذعانِ ، مَنْ قَرَنَ اللهُ الإحسانَ إليهما بعبادتِه ، سبحانه وَقَرَنَ بطَاعتِهِ وشُكْرِهِ الشُّكْرَ لَهُمَا ، وهما الوالدان .

يقولُ سبحانه وتعالى : ﴿ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ ﴾(١) .

وعن ابن عمرو رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ « رِضا الربِّ فى رِضَا الوالدين وسُخْطُه فى سُخْطِ الوالدين » .

وبعد الأَمر ببرِّ الوالدين والإحسانِ إليهما بالقولِ والعمل أَمر سبحانه بالإحسانِ إلى ذوى القُربى فهم أَولى الناسِ بالبرِّ والمودَّةِ والصلةِ لأَنَّهم الأَهلُ ، ومنهم تتكونُ أُسرةُ الإنسانِ فإذا ما كانت الأُسرةُ متساعدةً متعاونةً صالحةً كانت الأُمةُ قويةً صالحةً ، وأَرحامُ الإنسانِ كالإخوةِ والأَخواتِ والأَعمام والعمَّاتِ والأَخوال والخالاتِ ونحوهم هم أَوْلَىٰ الناسِ بالصدقاتِ إذا كانُوا فقراءَ ، وقد أَمر النبىُّ ﷺ المسلِم أَن يبدأَ بنفسِه ثم بِمَن يَعُول كأَبنائه ووالديه وزوجه ثم بالأَقربِ فالأَقربِ تحقيقًا للتراحم والمودَّةِ وقوةِ الرابطة بين الأَهلِ ، وصلةُ الرحم ومَودَّتُهم والإحسانُ إليهم من القرباتِ إلى اللهِ عز وجل ومن أَسبابِ البركةِ فى العُمْرِ والمالِ .

كما أَمر اللهُ عز وجل فى الآية الكريمةِ بالإحسانِ إلى اليتامى والرِّفْقِ بهم ورعايةِ أَحْوالِهم ، ومن الرفقِ بهم تعليمُهم وتوجيهُهم الوجهةَ الصالحةَ

---

(١) لقمان ١٤ .

وتثميرُ أموالِهم والقيامُ على كلِّ أمورِهم بما يعودُ عليهم بالنفعِ فى دينِهم ودُنياهم .

وينبغى للمؤمنِ القادرِ أن يَرعى اليتامى والفقراءَ وَيَالَسَعَادةِ المجتمع الذى لا يَضِيعُ فيه اليتامى ، لأنهم يجدونَ القلوبَ الحانيةَ ، والنفوسَ الشاكرة والرعايةَ الواجبة .

أَمَرَ اللهُ بالإحسانِ إلى المساكينِ وَهُم أهلُ المسْكَنةِ والضعْفِ من الفقراءِ الذين لا يَجِدُونَ غِنًى يُغْنيهم وقد لا يَفْطِنُ إليهم الناسُ لعدمِ تَعَرُّضِهم للسُّؤَالِ ، فينبغِى للمؤمنِ القادرِ أن يبحثَ عن هؤلاءِ وَيُقَدِّمَ إليهم من زكاتِهِ وَصَدَقَتِه ، وأن يحقِّقَ لهم المجتمعُ حَدَّ الكفايةِ التى تليقُ بالمؤمنِ بحسب ظروفِ زمانِه ومكانِهِ ومُستوى المعيشةِ فى بلده .

وبَعد الأَمرِ بالإحسانِ إلى الوالدين وذوى القُربى واليتامى والمساكين ، أَمر اللهُ عز وجل بالإحسانِ إلى الجارِ أى بحفظِه والقيامِ بحقِّه، ومن حقِّه إكرامُه وكفُّ الأَذى عنه والسؤالُ عنه إذا غاب ، وزيارتُه إذا مَرِض، وإقراضُه إذا استقرَضَك وتقديمُ العون له عند الحاجة ، وإعانتُه إذا استغاث ، والتوددُّ إليه بالهدايا خصوصًا لأَقربِ الجيران بابًا لقول النبى ﷺ لرجل قال له إن لى جارين فإلى أَيهما أُهْدِى ؟ قال : « إلى أَقْرَبهما مِنْكَ بابا » . . .

وقد قال النبي ﷺ لعائشةَ عند تفريق لحمِ الأُضحية : « ابدئِى بجارِنا اليهودىِّ » ذلك أَن وصاةَ الإسلام بإكرامِ الجارِ عامة تتناولُ المسلمَ وغيرَ المسلم ، وقد شَمِل الأَمرُ بالإحسانِ إلى الجارِ الجارَ القريبَ والبعيدَ والذى له رحمٌ ، والغريبَ والمسلمَ والكافرَ .

﴿ والجارِ ذِى القُربى والجارِ الجنب ﴾ .

أَما الصاحبُ بالجَنْبِ : فهو الرفيق فى السفرِ ، وقال بعضُ الصحابة إنه الزوجةُ وقال ابنُ جُريج : هو الذى يصحبك ويلزمُكَ رجَاءَ نَفْعِك، وهؤلاء جميعًا مِمَّنْ يَنْبَغِى لِلْمؤمنِ الإحسانُ إليهم والآيةُ تَعمُّهم . والله أعلم .

ثم أَمر اللهُ عَزَّ وجلّ بالإحسانِ إلى « ابنِ السبيلِ » قيل : هو الضيفُ ينزلُ بك ، وهو أَيضًا المسافرُ الذى يجتازُ بك مارًّا ، ومن الإحسان إليه إعطاؤه وهدايتُه وإرشادُه .

أيها المؤمنون :

وأمر اللهُ عز وجل فى الآية بالإحسانِ إلى من يكونُ تحت يدِ المؤمنِ وفى خدمتهِ ﴿ وَمَا مَلَكَتْ أَيمانُكم ﴾ والإحسانُ إليهم إنما يكون بالرفْقِ بهم والتواضعِ لهم ، وإكرامِهم . . وقد جاءَ فى الصحيح عن النبيِّ ﷺ أنه قال : « إخوانُكم خوَلُكم ، ملَّكَكُم اللهُ رقابَهُم ، فَأَطعِمُوهم ممَّا تأْكلون ، واكسُوهم ممَّا تَلْبَسُون ولا تُكلِّفُوهم من العملِ ما لا يُطِيقُون ، فإنْ كَلَّفْتُموهُم فأَعِينُوهم » فطُوبى لِمَنْ تَواضَعَ لِمَنْ تحتَ يدِهِ من إخوانِه وأَحْسَنَ مُعَامَلَتَهُ ، وكَلَّفَهُ من العملِ ما يُطِيقُه .

وقد ذمَّ اللهُ عزَّ وجل كلَّ ذى صفة تحملُ صاحبَها على الأَنفة من الفقراء والجيرانِ والخَدَمِ وغيرِهم مِمَّن أَمر اللهُ بالإحسان إليهم والتواضُع لهم ، فقال فى ختام الآية :

﴿ إن اللهَ لا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ فَنَفَى سُبحانه محبَّتَه وَرِضَاه عمَّن يكونُ من صفته الكِبْرُ والبَذَخُ والتطاوُلُ على الناس والتكبُّر عليهم .

عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
« بادِرُوا بالأعمالِ الصالحةِ فستكونُ فِتَنٌ كَقِطَعِ الليل المظلم — أى شديدة متتابعة — يُصبح الرجلُ مؤمنًا ، ويُمْسى كافرًا ، ويمسى مؤمنًا ، ويُصْبحُ كافرًا يبيعُ دينَه بعَرَض الدنيا » .

عن أبي بكرةَ نُفيع بنِ الحارث رضى الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ :
« أَلَا أُنَبِّئُكُم بأكبرِ الكبائرِ ؟ — ثلاثًا ، قلنا : بلى ، يا رسولَ الله ، قال : الإشراكُ بالله ، وعقوقُ الوالدين ، وكان مُتَّكِئًا فجلس فقال : أَلا وقولُ الزُّور وشهادةُ الزور » فما زال يكررُها حتى قُلنا ليتَه سكت .

نسأَلُ اللهَ أن يَرْزُقنَا محاسنَ الأخلاقِ ، واتَّقُوا اللهَ — عبادَ الله — وَوَحِّدُوه سبحانه وأَحْسِنُوا إلى مَنْ أمر بالإحسان إليهم ، تفوزوا برضوان الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

القسم الخامس

عموم رسالة النبى ﷺ

أمــا بعــد :

فعن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « والَّذِي نفسُ محمدٍ بيدِهِ ، لا يسمعُ بى أحَدٌ من هذه الأُمة يهودىٌّ ولا نصرانىٌّ ثم يموت ولم يؤمنْ بالذى أُرْسِلْتُ به إلا كان منْ أصحابِ النَّار . . »

أيها المؤمنون :

من الأيمان التى كان النبي ﷺ يُكثر الحَلِفَ بها ويواظبُ عليها « والذى نفسُ محمدٍ بيده » لأنه يدلُّ على زيادة تعظيم المحْلوف به ، فقد وصفه بأَنَّ ذاتَه فى يده ، وفى قبضته وتحت تصرف قدرته ، وأن المخلوق لا حولَ له ولا طولَ ، وذلك منتهى الخضوعِ أمامَ عَظمَةِ الخالقِ وجبروته .

وإنما أقسم ﷺ لتأْكيد الخبر ، ليتمكنَ الحُكْمُ فى النفس أشدَّ تَمكُّن والمحْلوف عليه قوله ﷺ « لا يَسْمَعُ بى أحد من هذه الأُمة يهودىٌّ ولا نصرانىٌّ ثم يموت ولم يؤمن بالذى أُرسلتُ بما إلا كان من أَصحابِ النار » .

وإنما خصّ فى الحديث اليهودىَّ والنصرانىَّ، وإن كان الحكم عامًّا يتناولُ غيرَهما، لأَن اليهودَ والنصارى لهم كتابٌ سماوىٌّ فإذا كان هذا شأْنهم مع أَن لهم كتابًا سماويًا فغيرُهم مِمَّنْ لا كتابَ لهم أولى .

والمرادُ بالأُمةِ فى الحديث الشريف الإنسُ والجنُّ ، فكلُّ مَنْ علم بمبْعثِه ﷺ سواء كان موجودًا فى زمنِه أَو وُجِدَ بعده إلى يوم القيامة

وجَبَ عليهم الإيمان به ، والدخولُ فى طاعته ﷺ فإذا مات ولم يؤمن به ، وبقى متمسكًا بدينه وشريعته التى نُسخت بمبعثه ﷺ ، أَو بقى بلا دينٍ فقد أَوجب على نفسه النار ، لأَنه لم يدخلْ فى الدين الصحيح الذى ارتضاه اللهُ دينا .

وإنما كانت شريعةُ خاتم الأَنبياء ناسخة لباقى الشرائعِ لصلاحيتها لكلِّ زمان ومكانٍ ولتأْييدها بمعجزة باقيةٍ مستمرة إلى أَن تُؤذِنَ الدنيا بالزوال وهى معجزةُ القرآن الكريم .

أيها الناس :

إن الرسولَ الحبيبَ ﷺ مبعوثٌ إلى الثقلين باتفاقِ المسلمين ، وقد استمعت الجنُّ للقرآن وولَّوا إلى قومهم مُنذرين وكان من خبر ذلك أن النبى ﷺ لما صلَّى الصبحَ بأَصحابِه بوادى نَخْلة وهو موضعٌ على ليلتين من مكة ، مرّ بهم أُولئك النفرُ من الجن : وسمعوا رسول الله ﷺ يقرأُ القرآن فاستمعوا إليه مصغين متدبرين فآمنو به ، ورجعوا إلى قومهم منذرين .

وأَخبر الله عز وجل نبيَّه بذلك فى القرآن بقوله سبحانه وتعالى :

﴿ وإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا من الجنِّ يستمعون القُرآن فلمَّا حَضَرُوه قالوا أَنْصِتُوا فلما قُضِىَ ولَّوا إلى قَوْمِهِم مُّنذِرِين * قالوا : يا قوْمَنا إنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزل مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مصدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْه يَهْدِى إِلَى الحقِّ وإِلَى طريقٍ مُّسْتَقِيم * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا داعِىَ الله وآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَليمٍ * وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى الْأَرْضِ ولَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِه أَوْلَيَاءُ أُولَئِكَ فِى ضَلَالٍ مُّبِين ﴾(١) .

(١) الأحقاف : ٢٩ — ٣٢ .

وفى الآيات يحضُّ النفرُ الذين أَسلموا من الجن قومهم على الإيمان بالقرآن كما آمنوا بالتوراةِ التى أُنزلت على موسى من قبل ، وأنهم إن لم يُؤمنُوا ويُجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ محمدًا ﷺ لا يَعْجَز ربهم عن أَخْذِهم بالنَّكَالِ والعَذَاب وليس لهم من دُونه من نُصَراءَ يدفعونَ عنهم عذابه .

وأَنزلَ اللهُ عز وجل على نبيِّه ﷺ يخبره بأَمر هؤلاء النفرِ من الجن ، لأَنه لم يكن عَالِمًا بهم ولا شاعرًا بمكانهم . . . أَنزل عليه قوله تعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا * وأَنه تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴾ (١) .

وقد أَوحى الله عز وجل إِلى أَنبيائه بصفة النبيِّ محمد ﷺ وبصفة زمانه الذى يُبعث فيه وأَوجب عليهم وعلى أَتباعهم الإيمانَ به واتِّباعَه ﷺ إذا هم أَدركوه :

قال تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّين لَمَا آتيتُكُم مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمةٍ ثُمَّ جَاءَكُم رسولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ به وَلَتَنْصُرُنَّه قال أَأَقْرَرْتُم وأَخَذْتُم عَلَىٰ ذَلِكُم إِصْرِى قَالُوا أَقْرَرْنَا قال فَاشْهَدُوا وأَنَا مَعَكُمْ مِّنَ الشَّاهِدِين * فمَنَ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ الفَاسِقُون ﴾(٢).

وعلى هذا ، فلابد من الإيمان بأَن محمدًا هو رسول الله ﷺ إلى جميع الخلق ، إِنسِهم وجنِّهم ، عربِهم وعَجَمِهم ، علمائِهم وعُبَّادِهم ، مُلوكِهم وسوقتِهم ، وأَنه لا طريقَ إلى الله عز وجل لأَحد من الخلق إلا بمتابعة النبي ﷺ وطاعته والعمل بما جاءَ به من عند ربه سبحانه وتعالى .

---

(١) الجن ١ – ٣ (٢) آل عمران ٨١ ـــ ٨٢ .

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ قُلْ يَاأَيُّها النَّاسُ إِنِى رَسُولُ اللهِ إِليكُم جميعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْض لا إِلَهَ إلا هُوَ يُحْيِي ويُمِيتُ ، فآمِنُوا باللهِ ورسُولِه النبيِّ الأُمىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ باللهِ وَكَلِمَاتِه واتَّبِعُوه لعَلَّكُم تَهْتَدُون ﴾ (١) .

فهذا خطابٌ عامٌّ لجميع البشر من العربِ والعجمِ ، وجّهه إليهم محمدُ بنُ عبد الله النبي العربي بأمر الله تعالى يُنَبِّئُهم به أنه رسولُ الله عز وجل إليهم كافةً . . فهو كقوله تعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كافةً للناسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . (٢) .

ورسولنا الحبيب ﷺ أَرْسَلَه ربُّه رحمةً لِلْعَالَمِين ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِين ﴾ (٣) .

أيها المؤمنون :

إن كلَّ من آمن بالحبيب المصطفى ، واتّبع النُّور الذى جاء به وأطاعه فهو من أولياء الرحمن المهتدين .

أما من عصى الرسولَ محمدًا ﷺ ، وخالف ما جاء به وكفر بالحقِّ الذى دعا إليه فهو من أولياء الشيطانِ المغضوبِ عليهم وهو من أهل النار وبئس المصير .

وقد جاءت الأَحاديثُ الصحيحة باختصاصه ﷺ بالرسالة العامة كحديث جابر رضى الله عنه قال ﷺ : « أُعطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهنَّ أَحدٌ من الأَنبياء قبلى :

نُصِرْتُ بالرُّعبِ مَسيرةَ شهرٍ ، وجُعِلَتْ لى الأَرضُ مسجِدًا وَطَهُورًا

---

(١) الأعراف ١٥٨ (٢) سبأ ٢٨

(٣) الأنبياء ١٠٧ .

فأيُّما رجلٍ من أُمتى أَدْرَكَتْهُ الصلاةُ فَلْيُصَلِّ ، وأُحِلَّتْ لى الغنائِمُ ولمْ تحَلّ لأحدٍ قَبْلى ، وأَعطيتُ الشفاعةَ وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قومِه خاصةً ، وبُعِثْتُ إلى الناسِ عامّة » .

فالحبيب المصطفى ﷺ أرسله ربه لجميع العالمين وجعل هداية رسالتِه باقية إلى يوم الدين وهو خاتم الأنبياء والمرسلين .

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبا أَحَدٍ منْ رِجَالِكُم ولكنْ رسولَ اللهِ وَخَاتَم النبيِّين وكان اللهُ بُكلِّ شيءٍ عليمًا ﴾(١) .

فصلواتُ الله وتحياته المباركه الطيبة على خاتم النبيين ونسأله سبحانه أن يجعله شفيعنا يوم الدين .

---

(١) الأحزاب ٤٠ .

مولد النبي صلى الله عليه وسلم
"طلع الليلة نجم أحمد"

أما بعد : فياعباد الله :

عن أبي موسى رضى الله عنه قال : سمعتُ النجاشيَّ صاحبَ الحبشةِ رحمه اللهُ تعالى يقول : « أشهد أن محمدًا رسولُ الله ، وأنه الذى بشَّر به عيسى عليه السلام ، ولولا ما أنا فيه من المُلك ، وما تحمَّلت من أُمور الناس لأتيتُه حتى أحمل نعليه » [أخرجه أبو داود]

نعم . . لقد بشر الأنبياءُ كلهم بظهور الهادى الحبيب ﷺ

وفى الليلة المباركة نادى رجلٌ من أهل الكتاب قائلاً :

طلعَ الليلةَ نجمُ أحمدَ : أمَّا الليلةُ فهى ليلةُ الثانىَ عشرَ من شهر ربيعٍ الأول عامَ الفيل .

وأمَّا قائلُ هذه العبارةِ فهو حَبْرٌ يهوديٌّ ، سَمِعَه حسَّانُ بنُ ثابت ، يَصْرُخُ بأعلى صوتِه على حصنٍ بيثربَ : يا مَعْشَرَ يهود حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ، مالك ؟ قال طلع الليلةَ نجمُ أحمد الذى به وُلِد .

وكان حسانُ رضى الله عنه وقتها غُلاما ابنَ سبعِ سنين أو ثمان ، ويعقلُ كلَّ ما سَمِعَ كما حَدَّث عن نفسه .

وكان أهلُ الكتابِ يعلمون أنَّ نبيًّا من العرب قد قَرُبَ زمانُه ، ويترقبون مولدَه ، وينظرون بعثتَهُ ، ولهم فى ذلك علاماتٌ عرفوها من كتبهم قال ابن إسحاق : وحدَّثنى عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : فإن مِمَّا دعانا إلى الإسلام مع رحمةِ الله تعالى وهُدَاه لنا ، ما كُنَّا

نسمعُ من رجالِ يهود ، كنا أَهلَ شركٍ أَصحابَ أَوثان ، وكانوا أَهلَ كتاب عندهم عِلمٌ ليس لنا ، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرورٌ ، فإذا نلنا منهم بعضَ ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقاربَ زمانُ نبيٍّ يُبعثُ الآن نقتلُكم معه قَتْلَ عادٍ وَإِرَم ، فكُنَّا كثيراً ما نسمعُ منهم ذلك ، فلمّا بُعث رسولُ الله ﷺ أَجبناه حينَ دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به ، ففينا وفيهم نزلت هؤلاءِ الآياتُ من البقرة :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَىٰ الَّذِينَ كَفَروا ، فَلَمَّا جَاءَهُم مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الكَافِرِين ﴾(١) .

وَحَدَّثَ سلمةُ بنُ سلامةَ الأَنصاريّ رضى الله عنه قال : كان لنا جارٌ يهوديٌّ ، فخرج علينا يومًا من بيته حتى وقف فى جمعٍ من الناس ، وأنا يومئذ مِنْ أَحْدَثِ مَنْ فيهم سنًّا ، فذكر اليهوديُّ القيامةَ والبعثَ والحسابَ والميزانَ والجنةَ والنار .

قال سلمة : فقال ذلك لقوم أَهلِ شركٍ وأَوثانٍ لا يرون أَن بعثًا كائنٌ بعدَ الموت ، فقالوا له : ويحك يا فلانُ أَو ترَى هذا كائنًا ؟ قال : نعم . فقالوا له : ويحك يا فلانُ ، وما آيةُ ذلك ؟ قال : نبيٌّ مبعوثٌ من نحوِ هذه البلاد ، وأَشار بيده إلى مكةَ واليمن . فقالوا : ومتى نراه ؟ قال سلمة : فنظر إِلَيَّ وأَنا من أَحدثِهم سنًّا ، فقال : إِنْ يَسْتَنْفِدْ هذا الغلامُ عُمرَه(٢) يدركْهُ . قال سلمة : فوالله ما ذهب الليلُ

---

(١) البقرة : ٨٩ .

(٢) إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه : المقصود ، إن يعش هذا الغلام العمر الذى هو متوسط أعمار جيله وكان ما بين الستين والسبعين فإنه يرى النبى محمداً صلى الله عليه وسلم .

والنهارُ حتى بعث اللهُ محمداً رسولَ اللهِ ﷺ ، واليهوديٌّ حيٌّ بينَ أظهرِنا فآمنَّا به وكفر به بغيًا وَحَسَدًا .

ولما حاصر الرسولُ ﷺ بنى قريظةَ ـ مُنْصَرَفه من غزوة الخندق ـ قال جماعةٌ من شبابهم : يابنى قريظةَ واللهِ إنه للنَّبيُّ الذى كان عَهِد إليكم فيه ابنُ الهَيِّبَان . فقالوا : ليس به . قالوا : بلى والله ، إنه لهو بصفته ، فنزلوا ، وأسلموا ، وأحرزوا دماءهم وأموالَهُم وأهليهم .

وابنُ الهيِّبانِ هذا عالمٌ صالحٌ من يهودِ الشام ، قَدِمَ على المدينةِ المنورة قُبيل الإسلام بسنين ، ثمّ لما حَضَرَتْه الوفاة قال :

« يا معشرَ يهود ، ما ترونه أخرجنى من أرضِ الخمرِ والخمير إلى أرض البؤسِ والجوع ؟ قال الراوى وهو من يهود المدينة : قلنا إنك أعلمُ . قال : فإنى قد قدمت هذه البلدة أنتظرُ خروجَ نبيٍّ قد قَرُبَ زمانُه ، وهذه البلدةُ مُهَاجَرُه ، فكنتُ أرجو أن يُبْعَثَ فأتبعُه ، وقد أظلكُم زمانُه ، فلا تُسْبَقُنَّ إليه يا معشر يهود » ، ثمّ ذكر لهم شيئًا من علامات نبوّته ﷺ .

أيها المؤمنون :

ولد رسول الله ﷺ بين قوم هم أهلُ شركٍ وأصحابُ أوثانٍ شاع فيهم الجهلُ ووقعوا أسرى الأوهام والأباطيل ، وكانوا قبائلَ متفرّقة لا تجمعُهم صِلةٌ دينيةٌ ولا مصلحةٌ اقتصاديةٌ ، ولا تضمُّهم رابطةٌ سياسيةٌ فكانوا يعيشون فى حيرةٍ وعمى ، وكانت الحروبُ تَتَّقِدُ نيرانُها بين قبائل الجزيرة عشراتٍ من السنين من جراء سباق حصان ، أو خيانة فى رهان ، أو نحو ذلك من الأسباب التافهة .

ولم يكن حال الناس خارجَ الجزيرة العربيةِ أحسنَ مما كانت عليه حالُ العرب ، فقد انتشرت المساوئُ والمفاسدُ فى كلِّ مكان، وعمّ الجهلُ

ونشِبَت العداواتُ ، وتوارت الفضائلُ ، وغرِقَ الناسُ فى بحارِ الضلَالِ ، وصاروا أَسرى الأَهواءِ حتى ضجَّت الأَرضُ مِمَّا تنوءُ به من شرٍّ وبغْى وهمجيةٍ وَعُدْوان .

حينئذ لَطَفَ اللهُ بعبادِه فكان مولدُ الهادى الحبيبِ ﷺ إيذانًا بميلادِ نورٍ جديد ، الناسُ كانوا إليه فى لَهَفٍ شديد ، كانَ مولده بشيرًا ببَعْثِ الخير الذى طال ترقُّبُه ، إذ بمولده قَرُب أَوانُ إرسالِ خاتمِ النبيين والمرسلين ، لينقذَ الناسَ من الضلال الذى خَيَّمَ على العقولِ والنفوس .

ذلك أن رسالته ﷺ هى الرسالةُ السماويةُ الخاتمة ، فلا رسولَ بعده ولا نبيَّ ، كما أن رسالته عامة للإنس من كلِّ جنسٍ ولسان ، وللجنِّ ، ورسالتُه ﷺ هىَ النعمةُ التامَّةُ إذ تضمَّنت خيرى الدنيا والآخرة .

إن الله تعالى بشّر جميع النبيين بظهوره ﷺ وأخذ عليهم الميثاق أَن يؤمنوا به ويتبعوه إن هم أَدركوه قال تعالى :

﴿ وإذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبيين لَمَا آتَيْتُكُم من كِتابٍ وحكْمةٍ ثُمَّ جاءَكُم رسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُم لَتُؤْمِنُنَّ به ولَتَنْصُرُنَّهُ قال أَأَقْرَرتُمْ وأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلكُم إصْرِى قالُوا أَقْرَرْنا قال فاشْهَدوا وأَنا مَعَكُم من الشاهدين ﴾(١) .

روى أَن نفراً من أَصحاب رسول الله ﷺ قالوا له : « يا رسولَ اللهِ : أَخبِرْنَا عن نفسِك ؟ قال : « نعم أَنا دعوةُ أَبى إبراهيمَ ، وبُشْرى أَخى عيسى ، ورأَتْ أُمِّى حين حملت بِى أَنه خرجَ منها نورٌ أَضاءَ لها قصورَ الشام » .

وتأْويلُ هذا النور ما فتح اللهُ على المسلمين من تلك البلاد ،

(١) آل عمران : ٨١ : وإصرى أى عهدى .

وانتشار الإسلام فى الشام وفى غيرها من أقطارِ الأرضِ ، فقد استضاءت تلك البلادُ وغيرُها بنور رسالتِه ﷺ .

أيها المسلمون :

لقد شب رسولُ الله ﷺ فى بيئةٍ جاهليةٍ ولكن الله عز وجل كلأه بعنايتِه وحفظَه من أقذارِ الجاهليةِ وطهَّره من دَنَسِها ، لِمَا يُرِيدُ به من كرامتِه ورسالته ، حتى بلغَ أنْ كان رجلًا ، فكان ﷺ أفضلَ قومِهِ مروءةً ، وأحسَنَهُمْ خُلُقًا ، وأكرَمَهُم حَسَبًا ، وأحسنَهم جِواراً ، وأعظمَهُم حِلْمًا ، وأصدَقَهُم حَدِيثًا ، وأعظمَهُم أمانةً وأبعدَهُم عن الفُحْش والأخلاقِ التى تُدَنِّسُ الرجال ، تنزهًا وتكرُّمًا ، كما كان ﷺ أتمَّ الناس أدبًا حتى ما كان اسمُه بين قومه إلَّا الصادقَ الأمينَ ، لِما جَمَعَ اللهُ فيهِ من الأمور الصالحةِ ، والأخلاقِ العاليةِ الفاضلةِ .

إن الحبيبَ الهادى ﷺ بعثه الله على فترةٍ من الرسل . . فترة ضَلَّ فيها النَّاسُ ، وفقدوا رشادَهم ، وهاموا فى أودية الأباطيلِ ، فاصطفاه ربُّه واختاره من بين خلقه ليُبَلِّغَهُم آخرَ كتبِهِ ، ويَهديَهم بآخرِ شرائعِه ، فكانَ ﷺ النورَ للضالين الحيارى ، بصَّرَهُم سبيلَ النجاةِ وطريقَ الحقِّ والفلاح ، وكان الرحمةَ المهداةَ للعالمين الذين قست عليهم الحياةُ ، أنقذهم اللهُ به فعرفوا ربَّهم وعبدوه ، وعرفوا الخيرَ وأحبُّوه ، وآمنُوا بالحقِّ ونصروه ، وقدَّروا العدلَ ورفعوا منارَه ، وأدركوا قيمةَ العلمِ وبَنَوْا صروحَه ، وعاشوا على الحبِّ والإخاء والسلام .

صلاةُ الله ورحمتُه وبركاته على رسول الحبِّ والحقِّ والخيرِ والهدى .

أخرج البخارى بسنده ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما : أن هذه الآية التى فى القرآن : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا

وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾. قال فى التوراة : « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ، وحِرْزاً للأُمِّيِّينَ ، أَنت عبدى ورسولى ، سمَّيْتُكَ المتوَكِّلَ ، ليس بِفَظٍّ ولا غليظ ، ولا سخَّابٍ بالأَسواق ، ولا يدفعُ السيِّئَةَ بالسيِّئة ، ولكن يعفو ويصفح ، ولن يَقْبِضَه اللهُ حتى يقيمَ به المِلَّةَ العوجاءَ ، بأَن يقولوا : لا إِلٰهَ إِلَّا الله ، فيفتحَ به أَعيُنًا عُميًا ، وآذانًا صمًّا وقلوبًا غُلْفًا » .

فاتقوا الله عباد الله ، وسلوه العفو والعافية فى الدنيا والآخرة ، وتوبوا إليه لعله يرحمكم

الصلاة على النبى ﷺ

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (١) .

أيها المؤمنون :

صلاة الله على نبيه : ثناؤه عليه عند الملائكة المقربين ، ورحمته به وفضله عليه .

وصلاة الملائكة عليه : دعاؤهم واستغفارهم له .

ومعنى قولنا : اللهم صل على محمد : عظِّم – يارب – محمداً . والمرادُ تعظيمه فى الدنيا بإعلاء ذكره وإظهار دينه وإبقاء شريعتِه ، وفى الآخرة بإجزال مثوبته وتشفيعه فى أُمته وإبداء فضيلته بالمقام المحمـــود .

والله عز وجل شرَّف نبيه محمدا ﷺ ، وأعلى منزلته ، فهو سيد وُلْدِ آدم ، وخاتمُ النبيين ، وإمام المتقين ، وهو أفضل أُولى العزم من الرسل ، وإمام الأَنبياء إذا اجتمعوا ، وهو صاحب المقام المحمود الذى يغبطه به الأَولون والآخِرون ، وصاحب لواءِ الحمد ، وصاحب الحوض المورود ، وشفيع الخلائق يوم القِيامة ، وصاحب الوسيلة والفضيلة الذى بعثه ربه بأَفضل كتبه ، وشرع له أفضلَ شرائع دينه ، وجعل أُمته خير أُمةٍ أُخرجت للناس ، وجمع له ولأُمته من الفضائل والمحاسن ما فرقه فيمن قبلهم ، وهو القائل : « أَنا أَول من تنشقُّ عنه الأَرض ، فأُكْسَىٰ الحُلةَ من حُلَلِ الجَنَّةِ ، ثمّ أقومُ عن يمين العرشِ فليس أَحدٌ

---

(١) الأحزاب ٥٦

من الخلائقِ يقوم ذلك المقام غيرى ». وقال : « آتى بابَ الجنةِ فأَستفتحُ ، فيقول الخازن : من أنت ؟ فأَقول : أنا محمد . فيقول : بك أُمِرْتُ ألا أَفتحَ لأَحدٍ قبلك » .

والآية الكريمة السابقة شرَّف اللهُ بها رسولَه محمداً ﷺ حياته وموته ، وذكر منزلته عنده فى الملإِ الأَعلى بأَنه سبحانهُ يُثنى عليه عند الملائكة المقربين ، وأَن الملائكة تصلى عليه ، ثمّ أَمر الله تعالى أَهل الأَرض بالصلاة والتسليم عليه ، ليجتمع الثناء عليه من أَهل العالَمَيْنِ العُلوىّ والسُّفْلى جميعاً .

أيها المؤمنون :

فى الآية الكريمة يأْمر الله عباده المؤمنين بالصلاة والتسليم على نبيه محمد ﷺ : ﴿ يَا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيما ﴾ . وعن كعب بن عجرة أَن الصحابة سأَلوه ﷺ : قد عَلِمْنا كيفَ نُسَلِّمُ عَليك . فكيفَ نُصَلِّى عليك ؟ قال : « قولوا : اللهمّ صلِّ على محمد وعلى آلِ محمد كما صلَّيتَ على إبراهيم إنك حميد مجيد ، وبارك على محمد وعلى آلِ محمد كما باركت على إبراهيم إنك حميد مجيد » .

والصلاة على النبىّ ﷺ فرض على المكلَّف فى العُمر مرة ، وهى فى كل حين من السُّننِ التى لا يصحُّ تركها ، ولا يُغْفِلُها إلَّا مَن لا خير فيه ، وقد جاءَ فى الحديث أَن جبريل قال له : « إنَّهُ مَن ذُكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأَبعده اللهُ وأَسْحَقَه » . ومن حقِّ الرسول الحبيب ﷺ علينا أَن نطيعه ، وأَن نأْخذ عنه ونَقتدىَ به ، وأَن نوقِّرَه ونُكثرَ من الصلاةِ عليه ، وقد نَبَّهَ العلماءُ إلى أنه لا يفوت المسلم الصلاة عليه فى كل

مجلس مرة على الأقل ، وقد أخبرنا الحبيب المصطفى ﷺ أن القوم إذا جلسوا مجلساً لم يذكروا الله فيه ولم يصلوا على نبيه فإن هذا المجلس يكون حسرة عليهم يوم القيامة ، ومن ذلك قوله ﷺ : « ما جلَس قومٌ مجلساً لم يذكروا الله فيه ، ولم يصلوا على نبيهم إلَّا كان عليهم تِرَة فإن شاء عذَّبهم وإن شاء غفر لهم » .

وإذا أراد المسلم الدعاء نُدب له أن يصلى على النبي فى أول الدعاء وآخره ، وقد جاء عن عليٍّ رضى الله عنه قوله : « كلُّ دعاء محجوب حتى يصلى على محمد ﷺ » . وقد جاء عن عمر مثله : « أن الدعاء موقوف بين السماء والأرض لا يصعد منه شيء حتى تصلى على نبيك ﷺ » . وتتأكد الصلاة عليه ﷺ عندما يجرى ذِكْره .

قال الحبيب الهادى ﷺ : « من ذُكرت عنده فلم يصلّ علىَّ فدخل النار ، فأبعده الله » . وفى حديث : « البخيل مَنْ ذُكرت عنده ثمّ لم يصلِّ علىَّ » . وفى رواية : « بحسب امرئ من الشر أن أُذْكر عنده فلا يصلِّ علىّ » . وفى هذا وردت الأحاديث التى تدل على وجوب الصلاة عليه ﷺ كلما جرى ذِكره ، وهو مذهب طائفة من العلماء ، وقد جاء من حديث له ﷺ قوله : « إن الله تعالى وَكَّلَ بى مَلَكَين فلا أُذكر عند مسلم فيصلى علىّ إلَّا قال ذلك المَلَكَان غَفَرَ اللهُ لك ، وقال اللهُ تعالى جوابًا لِذَينك الملَكَين : آمين . ولا أُذكر عند مسلم فلا يصلى علىَّ إلَّا قال ذلك الملَكَان لا غفر اللهُ لك ، وقال الله تعالى وملائكتُه لذينك الملَكَين : آمين » .

وهذا يدل على عِظَم إساءةِ مَنْ لا يصلى على الحبيب المصطفى ﷺ وخصوصاً إذا جرى ذكره أمامه ، وعلى عِظَم فضل وثواب الصلاة عليه ،

ومما يؤكد عِظَم فضْل الصلاة على الحبيب الهادى ما رواه ابن مسعود رضى الله عنه أنه ﷺ قال : « أَولَىٰ الناسِ بى يومَ القِيامة أكثرُهم صلاةً علىَّ » . ويقول عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما : « مَنْ صَلَّىٰ على النبىّ ﷺ واحدةً صلى اللهُ عليه وملائكتُه سبعين صلَاة » .

ومعنى هذا أن المصلى على الرسول محمد ﷺ تَفيض عليه الرحماتُ من الله عز وجل ما دام مُشتغلا بهذه الصلاة ، ثمّ إن الملائكة تصلى على مَنْ صلى على النبىّ ﷺ فتدعو له بصالح الدعوات ، ورفيع الدرجات ، وغفران الذنب ، وسترِ العيب ، وتفريج الكرب ، كما تدعو له أن يلحقَ به فى جناتِ الفردوس فى درجته الصالحُ من آبائه وأزواجه وأبنائه وأحفاده كما جاء فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ العَرْشَ وَمَنْ حَوْلَه يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الجَحِيم * رَبَّنا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتى وَعَدْتَّهُم وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِم وَذُرِّيَّاتِهِم إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيز الحَكيم ﴾(١) .

ومما ينبغى أن يلتفتَ إليه المسلم الصلاةُ على النبىّ ﷺ بعد النداءِ للصلاة ، فعن عبد الله بن عمرو قال : إنه سمعَ رسولَ الله ﷺ يقول : « إذا سمعتم مؤذنًا فقولوا مثلَ ما يقول ثمّ صلُّوا علىّ فإنه من صلَّىٰ علىّ صلاة ـ أى واحدة ـ صلى الله بها عليه عشراً ، ثمّ سَلُوا لِىَ الوسيلةَ ، فإنها منزلةٌ فى الجنّة لا تنبغى إلا لعبد من عبادِ الله ، وأرجو أن أكونَ أنا هو ، فمَنْ سأَل لِى الوسيلةَ حَلَّت عليه الشفاعة » .

وفى مسند الإمام أحمد التنبيه إلى الصلاة على النبىّ ﷺ عند دخول المسجدِ والخروج منه ، وروى فى ذلك حديثا عن فاطمةَ رضى الله عنها قالت : « كانَ رسولُ اللهِ ﷺ إذا دخلَ المسجدَ صلَّىٰ على

(١) غافر ٧ — ٨ .

محمد وسلَّم وقال : اللهمّ اغْفِرْ لى ذُنوبى وافتَحْ لى أبوابَ رحمتك .
وإذا خرج من المسجد صلَّى على محمد وسلَّم وقال : اللهمّ اغفِرْ لى ذنوبى وافتَحْ لى أبوابَ فضلك » . وفى التشهد الأَخير من الصلاة يُسَن أَن نصلىَ على النبىّ ﷺ ، وجمهورُ العلماءِ على أن الصلاة عليه فى التشهد الأَخير سنّةٌ مستحبَّة ما عدا الشافعىّ فله قولٌ بوجوبها، وأَوجَبَ على تاركها فى الصلاة الإِعادة . وهذا رأْىٌ انفرد به الشافعىُّ رضى الله عنه ، وبه قال إِسحاق بنُ رَاهَوَيه إذا تَعمَّد المصلى تركَها دُونَ نِسيان .

ومعلوم أننا فى صلاة الجنازة نصلى على النبىّ ﷺ بعد التكبيرة الثانية ، ومما تجدر الإِشارة إليه أنه يستحبّ الإِكثار من الصلاة على النبىّ ﷺ يوم الجمعة وليلة الجمعة .

قال ﷺ : « من أفضلِ أيامكم يومُ الجمعةِ فيه خُلق آدم ، وفيه قُبض ، وفيه النفْخَة ، وفيه الصعْقَة ، فأَكْثِرُوا علىَّ من الصلاةِ فيه ، فإن صلاتكم معروضةٌ علىَّ » .

وعن أَبى هريرةَ رضى الله عنه قال : قال رسولُ الله ﷺ : « لا تجعلوا بيوتكم قُبوراً ، ولا تجعلوا قَبرى عِيداً ، وصلُّوا علىَّ فإنَّ صلاتكم تبلغنى حيثما كنتم » .

وعن أَبى سعيد الخدرى أَن رسولَ الله ﷺ قال : « أَيُّمَا رجل مسلم لم يكن عنده صدقةٌ فليقلْ فى دعائه : اللَّهُمَّ صلِّ على محمد عبدِكَ ورسولِكَ وصلِّ على المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات فإنها زكاة » .

فأَكثروا من الصلاة على الحبيب المصطفى وسَلُوا الله أَن يجعلَه شفيعنا يوم الدين وأَن يرزقنا حسنَ الاقتداءِ به ، واتقوا الله وتوبوا إليه لعله يرحمكم .

هجرة النبى ﷺ

قال الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِين ﴾(١) .

أيها المؤمنون :

فى هذه الآيةِ الكريمةِ يذكرُ الله فضلَه على نَبيِّه وحبيبه محمدٍ ﷺ ، حين كان بمكةَ ومكرتْ بهِ قريشٌ ليشكرَ نعمةَ اللهِ عز وجل فى نجاتِه من مكرِهم . . وما أتاح اللهُ له من حُسنِ العاقبةِ .

ذلك أن الحبيبَ الهادىَ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم عاش فى مكةَ قبلَ الهجرةِ ثلاثةَ عشرَ عامًا يدعو إلى التوحيدِ ويعملُ على اقتلاعِ الشركِ من جُذُورِه ويُوَجِّهُ النفوسَ إلى عبادةِ اللهِ وحدَه : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّى وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴾(٢) . ﴿ وَإِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾(٣) .

ولكنَّ معظم قادةِ قريش ومَن تَبِعَهُم أصمُّوا آذانهم عن سماع كلمةِ الحق ؛ وأعلنوا جمودهم على ما كان عليه آباؤهم . . فسفَّه الحبيب الهادى ﷺ عقولهم ، وقَبَّحَ تقليدهم لآبائهم وتحدَّث إليهم بخطاب الله عز وجل فى قوله : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللهُ ، قَالُوا : بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَينا عَليهِ آباءَنا أَوَلَوْ كانَ آباؤُهم لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُون »(٤) .

وفى قوله سبحانه : « وإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَىٰ

---

(١) الأنفال ٣٠ (٢) الجن : ٢٠ .
(٣) البقرة : ١٦٣ . (٤) البقرة : ١٧٠ .

الرَّسُولِ قالُوا : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُون ﴾(١) .

بمثل هذا الخطاب كان لسانُ الوحى يَقْرَعُهم ويؤنِّبُهم فما هو إلا أن هاج هائجُهم ، فطاشت أَلبابُهم ، وخرجت أَحقادهم ، وراحوا يتفنَّنُون لرسولِ اللهِ ﷺ فى طُرق الإيذاءِ ويَعْرِضُونَ عليهِ مُغرياتِ الدُّنيا ليكُفَّ عَمَّا هو بسبيلِه . وما دَرَوْا أن دُنياهُمْ كلَّها ، ومتاعَهم جميعَه إنما هو دَبْرَ أُذنِه ﷺ وتحتَ قدمه ، وأَنَّ قُرَّةَ عينهِ وراحةَ نفسِه أَن يُعْلِيَ كلمةَ الحق وأَن يَغْسلَ أَدرانَ الإنسانيةِ ، وأَن يُقيمَ دولةَ التوحيدِ النقِّ الخالصِ ، وأَن يدعمَ الفضيلةَ وأَن يؤدِّيَ رسالتَه كما أَمره اللهُ . لهذا أَخذ ﷺ يتلقَّى المحنَ ، ويستقبلُ الإيذاءَ صابراً محتسبًا ، داعيًا أَصحابَه إلى الصبرِ والتسليمِ لأَمرِ اللهِ حتى يقضيَ اللهُ أَمراً كان مفعـولا .

ولنتدبر هذا الحديثَ الذى رواه البخاريُّ عن قيس قال : سمعتُ خبابًا يقول : أَتيتُ النبيَّ ﷺ وهو متوسِّدٌ ببردةٍ وهوَ فى ظلِّ الكعبةِ ، وقد لقِينَا من المُشركين شدة . فقلت : أَلَا تَدْعُو اللهَ ؟ . فقعد وهو مُحْمَرٌّ الوجهِ . فقال عليه السلام : « قد كانَ مَنْ كانَ قَبلكم ليُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَديد ما دُون عظامِه من لحمٍ أَو عصبٍ ما يصرفُه ذلك عن دِينه ، ويُوضَعُ المنشارُ على مَفرِقِ رأْسِهِ فيُشَقُّ باثنتين ما يَصْرِفُه ذلك عن دِينهِ ، وليُتِمَنَّ اللهُ هذا الأَمرَ حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموت ، ما يخافُ إلَّا اللهَ عزَّ وجل والذئبَ على غنمه ولكنكم تَسْتَعْجِلُون » .

---

(١) المائدة : ١٠٤ .

بمثل هذا الأُسلوبِ العالى كانَ الرَّسولُ ﷺ يُرَبِّى أَصحابَه على الصبرِ مع ما كان يشعرُ به من شِدَّةِ الأَلَمِ لما ينزلُ بهم من الإِيذاءِ والتعذيبِ ونحنُ لا ننسىٰ أَبداً قولَه لآلِ ياسروهم يُعذَّبون أَشدَّ ما يكون التعذيبُ : « صَبْرًا آلَ ياسرٍ فإنَّ مَوْعِدَكم الجَنةُ » .

أيها المؤمنون :

ثم أَذِنَ اللهُ أَن تنتشرَ الدعوةُ بين الأَوسِ والخزرجِ من أَهل المدينة بعد طولِ احتباسِها فى مكةَ ، ففى السنةِ الثانيةَ عشرةَ من البعثةِ ، اجتمعَ اثنا عشرَ رجلاً من الخزرجِ والأَوسِ بالنبىِّ ﷺ ليلًا عند العقبةِ الكبرى وبايعوه على الإِسلام ، وفى العامِ التالى حَضَرَ إِلى مكةَ لمبايعةِ الهادِى الحبيبِ ثلاثةٌ وسبعون رجلًا وامرأَتان ، وبايعوا الرسولَ ﷺ عند العقبة الكبرى – كذلك – على النُّصرة والسمعِ والطاعَةِ ، وكانت بيعة العقبة الثانية خيراً وبركةً إِذ هَيأَ اللهُ عز وجل بها للمؤمنين من أَهل مكة دارَ هجرةٍ يخرجون إِليها ليَجِدُوا الأَمنَ وَقَيَّضَ اللهُ لهم هؤلاءِ الإِخوةَ المخلصين من أَهل المدينة فآووهم ونَصروهم وقاسَمُوهم أَموالَهم وديارَهم ، وآثروهم على أَنفسهم بكثيرٍ من الطيبات ، وفتح اللهُ لهم أَبوابَ رحمتِه ، فبدَّلَ خوفَهم أَمنًا ، ولقد من اللهُ على المؤمنين بهذه النعمة فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِى الأَرضِ ، تَخَافُون أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآواكُمْ ، وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِه وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لعَلَّكُم تَشكُرُون ﴾(١) .

أحباب محمد :

أَحَسَّتْ قريشٌ مبلغَ الخطر الذى يهدِّدها من بيعة العقبةِ الثانيةِ ، فقد بايعَ الأَنصارُ رسولَ اللهِ ﷺ على حربِ مَن يحاربونه ، وبايَعَهم

(١) الأنفال : ٢٦ .

رسولُ اللهِ على أن يكونَ واحداً منهم يحاربُ من حاربهم ويُسالِم مَنْ سَالمهم ، فخاف القُرَشِيُّون أن يتفاقم أمره ، ويعظُم شأنُه وبخاصة بعد أن رَأَوُا المسلمين يتسللون تِباعًا من بينهم ، ويلتحقون بإخوانِهم الأنصارِ من أهل المدينة ، فأحست قريشٌ بوادرَ الخطرِ فى هذه الهجرة ، فجعلت تَحُولُ بينَ المسلمين وبين ما يُريدون منها ، وتمنعُ من تستطيعُ أن تمنعَه منهم ، فلم تستطعْ أن تمنعَ إلّا عدداً قليلًا من المستضعفين .

فلما رأوا ذلك حَذِرُوا خروجَ رسولِ اللهِ ﷺ ، وعرفوا أنه قد أَجمع لحَرْبِهم ، فاجتمعوا فى دارِ الندوةِ يتشاورون ما يصنعون فى أمرِ رسولِ اللهِ حينَ خَافُوه . فقال أبو البَخْتَرىّ : رأْيى أن تحبسوه فى بيتٍ وتشدُّوا وَثَاقه ، وتسدُّوا بابَه غيرَ كُوَّة تُلقون إليه طعامه وشرابه منها ، وتتربصوا به رَيْبَ المَنُون ، فقال واحد منهم : بِئْسَ الرّأْىُ ، يأْتيكم مَنْ يُقَاتلكم من قومِهِ ويخلِّصه من أَيديكم ، فقالَ هشامُ بنُ عمرو : رأْيى أن تحملوه على جمل ، وتخرجوه من بين أَظهركم فلا يضركم ما صنع واسترحتُم ، فقالوا أيضاً : بِئْسَ الرّأْىُ ، يُفْسِدُ قَوْمًا غيرَكم وَيُقَاتِلُكم بِهِم ، فقال أبو جهل : أنا أرى أن تأْخذوا من كل بطن غُلَامًا وتُعْطُوه سيفاً صارماً فيضربوه ضربةَ رجلٍ واحدٍ فيتفرّقَ دمُه فى القبائلِ ، فلا يَقوى بنو هاشم على حربِ قريشٍ كلِّهم ، فإذا طلبوا العقل - الديةَ - عقلناه ، واسترحنا ، فوافقوا على ذلك وتفرقُوا على رأْى أَبى جهل مُجْتمِعين على قَتْلِ رسولِ اللهِ ﷺ ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ المَاكِرِين ﴾ .

ونزل الوحىُ على رسولِ اللهِ ﷺ وأخبره بما دارَ فى دارِ الندوةِ وأمره أَلّا يبيتَ فى مضجعِه وأَذِنَ اللهُ له فى الهجرة ، فأمر الرسولُ

علىَّ بنَ أَبي طالبٍ رضى اللهُ عنه بالنوم فى مضجعِه وقال له : « اتَّشِحْ ببُرْدى(١) فإنه لن يَخْلُصَ إليك أَمرٌ تكْرَهُه » . وأمره كذلك بردّ الوَدائع والأَمانات إلى أصحابها .

وبات فتيانُ قريشٍ على بابِ رسولِ اللهِ ﷺ مترصِّدين ، وخرجَ النبيُّ ﷺ من بينهم ، وقد أعماهم اللهُ عنه ، حتى لَحِقَ هو وصاحبُه أَبو بكر رضى الله عنه بالغار ، فلما أصبحوا ثاروا عليه ، فلما رأوا عليًّا رضىَ اللهُ عنه بُهِتوا ، وخيَّبَ الله سَعْيَهم ، فقالوا : أينَ صاحبُك يا هذا ؟ فقالَ علىٌّ : لا أدرى ، فاقتفَوْا أثرَ الرسولِ ﷺ ، فلما بلغُوا الجبلَ اختلط عليهم ، فصعدوا الجبلَ ، فمَرُّوا بالغار ، فرَأَوا نَسْجَ العنكبوت على بابِه فعادوا خائبين وقد أبطل اللهُ مكرَهم . فمكثَ الحبيبُ الهادى ﷺ فى الغار ثلاثَ ليالٍ ، تحرسُهُ العنايةُ الإلٰهيّةُ وترعاه وتردُّ عنه كيدَ المشركين ، وكان ينقُلُ إليه أخبار القومِ عبدُ اللهِ بنُ أَبى بكر رضى اللهُ عنهما ، وكان أبو بكر حين يَسْمَعُ دَبيبَ أقدامِ المُشْرِكين أمامَ الغارِ يشتدُّ خوفُه على حياةِ الرسولِ ﷺ فيبكى ويقول : « يا رسول اللهِ ، لو أنَّ أحدَهم نظرَ إلى موضعِ قَدَمَيْهِ لأَبصرنا » ! . وكان الرسولُ يُهَدِّئُ من روع أَبى بكر ويقولُ له : « لَا تَحْزَنْ إنَّ اللهَ معنا ، ما ظَنُّكَ باثنين اللهُ ثالثُهما ؟ » .

وفى ذلك يقول الحقُّ تبارك وتعالى : ﴿ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَه عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وجعلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا ، واللهُ

(١) البرد من الثياب جمعه برود وأبراد ، والبردة كساء أسود مربع فيه صفرة كانت تلبسه الأعراب والجمع برد بفتح الراء .

عزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١) .

أيها المؤمنون :

إن الهجرةَ لم تكن فرارا بل كانت انتصارًا ، لأنها كانت انتقالًا بالدعوة إلى آفاقٍ واسعةٍ وإلى مجالٍ تأْمنُ فيه الدعوةُ على نفسِها ، وليستطيعَ المؤمنون أن يجدوا تربةً طيبةً تنمو فيها شجرةُ التوحيدِ . . ويبنُوا دولةَ الإيمانِ ، بعد فترةِ التمحيصِ والاختبارِ التى نَجَحَ فيها المهاجرون وخَرجوا منها أقوى عَزْمًا وأشدَّ صَلَابةً ، وأصلبَ عُودًا ، وكانوا مع إخوانهم الأَنصارِ جندَ الحقِّ ، وأعوانَ الخيرِ ، ودعاةً إلى الهدى .

قال رسول الله ﷺ فيما رواه ابن سعد عن عمرو بن حبّان الكلبىّ : « أنا النبيُّ الأُمىُّ الصادقُ الزكىُّ ، الويلُ لمن كذَّبنى ، وتولَّى عنى ، وقاتَلنى ، والخيرُ لمنْ آوانى ، ونصرنى ، وآمَنَ بى ، وصدق قولى ، وجاهدَ معى » .

فاتقوا الله — عبادَ الله — وسلُوه من فضله يُعطكم ، واستغفروه يغفر لكم .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

القسم السادس

الزواج وبناء الأسرة الصالحة

أمـــا بعـــد : فيا أيها المؤمنون :

قال الحقُّ تبارك وتَعالى من سورة الروم :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون ﴾(١)

أيها المؤمنون :

فى الزواج مَحَبَّةٌ وشفقةٌ واستقرارٌ وهدوءُ بالٍ ، كما أنه الوسيلةُ الطبيعيةُ السليمةُ الحكيمةُ لبقاءِ النوعِ واستمرارِ الحياةِ ، وبناءِ الأُسرةِ فى ظلِّ الأَبوين اللذين يقومان برعايتها ، والحدبِ عليها حتى تصيرَ دعامةً صالحةً لبناءِ المجتمعِ المتماسكِ الصالح .

وجاءت الآيةُ الكريمةُ التى استمعنا إليها فى مَعْرِضِ الدلالةِ على كمالِ قدرةِ اللهِ تعالى ، وكمالِ رحمتِه بعبادِه ، ومن علاماتِ ربوبيتِه ووحدانيتِه ورحمتهِ أَنْ خَلَق النساءَ ليسكُنَّ إليهنَّ الرجالُ ، وجعل بينهما الميلَ الطَّبَعِيَّ ، وَهَيَّأَ لكلٍّ منهما ما يُمَكِّنُه من أداءِ وظيفتِه تحقيقًا للحكمة ، فسُبْحان الخالقِ المنعمِ الوهابِ عظيمِ الرحمةِ بالعباد .

ولهذا كان الإعراضُ عن الزواج مُخالفًا لطبيعةِ الأَشياء ، وليس له من سببٍ إلا العجزُ أو الانحرافُ عن الصراط السويِّ ، أَما ما يتعللُ به بعضُ القادرين من فسادِ الزمان ، وعدمِ وجودِ الفتاةِ التى تصلحُ للوفاءِ بمسئولياتِ الأُسرةِ والحياةِ الزوجيةِ فإنه من الإسراف فى تصوُّر

---

(١) الروم: ٢١ .

الأُمورِ ومن المبالغةِ التى يُمليها الهَوى أَحيانًا والوهْمُ أَحيانًا ، إذ ما زال المسلمون بخير – والحمدُ لله – ولم تَخْلُ الحياةُ من المعادن الطيبةِ ، والتربيةِ الصالحةِ ، وهذا الأَمر – أَيضًا – يدعو إلى ضرورة النُّصح بالعنايةِ بتربيةِ البناتِ ، وتنشِئَتِهِنَّ على الصلاح والتقوى ، وتبصيرِهن بالحقوقِ والواجباتِ ، وأَخذِهن بالحَزْمِ فى أَمر الدين ، وتعليمِهن ما يُقَوِّمُ سُلوكَهُنَّ وَيَبْعَثُهُنَّ على التمسُّكِ بالفضيلةِ من كتابِ الله وسُنَّةِ رسولِ الله ﷺ .

والرسولُ ﷺ يدعو إلى العناية بتأْديبِ البنتِ فيقول : « مَنْ كَانَ لَهُ ثَلاثُ بنات أَو ثلاثُ أَخواتٍ ، أَو بنتان ، أَو أُختان ، فأَدَّبَهُنَّ وأَحسنَ إليهنَّ وزوَّجَهُنَّ ، فَلَهُ الجَنَّةُ » .

وفى الحديث إشارةٌ حسنةٌ ولفتةٌ كريمة إلى أَن يختارَ الولىُّ لبناتِه أَو لأَخواتِه الأَزواج الصالحين .

ولعل من أَسباب التأَخُّرِ فى الزواج ما تفرضُه بعضُ العاداتِ التى دَرَجَ عليها بعضُ الناسِ إمَّا بِفرْضِ مُهورٍ ليست فى مقدورِ الشابِ مع المغالاةِ فى الشروطِ، وإمَّا بالنظرِ إلى موضوعِ الكفاءةِ بما لا يتفقُ مع رُوحِ الشريعةِ ومراميها .

وينبغى لنا نحن المسلمين أَن نعى جيدًا قول الحق تبارك وتعالى من سورة النور :

﴿ وأَنْكِحُوا الأَيَامَىٰ (١) مِنْكُمْ والصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وإمائِكِمْ إنْ يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٢) .

فى الآية توجيهٌ للأَولياء بالسعْى لتزويجِ مَنْ لا زوجَ له تحقيقًا

---

(١) الأيامى : جمع أيم وهي التى لا زوج لها . .
(٢) النور : ٣٢ .

للحكمةِ من الزواج بإعفافِ النفسِ ، وتكثيرِ النسلِ ، وبناءِ الأُمةِ الصالحةِ ، وفى الآية الإشارةُ إلى المبادرة بتزويج أَهْلِ الصلاحِ مع التوجيهِ إلى أنَّ الفقرَ لا يَنبغى أن يكونَ سبباً يحولُ دون تحقيقِ الزواجِ ، فالغِنَى والفَقْرُ بيدِ الله ، وإذا صدقت النيةُ وَتَمَّ الزواجُ فإنَّ اللهَ عز وجل يَفْتَحُ للزَّوْجَين أبوابَ رحمتِه وفضلِه ، وييسرُ لهم السبلَ ، ويرْزُقُهُم العفافَ وَغِنَى النفسِ ، ولذا كان ابنُ عمرَ يقول : عَجِبْتُ لِمَنْ لَا يَرغبُ فى الباءةِ — يقصد الزواج — : ﴿ إن يَكُونُوا فُقَراءَ يُغْنِهِم اللهُ مِنْ فَضْلِه ﴾ .

ومن حديث أبى هريرةَ أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « ثلاثةٌ كلُّهم حقٌّ على اللهِ عَونه : المجاهدُ فى سبيلِ اللهِ ، والناكحُ يُرِيدُ العفافَ ، والمكَاتَبُ يُريدُ الأداءَ » .

ثم إنَّ كلَّ مُسلم ينبغى له أن يسمَعَ ويتدبرَ جَيِّدا قولَ الحبيبِ الهادى ﷺ :

« خيرُ النساءِ أَحسنُهُنَّ وُجوها وأَرخصُهن مهورًا » .

وقولَه ﷺ :

« مِنْ بَرَكَةِ المرأَةِ سرعةُ تَزويجِها ، وسرعةُ رحمِها ، وَيُسْرُ مَهْرِها » .

لنتدبر ذلك التوجيهَ النبوىَّ لنعلمَ أن التشديدَ على طالبِ الزواجِ ليس من مصلحةِ الفتياتِ ، وليس من أسبابِ سعادتِهن فى الحياةِ الزوجية ، ذلك أن الشابَّ إمّا أن ينصرفَ ويرجعَ عن عزمه ، وإمَّا أن يضطربَ حالُه بتكليفه نفسَهُ ما لا يُطيق ، وما لا تَحْتَمِلُه قدرتُه المالية ، فلا تستقرُّ حياةُ البنتِ بعد الزواجِ إلا بعد معاناةٍ وصبرٍ وزمنٍ ، مع ما قد يكونُ عليه الزوجُ فترة من حياتِه من ضيقِ النفس ،

وانقباضِ الصدرِ ، مما قد تنعكسُ آثارُه على زوجتِه .

والحبيبُ الهادى ﷺ ينصحُ المسلمين ، وهو كما وصفَه ربُّه ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ (١) يقول لهم ، يقول لكلِّ ولىٍّ :

« إِذَا أَتَاكُم مَنْ تَرْضَونَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَأَنْكِحُوه ، إِلَّا تَفْعلُوه تكنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرضِ وفسادٌ عَرِيضٌ » قالوا : يا رسولَ الله ، وإن كان فيه ؟ — أى وإن كان فقيرًا أو ليس من ذوى الوجاهة والحُسْن أو نحو ذلك مما يبحث عنه المُتعَنِّتُون المتشدِّدون من الأولياء — فأجابهم الرسولُ مؤكدًا أن الاستقامةَ والخلقَ الحسنَ هما أساسُ الاختيار فقال :

« إذا أتاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَه فأَنْكِحُوه » .

قال ذلك ثلاث مراتٍ — ليقررَ المعنى فى النفوس — فالدينُ والخُلقُ هما أحسنُ ما يدعو إلى اختيار الزوجِ فذلك أهنأُ للزوجة ، وأدْعى إلى الاستقرارِ ، وراحةِ البالِ ، ولا شكَّ أن الزواجَ الذى يتمُّ على هذا النحوِ يكون سببًا فى إعانةِ الشابِ على الاستمرار فى طريقِ الاستقامةِ والصلاح .

يا عباد الله :

إن الزواجَ ارتباطٌ روحىٌّ ، وقُرْبٌ قلبىٌّ ، ودعمٌ للحياة الاجتماعيةِ ، ليس المالُ فيه إلا وسيلةً لتنظيم الأُسرةِ ، وسببًا من أسبابِ استقرارِها ، فلا ينبغى للمسلم أن يجعلَهُ الغايةَ التى إليهايقصدُ ، ولها يبتغى ، وليذكر الأولياءُ جيدا أن الحبيبَ المصطفى ﷺ زَوَّجَ ابنةَ عمتِه القرشيةَ لزيدِ بنِ حارثةَ خادمِهِ ، وكان من أسباب ذلك كسرُ الأَنَفةِ والشموخِ على بنى البشرِ مع ما فى ذلك من تطبيقٍ عملىٍّ للمؤاخاةِ بين المسلمين .

وإذا كان النصحُ يتوجَّهُ إلى الفتاة وإلى وليِّها بتحرِّى صلاحِ الخاطبِ

---

(١) التوبة : ١٢٨

واستقامتِه ودينهِ بالدرجةِ الأُولى ، فإن النصحَ – أيضًا يتوجَّه إلى الشاب بألَّا يَنْسَاقَ وراءَ الهوى العارضِ فَيَبْهَرَهُ الجمالُ بِلا دينٍ ، فيندفعَ مثلا للزواج بغير مسلمة لأجلِ ذلك مع ما قد ترتَّبَ على ذلك فى غالبِ الأحوالِ من المتاعِب والمفاسدِ والتجاربُ خيرُ برهانٍ ، والرسولُ يُحَذِّرُ من الاندفاع وراءَ الجمالِ وحده بغضِّ النظرِ عن الدينِ والبيئةِ الصالحةِ فيقول : « إيّاكُمْ وَخَضْرَاءَ الدِّمَنِ ، قيل : يا رسولَ اللهِ وما خضراءُ الدِّمَنِ ؟ قال : المرأَةُ الحسناءُ فى المَنْبِتِ السُّوءِ » وفى الحديث: « وَلأَمَةٌ خَرْماءُ – أى مشقوقةُ الأَنفِ والأُذنِ – ذاتُ دِينٍ أَفضلُ »

بل على الشابِّ أن يتحرَّى التربيَةَ الصالحةَ ،والجوَّ(١) الأُسرىَّ المستقرَّ والعائلةَ التى عُرِف عنها الاستقامةُ ، وأن يجعلَ دينَ الفتاة وخلقَها الطيبَ فى أعلى قائمةِ مطالبِه فإنْ تَحَقَّقَ مع ذلك الجمالُ أو المالُ أو الحسبُ كان خيرًا وبركةً ، أمَّا البحثُ عن الجمالِ بِلا دينٍ ، أو النظرُ إلى الزواج نظْرةَ الشخصِ إلى سلعةٍ مُربحةٍ ، أو السعْى لاكتسابِ جاه ، دُون نظرٍ للعواقبِ فهذه أُمورٌ لا تُعين على تحقيق الغايةِ من الحياة الزوجيةِ السعيدة المستقرةِ ، وليتدبر كلُّ شابٍّ قولَ الحبيب المصطفى ﷺ :

« مَنْ تَزَوَّجَ امرأَة لِعِزِّها لم يَزِدْهُ اللهُ إلا ذُلاًّ ، وَمَنْ تَزَوَّجَها لِمَالِها لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إلَّا فقرا ، وَمَنْ تَزَوَّجَها لِحَسَبِها لَمْ يَزِدْهُ اللهُ إلا دَنَاءَةً ، ومن تَزَوَّجَها لم يُرِدْ بها إلا أن يَغُضَّ بَصَرَه ، وَيُحَصِّنَ نَفْسَه باركَ اللهُ له فِيها ، وَبارك لها فيه » .

---

(١) الجو : ما بين السماء والأرض ، والاستعمال هنا مجازى والمقصود به ما فى الأسرة من علاقات متعددة وروابط وآداب .

وقولُه عليه السلام : « لا تتزوَّجُ المرأةُ لِجَمَالِها فَلَعَلَّ جَمَالَها يُرْدِيها ، ولا لمالِها فلعلَّ مالَها يُطْغِيها ، وإنما تُتَزوَّجُ المرأةُ لدينِها » .

أيها المؤمنون :

لِيَتَّقِ اللهَ الأولياءُ فى البناتِ ، ولتنظر الفتاةُ إلى الزواج نظْرةً تتفقُ مع مبادئِ الدين وأهدافِه ، ولْيَسْعَ الشابُّ إلى الزواج جاعلًا الفضيلةَ والخلقَ الكريمَ والدينَ والتَّربيةَ الصالحةَ أوّلَ ما يطلبُه فى فتاةِ أحلامِه ، والرسولُ عليه السلامُ يقول :

« فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ » .

وعلى الشباب أن يَعِفَّ ، ويَتَّقِىَ ما حَرَّم اللهُ حتى تتيسرَ له أسبابُ الزواج يقول الله تعالى :

﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُم اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾(١).

والاستعفافُ واجبٌ لأجل أنَّه إمساكٌ عَمَّا حرَّمَ اللهُ واجتنابُ المحارم واجبٌ .

ويستعينُ المؤمنُ بالصوم لِتَقْوى إرادتُه على نفسه ، ويراقبُ ربَّه .

قال ابنُ مسعودٍ رضى الله عنه : كُنَّا مع النبىِّ ﷺ شبابًا لا نَجِدُ شيئًا فقال رسولُ اللهِ ﷺ : « يا معشرَ الشبابِ مَن استَطاعَ منكمُ الباءَةَ(٢) فَلْيَتَزَوَّجْ فإنه أَغَضُّ لِلْبَصَرِ ، وأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فعليه بالصومِ فإنَّهُ له وِجَاءٌ (٣) » .

---

(١) النور ٣٣ .

(٢) الباءة : التزوج والنكاح ومن معانيه القدرة على مؤن الزواج .

(٣) الوجاء : بكسر الواو والمد ، وأصله الغمز ومنه وجأ أنثييه غمزهما حتى رضهما ، والمعنى هنا على تشبيه الصوم برض عروق الأنثيين فى أن كلا منهما يقمع الشهوة ويكسرها ، ويطفىء حرارتها .

وفى الحديث الذى رواه سعدُ بنُ أبى وقاص : أن رسولَ اللهِ ﷺ :
قال :« مِنْ سَعَادةِ ابنِ آدمَ : المرأةُ الصالحةُ ، والمسكنُ الصالحُ ، والمركبُ الصالحُ » .

فاتَّقُوا اللهَ — عبادَ الله — وتُوبوا إليه وسلُوه العفْوَ والعافيةَ لعلَّه يَرْحَمُكُم .

لكى تدوم العشرة بين الزوجين

واجبات الزوجة

قال الله تعالى فى سورة البقرة :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾(١)

أيها المؤمنون :

الحياةُ الزوجيةُ حقوقٌ وواجباتٌ وتعاونٌ ومودّةٌ ورحمة . . وقد جعل اللهُ عز وجل للنساءِ من حقوقِ الزوجيةِ على الرجالِ مِثْلَ ما للرجال عليهنّ ، فعلى الرجل أن يُحسِنَ عشرتَها بما هو معروفٌ من عادةِ الناسِ أنهم يفعلونَهُ لنسائِهم ، والمرأةُ كذلك تُحْسِنُ عِشْرَةَ زوجِها بما هو معروفٌ من عادةِ النساءِ أنهن يفعلْنَه لأزواجِهِنَّ من طاعةٍ وتزينٍ وتَحَبُّبٍ وغيرِ ذلك.

وتكوينُ الرجلِ يُؤَهِّلَه لأنَ يكونَ جنديًّا قويَّ المِرَاس ، يَنْهضُ بمسئوليةِ الحمايةِ والصيانةِ والجهادِ ، والضرْبِ فى الأَرْضِ والقيامِ بأعمال فوقَ طاقةِ التكوينِ العامِّ للمرأةِ ، فأساسُ طبيعةِ الرجلِ الخشونةُ وقوةُ الجسم والنفسِ ، والغالبُ على تكوينِ المرأةِ النعومةُ والرقةُ والضعفُ الذى يجعلها مُحَبَّبَةً إلى نفسِ الرجل .

وتكوينُ الرجلِ يُؤَهِّلُه لأَن يكونَ المسئولَ الأَولَ فى الأُسرةِ يتحملُ تبعاتِ النفقةِ من طعامٍ وكساءٍ ومسكنٍ وغيرِ ذلك من المطالبِ الأَساسية للأُسرةِ ، والتى لا غِنًى عنها كالدواءِ ونحوِه .

ومن هنا كانت للرجل منزلةٌ ليست للمرأةِ ، فهو القائمُ عليها بالإنفاقِ والحمايةِ والصيانةِ ، وهو الأَكثرُ جَلَدًاو هو الأَقوى على مغالبةِ الحوادثِ ومواجهةِ العِقابِ . .

---

(١) البقرة : ٢٢٨

يقول الحقُّ تبارك وتعالى من سورة النساء :

﴿ الرجالُ قَوَّامُونَ على النِّسَاءِ بِما فضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِم ﴾(١) .

فالرجالُ هم الذين يقومون بصيانةِ النساءِ ، والدفاعِ عنهنَّ وتقديمِ الصَّداقِ لهُنَّ والإنفاقِ عليهن ، وتدبيرِ المسكنِ الملائم للمرأةِ ، فكان من حقِّ الزوجِ على زوجتِهِ أَن تطيعَه فيما لا يُغضِبُ الله عز وجل . . وقد أثنى اللهُ على المؤمِنَاتِ الصالحاتِ المطيعاتِ لأزواجِهِن الحافظاتِ للشرف فى غيابِ الزوج فقال :

﴿ فالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ للغيْبِ بِما حَفِظَ اللهُ ﴾ (٢) .

والقانتاتُ هنّ الطائعاتُ إذا أُمِرْنَ بما ليس فيه معصيةٌ لله ، والحافظاتُ للغيب هن اللائى يحفظن أزواجهن حال غيابِهم ، فلا تصدرُ عنهنَّ خيانةٌ فى النفس أو المالِ . .

روى أبو أمامة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« ما استفادَ المُؤْمِنُ بعْدَ تَقْوَىٰ اللهِ عزَّ وجلّ خيرًا له من زوجةٍ صالحةٍ إن أمرها أطاعتْه ، وإن نَظَرَ إليها سرَّتْهُ ، وإنْ أَقْسَمَ عَلَيْهَا أَبَرَّتْه ـ أى نفَّذت ما حلَف لها عليه ـ وإنْ غاب عنها نَصَحَتْه فى نفسِها ومالِه » أى أخلصت له وحفظته فى شرفه وماله .

فأَحْسَنُ ثمرةٍ يَجنيها المرءُ فى حياته أن تكونَ له زوجةٌ صالحةٌ ذاتُ خُلُقٍ ودينٍ تُطِيعُ زوجَها ، وتسرُّه بما يرى عليها من نظافةٍ وحُسنِ هندام وجمالِ هيئةٍ ، وإن أقسمَ عليها فى أمرٍ مشروعٍ أبرَّته ، وَنَفَّذَتْ ما حلف عليه لا تُعانِد ، ولا تكابرُ ، وتُخلِصُ له فى حضورِه وغيبتِهِ . .

---

(١) النساء : ٣٤ . (٢) النساء : ٣٤ .

إن الزوجةَ التى تكونُ على هذا النحوِ من الأدبِ والتربيةِ ومعرفةِ الحقوقِ والواجباتِ لَتُعدُّ كَنْزًا عظيمًا ، وبمثلِ هذه الأخلاقِ تدومُ الحياةُ الزوجيةُ ، وتضعُ السعادةُ أجنحتَها على الأُسرة .

وقد أكد الهادى الحبيبُ عليه الصلاة والسلام حقَّ الرجلِ فى أن تكونَ زوجتُه مطيعةً له تحقيقًا للتعاون والتآلفِ ، ودعمًا للحياة الزوجيةِ ،

ومن ذلك قولُه ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو هريرة :

« لو كُنْتُ آمرًا أحدًا أنْ يَسْجُدَ لأَحدٍ لأَمرتُ المرأةَ أن تسجدَ لزوجِها » .

وفى رواية قيس بن سعد :

« لو كُنْتُ آمِرًا أحدًا أن يَسْجُدَ لأحدٍ لأَمرت النساءَ أن يَسْجُدْنَ لأَزواجِهِنَّ لِمَا جَعَلَ اللهُ عليهِنَّ مِنْ حقٍّ » .

أيها المؤمنون :

وقد جاء التأكيدُ لعِظَمِ حقِّ الرجلِ على زوجتِه فى الحديثِ الذى روته أمُّ المؤمنين عائشةُ قالت :

سألتُ رسول الله ﷺ : « أىُّ الناسِ أعظمُ حقًّا على المرأة ؟ قال : زوجُها ، قالت : فأىُّ الناسِ أعظمُ حقًّا على الرجلِ ؟ قال : أُمُّه » .

وعلى الزوجة ألا تمنعَ نَفْسَها من زوجِها حين يطلبُها ، وألا تصومَ تطوُّعًا إلا بإذنه وألَّا تتصدقَ من مالِه إلا بإذنِه .

وقد جاء فى الحديث الذى رواه عبدُ الله بنُ عمرَ أن رسولَ الله ﷺ قال : « حقُّ الزوجِ على زوجتِه ألَّا تمنعَه نفسَها ولو كان على ظَهْرِ قَتَب وألَا تصومَ يومًا واحدًا إلا بإذْنِه إلا لفريضةٍ ، فإنْ فَعَلَتْ أثِمَتْ ولم يُتَقَبَّلْ منها ، وألَا تُعطِىَ مِنْ بيتِها شيئًا إلا بإذنه . فإنْ فعَلت كان له الأَجرُ وعليها الوِزْرُ ، وألَّا تَخْرُجَ من بيتِه إلَّا بإذْنِه فإن فَعَلَتْ لعنَها اللهُ وملائِكَةُ الغضبِ حتى تَتُوبَ أو ترجعَ وإن كانَ ظَالِمًا » .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسولَ اللهِ عليه الصلاةُ والسلامُ قال : « إذا دَعا رجل امرأته إلى فِرَاشِه فأَبَتْ أن تجيء فباتَ غضبانَ لعنتْها الملائكةُ حتى تُصْبِحَ » .

وليس للمرأة أن تأْذنَ لأَحدٍ من الأَقاربِ والأَجانبِ بدخولِ البيتِ ما دام الزوجُ يكرهُ ذالك ، وقد جاء من خُطْبَةِ النبيِّ ﷺ فى حَجَّةِ الوَدَاع : « أَلا إِنَّ لَكُمْ على نِسَائِكُمْ حقًّا ولنسائِكُمْ عليكمْ حَقًّا ، فأَمَّا حقُّكُمْ على نِسَائِكُمْ فَلَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ مَنْ تَكْرَهُون ، ولا يَأْذَنَّ فى بُيوتِكم لِمَنْ تَكْرَهُون » . والمرادُ لا يُدْخِلْنَ مَنْ يكرهُه الزوجُ ولا يُغْضِبْنَ الأَزواج .

وكما يقومُ الرجلُ بأَعباءِ السَّعْى والعملِ والنفقةِ ، ينبغى للزوجةِ أَن تَرْعَى البيتَ وتقومَ بخدمتِه وتدبيرِ شئونه ، ولقد كانت أَزواجُ النبىِّ ﷺ وبنتُه فاطمةُ ، وأَزواج أَصحابِه يَقُمْن بخدمةِ البيوتِ والقيامِ على تهيئة الطعام ، وتقديمه وكلِّ ما يساعدُ على إيجاد جَوٍّ من الراحة والاستقرارِ فى الأُسرة .

ولقد شكت بنتُ سَيِّدِ الخلقِ ما تَلْقَى فى يَدَيْها من الرَّحَى ، وكانت أَسماءُ بنتُ أَبى بكرٍ تقوم بالعَجين ، وتَعْلِفُ فرَس زوجِها ، وتَحُشُّ له ، وتَسْقيه ، وتنقلُ له النَّوَى على رأْسِها . .

وتالك نماذجُ عاليةٌ لنساءِ امْتَزْنَ بمكارِمِ الأَخلاقِ ، وصِدْقِ المَوَدَّةِ للزَّوجِ ، والقيامِ على كلِّ ما يُدْخِلُ السرورَ على نفسِه .

يا أهــل الإسلام :

إن من واجبِ المرأَةِ المؤمنةِ أَن تَسْعَى دومًا لإرضاءِ زوجِها ، وإدخالِ المَسَرَّةِ على قلبِه بالطاعةِ ، وبالهيئةِ الحسنةِ ، فلا تَسْتَقْبِلْه عند عودتِه

إلى داره بثياب المهنةِ والخدمةِ فى البيت وإنما تُعِدُّ لذلك أجملَ ثيابِها وتحاولُ أن يَشَمَّ منها زوجُها طيِّبًا ، وأن يسمعَ حُسْنًا ، وألَّا يَرى ما لا يسرُّه ويُرضيه ، وألا تكون سببا لإغضابِه أو إيذائه .

قال أبو هريرة : قيل لرسول الله ﷺ : « أىُّ النساءِ خيرٌ ؟ قال : التى تَسُرُّه إذا نَظَر ، وتُطيعُه إذا أمَرَ ، ولا تُخَالِفُه فى نفسِها ولا مالِها بِمَا يكْره » .

وما أعظمَ ثوابَ المرأةِ المؤمنة التى تموت وزوجُها عنها راضٍ .

فعن أُم سلمةَ رضى الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : « أيُّما امرأةٍ ماتت وزوجُها راضٍ عنها دخلت الجنَّةَ » .

أما المرأة التى تؤذى زوجَها الصالحَ فالحُورُ العينُ تدعو عليها .

كما روى معاذ بن جبل رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تُؤذِى امرأةٌ زوجَها فى الدنيا إلا قالت زوجتُه من الحُور العِينِ : لا تُؤْذِيه ، قَاتَلَكِ اللهُ ، وإنما هو دَخيلٌ عندك ، يُوشِكُ أن يفارِقَكِ إلينَا » .

فاتقوا الله — عباد الله — وصونوا الحياة الزوجية عن العبث وأسباب النزاع ، وتوبوا إليه توبة نصوحًا لعله يرحمكم .

اتقوا الله في الطلاق

أمـا بعـد :

فعن محارب بن دثار رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
« ما أَحَلَّ اللهُ شيئًا أَبْغَض إليه من الطَّلاق » [أخرجه أبو داود]
وفى رواية : « أَبْغَضُ الحَلالِ إلى اللهِ الطَّلاقُ » .

أيها المسلمون :

شرع اللهُ الزواجَ لمقاصدَ ساميةٍ ، وأغراضٍ شريفةٍ وغاياتٍ كريمةٍ ، وجعله اللهُ نعمةً من نعَمِه العُظمى ، وآياتِه الكبرى ، به تتحققُ خلافةُ الإنسانِ فى هذه الأرضِ ، وعمارتُه لهذه الدنيا .

يقولُ الحقُّ تبارك وتعالى :

﴿ وَمِنْ آياتِه أَنْ خَلَقَ لكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُم أَزْوَاجا لِتَسْكُنُوا إليها وَجَعَلَ بينكُمْ مَوَدَّة وَرَحْمَةً ﴾ (١) .

وجعل الإسلامُ الحياةَ الأُسَرِيَّةَ شركةً بين الزوجين تقومُ على المودَّةِ والتفاهُمِ ، ومعرفةِ كلٍّ منهما بحقوقه وواجباتِه ، وقيامِ كلٍّ منهما بما يجِبُ عليه نحو الآخر لتدومَ العشرةُ ، وتظللَها السكينة والهدوءُ وليَنْبُتَ الأَولادُ نباتا حسنًا فى محيط أُسرة مستقرةٍ واعية تخشى ربَّها وتقيمُ حدودَهُ بطاعتِه أولًا، ثم برعايةِ كلٍّ واحدٍ حقوق صاحبِه ثانيا ، فالزوجة سكنٌ وراحةٌ تزيل الهمومَ عن زوجها وتُدخِلُ السعادةَ إلى قلبه بطاعتِها وتواضعِها له ؛ ووضعِها نفسَهَا فى خدمتِه ورِعايةِ بيته وأمانتِها لما تحتَ يَدِها لا تَشْغَلُه إلا بواجباتِه فى السعى والضربِ فى الأَرض يبتغى

---

(١) الروم : ٢١ .

من فضل الله ما يجعل أسرته مستورةَ الحالِ هانئةَ البالِ .

والله عز وجل يقول :

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الذِى عليْهِن بالمعْرُوفِ وللرِّجَالِ عليهنَّ دَرَجةٌ ﴾(١) .

أى : ولهنّ من حقوق الزوجية مثل ما للرجال عليهنّ فيُحْسن الرجلُ عشرتَها بما هو معروفٌ من عادة الناسِ أنهم يفعلونه لنسائهم كذلك تُحسِن عشرتَه بما هو معروفٌ من عادة النساءِ أنهن يفعلْنَهُ لأزواجِهِنّ من الطاعةِ والتحبُّبِ والتزيُّنِ ونحو ذلك .

وللرجالِ منزلةٌ ليست لهنَّ وهى قيامُه عليها وعلى الأُسرة بالإنفاق وكونُه من أهل الجهادِ ومجالدةِ الحياةِ ، ولقيامِه بحمايةِ الأُسرة والوفاءِ بمطالبها فى حدود القدرة .

إن الزوجين إذا أقاما حدودَ اللهِ كان الزواجُ سكنًا للزوجين ، ومَوَدَّةً ورحمةً بينهما ، أما الزواج الذى يفقِدُ هذا المعنى ، وينظر فيه كلٌّ من الزوجين إلى صاحبه كأنه غريمُه أو خصيمُه ، فهو أشبَهُ بقيد كريهٍ ضمَّ اثنين على الرغم منهما فهما يعيشان جارَيْن بالاسم ، متنافرين بالرّوح .

ولذلك حرص الشارع الحكيم على أن تبقى العلاقةُ بين الزوجين قويةً متينةً ، وأن تظلَّ الحياةُ فى بيتِهما صافية سعيدةً وتحقيقًا لهذه الغاياتِ أرشدنا الدينُ إلى أمورٍ منها :

أنه أمر أُولى الشأْنِ إذا خافا مَغبَّةَ الشقاقِ والنزاعِ بين الزوجين أن يَبْعَثُوا حَكَمًا من أهله ، وحَكما من أهلِها إن يُريدا إصلاحًا ، ويجتهدا فى التوفيق وإزالة أسبابِ الخلاف يوفِّق اللهُ بينهما ، والله عز وجل يقول :

---

(١) البقرة : ٢٢٨ .

﴿ وَإِنْ خِفْتُم شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إن يُرِيدا إصلاحًا يُوفِّق اللهُ بينهُما إنَّ الله كان عليمًا خَبِيرًا ﴾(١) .

ومن شأْنِ هذا العملِ أن يكونَ عِلاجًا تُتَلَافَىٰ به أسبابُ الشرِّ ، وعواملُ الفساد فكم من خلافٍ قد انبنَى على أسباب تافهة أَو أَوهامٍ خاطئة لا تلبثُ أن تزولَ إذا عُرضت على أَهلِ الخيرِ والعِلْم والإِصلاحِ فى جَوٍّ من الهدوءِ والإِخلاص .

ومن أَسبابِ استمرارِ الحياةِ الزوجيةِ أن يُحْسِنَ الزوجُ معاشرةَ زوجتِه وأَلَّا ينساقَ وراءَ العاطفةِ فيكرهَ زوْجَتَه لما يتوهَّمُه من عيب فيها ، أَو لما يُجَسِّمُه الشيطانُ من نقْصٍ قد يُغْتَفَرُ بجانبِ المزايا، وإلى ذلك يُرشدنا الحقُّ تبارك وتعالى :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُموهُنَّ فعسَىٰ أَن تكْرَهُوا شيئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فيه خيرًا كثيرًا ﴾ (٢) .

ومن أَسبابِ استدامةِ المودةِ أَن يَعِيَ الزوجان حقيقةَ الطلاقِ فى الإِسلامِ وأَنه أَبغضُ حلالٍ إلى اللهِ عزَّ وجل وأَن الدِّينَ نفَّر منه تنفيرًا عظيمًا ، فلا ينبغى للرجل أَن يُقْدِمَ عليه ولا ينبغى للمرأَةِ أَن تطلُبَه من الزوجِ من غيرِ بأْسٍ وضرورةٍ لا مناصَ من الفكاكِ منها، ذلك أَن طلبَ الطلاقِ خصوصًا من المرأَةِ رفْضٌ للنعمةِ ، وقطْعٌ للصلة وإفسادٌ لعلاقةٍ مستقرةٍ ﴿ واللهُ لايحبُّ الفسادَ ﴾ .

وقد جاءَ من حديث رواه جابر: « أَن سَرايا إبليسَ – وجنُودَه – حينما يعودُون إليه فيقولُ الواحدُ منهم : فعلتُ كذا وكذا فيقول : ما صنعْتَ شيئًا ، ثم يجىءُ أَحدُهم فيقول : ما تركتُه حتى فَرَّقْتُ

(١) النساء : ٣٥ .
(٢) النساء : ١٩ .

بينه وبين امرأتِه فيُدْنِيه منه ويقول : نِعْمَ أَنت فيلتزمُه » ذلك أن أَقربَ جنودِ إبليس إليه هو أَعظمهُم فِتنةً .

وقد جاءَ النذير والوعيدُ الشديدُ للمرأة التى تسعى إلى تدميرِ بيتها بيدِها وتطلبُ طلاقَها من زوجها من غيرِ ضرورةٍ شرعية ، ومن غير أن يُعمل كلٌّ ما أَمر به الشرعُ للتوفيق والإصلاح . . فنى حديث ثوبان رضى الله عنه : أن رسولَ اللهِ ﷺ : قال : « أَيُّما امرأةٍ سأَلت زوجَها الطلاقَ من غيرِ بأْسٍ فحرامٌ عليها رائحةُ الجنةِ » .

والشخص الذى يسعى بالإفساد بين زوجين هانئين بغيضٌ عند اللهِ بعيدٌ عن الإسلام .

كما جاءَ من الحديث الذى رواه بُريدةُ وأَبو هريرة رضى الله عنهما أن رسولَ الله ﷺ قال : « وليس منا من خَبَّبَ امرأةً على زوجِها » . أى خَدع وأفسد .

ولا يحل لامرأةٍ أن تسعى إلى طلاق أُختها لتحلَّ محلَّها .

فقد روى أَبو هريرة رضى الله عنه أن رسولَ الله ﷺ قال : « لا يَحِلُّ لامرأةٍ أن تسأَلَ طلاقَ أُختِها لِتَسْتَفْرِغَ صَحْفَتَها ، ولتَنكِحْ فإنما لها ما قُدِّرَ لها » .

ولتستفرغ ما فى صحفتها : كناية عن الانفراد بالزوج وأَخذِ نصيبِها الذى يكون لها منه فيتوفَّر عليها دونها .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : « لا تَشْترطِ المرأةُ طلاقَ أُختِها » أى لأَن ذلك أَمر يَبْغضُه اللهُ .

إن الشارعَ الحكيمَ مع هذا التحذير كلِّه قَدَّر أن العِشْرَة بين الزوجين قد تسوءُ ويتفاقمُ شَرُّها ويعظُمُ الخطرُ من دوامِها بين الاثنين

فَرُبَّما ارتُكبت بسبب ذلك محرماتٌ لا يرضاها اللهُ كظلم أَحدِ الزوجين للآخر ، أَو القذفِ والإِيذاء ، وحدوثِ الشغَب بين الأُسَر ونفورِ أَحدِ الزوجين نفورًا لا ينفعُ معه نصيحةٌ ولا سَعْىٌ بصُلح فى جوٍّ من الهدوءِ والإِخلاص فشُرع الطلاق لهذه الضروراتِ وتلافيًا لما هو أَخطرُ : ﴿ وإِن يتفرَّقَا يُغْنِ اللهُ كُلاًّ مِنْ سَعَتِه ﴾ .

أَيها المؤمنون :

هذا هو الطلاقُ فى أَصلِه ومشروعيتِه ومن واجبِ المسلمين أَن يُبْقُوه فى دائرتِه التى حُدِّدَت له ، ولا يجاوزون به حُدودَه وأَن يُنْظَرَ إِلى الطلاقِ على أَنه علاجٌ أَخير لمرضٍ لم يَقْوَ الأَطباءُ الناصحون على علاجِه :

﴿ تِلْكَ حُدودُ اللهِ فَلا تَعْتَدُوهَا ومَن يتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فأُولئكَ هُم الظالِمُون ﴾ (١) .

إِن الناسَ تَعَدَّوْا فى الطلاقِ حدودَ الله : اتخذَه كثيرٌ من الأَزواج هُزُوا ولعبًا ، وجعلوه يمينًا يتلاعبون به فى الأَسواق وفى غيرِ الأَسواق . . ومن الأَزواجِ من ينساق مع الغضب أَحيانا ومع الهوى الفاسد أَحيانًا فيظنُّ أَن الطلاقَ علامةُ الحزم والقوةِ وسببٌ للهيبة فينطلقُ به لسانُه والشيطانُ من ورائه يُغْريه ويدفعُه لتدميرِ حياته ثم الندم بعد ذلك، ومنهم من يهْزِلُ فيجعلُ من لفظ الطلاقِ وسيلةً لهزْله ، وعلينا أَن نتدبر قول الحبيب المصطفى ﷺ .

« ثلاثةٌ جِدّهُنَّ جِدٌّ ، وهزلهُنّ جِدّ النكاحُ والطلاقُ والمراجعةُ » .

يقول الترمذىُّ هذا حديث حسن غريب والعمل على هذا عند أَهل العلم من أَصحاب النبى ﷺ وغيرِهم . فليحذرِ المؤمنُ هذا البابَ ولا يجعل للهَوى والشيطانِ سلطانًا على نفسه .

---

(١) البقرة : ٢٢٩ .

فاتقوا الله — عباد الله — والزموا حدوده ، وسلوا العفو والعافية فى الدنيا والآخرة .

* * *

للخطبة الثانية :

لقد هان أَمرُ الطلاق على بعض الناس عند غضبهم لأُمورٍ تافهة فينطقُ بأَلفاظٍ تُغضِبُ الرحمنَ لأَنها ليست من سنةِ النبيِّ ﷺ مع ما فيها من تجاوُزٍ لحدودِ اللهِ .

وهذا محمود بنُ لبيد رضى الله عنه يقول : أُخبر رسولُ اللهِ ﷺ عن رجل طلَّق امرأَتَهُ ثلاثَ تطليقاتٍ جميعًا ، فقام — النبيُّ ﷺ — غضبانَ ثم قال : أَيُلْعَبُ بكتابِ اللهِ عزَّ وجل وأَنا بينَ أَظهُرِكم حتى قام رجلٌ فقال : يا رسولَ اللهِ ، أَلَا أَقْتُلُه .

وَمِنْ ذلك : الذى يقول : إنه طلَّقها مائةً أَو أَلفًا أَو غيرَ ذلك من الأَعْداد والصِّيَغِ التى ليست من شرْع الله فيَلْبِس المرءُ على نفسِه تلبيسًا يُوقِعُه فى الحَيْرةِ والنَّدمِ .

هذا فضلًا عن استخدامِ لفظِ الحرامِ وغيرِه من الأَلفاظ الموهِمةِ التى تُحَيِّرُ صاحبَها وتُوقع الأُسرةَ فى الضِّيق والأَلمِ الشديد والحَرج .

أيها الأزواج والزوجات :

الزموا تَقْوى اللهِ عز وجل ، تناصحُوا لله ، احْفظُوا نعمةَ اللهِ عليكم ، صُونوا الأُسَرَ عن العبث والهزْلِ ، وعن الانفعالاتِ السخيفةِ التى لا تَليقُ بالمؤمنين والمؤمناتِ .

كُن أَيُّها الزوجُ فى موضِع المسئوليةِ التى حَملْتَها فهى أَمانةٌ وأَنت مسئولٌ عنها ، والزواجُ عهدٌ وستُسأَلُ عنه .

كونى أيتُها الزوجةُ فى المكان الذى اختاره لك الشارعُ الحكيم مطيعةً تقيةً قائمةً بواجباتها ، راضيةً بظروف زوجِها أيًّا كانت لا تأخذْكِ العصبيةُ وكبرياءُ الجاهلية فتحملكِ إلى النفور ومقابلةِ كلام الزوج عند الغَضب كلمةً بكلمةٍ ، أحسنى إليه إذا أساءَ يكن لك خادمًا بعد ذلك ويردّ لك الجميل بأضعافه .

﴿وأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ولا تنقضُوا الأَيمانَ بعْدَ تَوْكيدِها وقَد جَعَلْتُم اللهَ عَلَيْكُم كَفِيلاً ، إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعلُون ﴾(١) .

قال عبد الله بن مسعود : « طلاقُ السُّنَّةِ : أن يُطَلِّقَهَا طاهراً من غيرِ جِمَاع » .

وعمران بن حصين رضى الله عنه : سُئل عن الرجلِ يُطلقُ امرأتَهُ ثم يَقعُ بها ولم يُشْهِدْ على طَلاقها ولا على رَجْعتِها فقال :

« طلقتَ لغير سُنَّةٍ ، وراجعتَ لغير سُنَّةٍ أَشْهِدْ عَلَى طَلَاقِها وعلى رَجْعَتِها ولا تَعُدْ » .

والله عز وجل يقول :

« وَمَنْ يتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حيْثُ لا يَحْتَسِب ﴾(٢) .

---

(٢) النحل . ٩١ .

(١) الطلاق : ٢ و ٣ .

استوصوا بالنساء خيرًا

أمـــا بعـــد :

فقد قال اللهُ تعالى من سورة النساء :

﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾(١)

والخطابُ للأزواجِ وقد جَعَلَهُمُ اللهُ عزَّ وجلَّ قوامين على النساء ، وجعل الزوجاتِ عَوَانًا فى أيديهم . . يأمُرهم اللهُ عز وجل فيها بحسنِ معاشرتِهن ، وتَطْيِيبِ القولِ لهُنَّ وبالكسوةِ والرزقِ بالمعروف ، وبأَنْ يُحْسِنَ الرجلُ فِعْلَهُ وَهَيْئَتَهُ لزوجتِه بَحَسَبِ قُدرته كما يُحِبُّ أن تكونَ زوجتُه له حسنةَ الفعلِ طيِّبةَ القولِ ، جميلةَ الهيئةِ على حدِّ قوله تعالى:

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (٢) .

أيها المؤمنون :

إن الأُسرةَ هى الخليةُ الأُولى فى بناء المجتمع ، وبصلاحِها يتحقَّقُ الخيرُ وقد عُنى الإسلام بشأنِ الأَسرةِ كلَّ العنايةِ لبناء المجتمع الصالحِ والأُمةِ القويةِ ، القادرةِ على النهوضِ برسالتِها ، وأداءِ وظائفها .

وإنما تنهضُ الأُسرةُ ، وتُحَقِّقُ غاياتِها فى بناء المجتمع ، وسلامتِه إذا ترابَطَ الزوجان ، وتفاهما ، واحترم كُلٌّ واحدٍ منهما حقوقَ صاحبِه ، وتعاونا على دَعْمِ حياتِهما ليسودَها الأَمنُ والاستقرار ، وهذا يَتِمُّ بإيمانِ كلِّ واحدٍ من الزوجين بأَنَّ الحياة الزوجيةَ شرِكَةٌ لابدَّ لاستقرارِها من صدقِ كلِّ واحدٍ منهما وَبِرِّهِ وإخلاصِه فى قيامِه بواجبِه نحوَ صاحبه .

---

(١) النساء : ١٩ .
(٢) البقرة : ٢٢٨ .

وقد أوصى النبيُّ ﷺ الرجالَ بالنساءِ ، فقال من خطبة حجة الوداع كما فى مسلم عن جابر رضى الله عنه : « واسْتوصُوا بالنسَاءِ خَيرًا ، فإنَّكُم أخذتُموهُن بأَمانِ الله ، واستَحْلَلْتُم فروجَهُنَّ بكلمةِ الله » .

فالرجلُ مسئولٌ عن صيانةِ المرأةِ ، ورعايتِها ، وحفظِ كرامتها ، وكفايةِ حاجتِها على حَسب الاستطاعةِ إلى جانبِ حُسْنِ خُلُقِه مَعَها .

وروى أبو هريرةَ رضى اللهُ عنه أن النبيَّ صلى اللهُ عليه وسلم قال : « أَكْمَلُ المؤْمِنينَ إيمانًا أَحسَنُهُمْ خُلُقًا ، وَخِيَارُكُمْ خِيَارُكُم لِنِسَائِهِم » .

فالخلقُ الحسنُ فى معاملة الناسِ عامة علامةُ الإيمانِ الكامل ، وإذا كان هذا هو شأَنَ الخُلقِ الكريمِ فى الصِّلاتِ العامةِ بين الناسِ بعضِهم وبعضٍ ، فالأَوْلَىٰ أن تقومَ الصلةُ بين الرجلِ وأهلِه على لينِ الجانبِ ، وصِدْقِ المودَّةِ ، والرحمةِ وقد أَكَّدَ الرسولُ ﷺ ذلك بقوله : « وخِيَارُكُم خيارُكُم لنسَائِهم » .

ولقد كان النبيُّ ﷺ مع أهله طيِّبَ العشرةِ ، حسنَ المعاملةِ دائمَ البِشْرِ ، يُضَاحِكُ نِسَاءَهُ ، ويتلطَّفُ بهنَّ ، ويُدْخِلُ السرورَ على قلوبهنَّ بالكلمةِ الطيبةِ ، والمداعبةِ ، والعدلِ فى المعاملةِ ، والرفقِ عند الجفوة » .

وقد وجّه ﷺ المؤمنين إلى رعاية الزوجات والرفق بِهِنَّ ، والإحسانِ فى معاملتهن فقال : « خَيْرُكُم خَيْرُكُم لأَهلِه ، وأَنا خَيْرُكُم لأَهْلِي »

ولكى تعيش الأُسرةُ فى مَأْمنٍ مِنْ عواصفِ الشرِّ نَبَّه الإسلامُ إلى أن الحياةَ الزوجية السليمةَ إنما تُبْنَى على الرعاية التى بها يتكافلُ أهلُ البيتِ فى معرفةِ ما لَهُمْ وما عليهم ، وفى القيامِ بالتبعات والمسئولياتِ ، والوفاء بالحقوق والواجباتِ كما يُوَجِّه الإسلام النُّصحَ للرجل حتى لا يُصْبِحَ مصدرًا لتفريقِ الشملِ ، وتقويضِ البيتِ وشِقْوَةِ الأَولادِ ، ولهذا أمر

اللهُ عز وجل بمعاشرةِ النساءِ بالمعروفِ ، وحَذَّرَهُم من العواطف المتقلبةِ . .

ولنتدبر قولَ الحقِّ تباركَ وتعالى بعد الأمر بالمعاشرة بالمعروف :

﴿ فإنْ كَرِهتُموهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خيرًا كثيرًا ﴾ (١) .

أى إن شعرتَ أيُّها الرجلُ بالكراهية نحو الزوجة فأَمْعِنِ النَّظَرَ ، واصْبِر ولا تَتَعَجَّلْ بالمفارقةِ بِمجرد هذا الشعور بالنُّفْرةِ ، فعسى أن يؤولَ الأَمرُ بِكَ إلى ما تُحِبُّه من ذَهَاب الكراهيةِ ، وتَبَدُّلِها بالمحبة والتقدير ، فيكون فى ذلك خيرٌ كثيرٌ مِنْهُ استدامةُ الصحبةِ وتثبيتُ أَركان الأُسرة ، والنعمةُ بالأَولاد .

أيها المؤمنون :

إننا كثيرًا ما نَرَى بعضَ الأَزواجِ تَتَغَيَّرُ عَواطِفُهم وتطرأُ الكراهيةُ فى نفوسِهم نحو زوجاتِهم لمجردِ عدمِ ارتياحِهم إلى بعض أَحْوالِهِنَّ التى ليس فيها ما يَمَسُّ الشرفَ أَو الدينَ، وانسياقًا وراءَ هذه المشاعرِ المتغيرةِ يَجْعَلُون حياتَهم جحيمًا ، فَيَشْقَوْنَ ، وَيُشْقُون ، وإلى هؤلاءِ يوجِّه الحبيبُ المصطفى ﷺ نصيحتَه الغاليةَ فيقول : « لَا يَفْرَكْ مُؤْمِنٌ مؤمنةً – يعنى لا يَبْغَضْها – إنْ كَرِهَ منها خُلُقًا ، رضِى منها غيرَه » .

والرسول ﷺ بهذا يَدُلُّنا على سبيلِ الحياةِ الزوجيةِ المستقرةِ وَيُعَلِّمُ الأَزواجَ أَنه لا تُوجَد امرأَةٌ إلا ولها بعضُ المزايا ، وقد يكونُ فيها بعض ما لا يُرضِى ، وَمَنْ أَراد أَن يَلْتَمِسَ امرأَةً كاملةً من جميعِ النواحِى فإنما يلتمسُ المُحَالَ ، والعاقِلُ لا يلتفتُ إلى ما لا يُعْجِبُه ، ويتغاضَى عَمّا لزوجته من مزايا ومحاسن أُخرى إن التفتَ إليها رَضِيتْ نفسُه وسَعِدَتْ حياتُه .

---

(١) النساء : ١٩ .

وقد جاءَ رجلٌ إلى عمرَ بنِ الخطابِ رضى اللهُ عنه يَسْتَشِيرُه فى طلاق امرأتِه ، فقال له عمرُ : لا تَفْعلْ ، فقال : ولكنّى لا أُحِبُّها ، فقال له عمر : وَيْحَكَ ! أَلَمْ تُبْنَ البيوتُ إلّا على الحبِّ ؟ فأَينَ الرعايةُ ؟ وأَينَ التذَمُّم ؟ (١) أى أَن البيوتَ لا تُبْنَى على الحبِّ وَحْدَه ، وإنما هى خَلِيقةٌ أَن تُبْنَى على ركنين آخرين ، أَحَدُهما : الرعايةُ التى تَبُثُّ التعاطفَ والتراحمَ فى جوانِبها ، وبالرعايةِ يتحققُ التعاونُ بين أَفرادِ الأُسرةِ ، والأَمرُ الثانى : التذمُّمُ أَى وفاءُ كلٍّ من الطرفين للآخرِ بِحِفْظِ حقوقِه وصيانةِ حُرماتِه ، والاستحياءُ من إغضابِه أَو التسببِ فى شقائِه ، وتتأَكدُ هذه الخصالُ باستمرارِ العِشْرةِ ، وتبادُلِ الرعايةِ والوفاءِ ومعرفةِ الحقوقِ والواجباتِ . .

وقد علَّمنا الرسولُ ﷺ أَن نوفرَ للزوجةِ الحياةَ الكريمةَ اللائقةَ فى حدودِ القدرة بلا إفراط فلا يُقَصِّرُ الزوج فى حقِّها ، ولا هو يتابعُ هَواها إذا هى أَسرفَتْ وغالتْ فِى مَطَالِبها ، وإنَّما يعالجُ أُمورَه بالرفقِ واللِّين .

ولنتدبرْ جوابَهُ ﷺ عن سؤال معاويةَ بنِ حَيْدَةَ حين قال :

يا رسولَ الله ، ما حقُّ زوجةِ أَحدِنا عليه ؟ قال : « أَن تُطْعِمَها إذا طَعِمتَ ، وَتَكْسُوَها إذا اكتسيْتَ ، ولا تضرب الوجْهَ ولا تُقَبِّحْ ، ولا تَهْجُرْ إلّا فى البيتِ » .

فالضربُ على الوجهِ عمل قبيحٌ وإهانةٌ لا تُرضى اللهَ لما فيها من بشاعة .

والنهْىُ عن التقبيح هو نهْىٌ عن البَذَاءَةِ والسَّفاهَةِ والسبِّ والشتْمِ ، فهذه أُمور لا تليقُ بالحياةِ الزوجيةِ ، ولا تليقُ ببيوت المؤمنين ، ثمَّ لِنَنْظُرْ إلى الأَدبِ فى قول النبىِّ ﷺ : « ولا تَهْجُرْ إلّا فى البيتِ » .

---

(١) التذمم : من تذمم : بمعنى استحيا واستنكف ، وتذمم لصاحبه حفظ ذمامه والذمام العهد والأمان والكفالة ، والحق والحرمة .

فالزوجان لا ينبغي أن يُظْهِرا خِصامهما أمام الأَولادِ والأَهلِ ولا على ملإ من الناسِ حفاظًا على كرامةِ الحياةِ الزوجيةِ ، وإذا حدثَ الخِصامُ لضرورةٍ كالنشوزِ – مثلا – فالهجرُ يكون في المضجعِ وسيلةً للتأديبِ بعد تقديمِ النصيحةِ والعظةِ والتخويفِ من عقابِ اللهِ لأنه حَرَّمَ على المرأةِ معصيةَ زوجِها ، فإن لم تتعظْ هَجَرها في المضجعِ تأديبًا حتى تثوبَ إلى رُشْدِها ، ولا يَتجاوزُ ذلك حُجْرةَ الزوجيةِ .

واللهُ عز وجل يقول :

﴿ والّلاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فِي المَضَاجِعِ واضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللهَ كانَ عليًّا كبيرًا ﴾ (١) .

والمرادُ بالنشوزِ أن تستعصِي المرأةُ على زوجِها ، وتنفرَ منه ، فإذا بدرت بادرةٌ بذلك يبدأُ الرجلُ بالعِظَةِ والتبصيرِ لترقيقِ القلبِ والتعريفِ بالحقوقِ والواجباتِ . فإذا لم ينجحْ في العظة فالانصرافُ عنها في المَضْجَعِ في صمتٍ حتى تثوبَ وإلا فالتأْدِيبُ بالضربِ غيرِ المبرِّح حين تَتَأَتّى أسبابُه وحين يكون هو العلاجَ إذا لم تَنْفَع العظةُ والهجرُ . . ويتمُّ ذلك كلُّه مع الحرصِ على كرامةِ البيتِ وفي حدودِ الاعتدالِ والوقار .

وعلى الرجلِ مع حُسْن خُلُقِه مع زوجتِه أن يحتملَ الأَذى منها فيقابلَ غضبَها ، وطيشَها بالحِلْمِ وَسَعَةِ الصدرِ رحمةً بها ، ورقَّةً لضعفها ، وقد كانت نساءُ النبيِّ ﷺ تراجِعْنَه الكلامَ ويصبرُ عليهن .

قال أنسٌ : كان رسول اللهِ ﷺ : أَرْحَمَ النَّاسِ بالنساء والصبيانِ .

---

(١) النساء : ٣٤ .

وكان ﷺ يُطَيّب قلوبَهَنّ ، ويمزحُ معهنّ كما أكّد الوصيةَ بِهِنّ في آخرِ حياتِه فقال ﷺ :

« الصلاة الصلاةَ ، وما مَلَكتْ أَيمانُكم ، لا تكلفوهُمْ مَا لا يُطِيقُون ، اللهَ اللهَ فى النساءِ ، فإنهنّ عَوانٌ فى أَيدِيكم - يعنى أسيرات - أَخَذْتُمُوهُنّ بأَمانةِ اللهِ ، واستحللتُم فُروجَهُنّ بكلمةِ الله »

فاتقوا الله فى النساء ، واخشَوا غضبه ، واطلبوا رحمته بطاعة أمرِه ، واجتناب نواهيه .

من معاملة الرسول ﷺ لأهله :

* كان ﷺ جميل العشرة ، يتلطف بنسائه ، ويوسعهن نفقته ويضاحكهن .

* جرت بينه وبين السيدة عائشة رضى الله عنها كلام حتى أدخلا بينهما أبا بكر رضى الله عنه حَكَمًا ، واستشهده ، فقال رسول الله ﷺ : تتكلمين أو أتكلم ؟ فقالت : بل تكلّمْ أنت ، ولا تَقُلْ إلا حقًّا ، فلطمها أبو بكر حتى دَمِي فوها ، وقال : يا عدوّةَ نفسها ، أوَ يقولُ غيرَ الحقِّ ، فاستجارت برسول الله ﷺ ، وقعدت خلف ظهره ، فقال له النبي ﷺ : « لم نَدْعُك لهذا ، ولا أردنا منك هذا » .

* وقالت له مرةً فى كلام غضبتْ عنده : أنت الذى تزعمُ أنك رسولُ اللهِ ؟ فتبسَّمَ رسولُ الله ﷺ ، واحتمل ذلك حلما وكرمًا .

* وكان يقول لها : إنى لأعرف غضبك من رضاكِ ، قالت : وكيف تعرفه ؟ قال : إذا رضيت ، قلت : لا وإلٰهَ محمد ، وإذا غضبتِ قلت : لا وإلٰهَ إبراهيمَ ، قالت : صدقتَ ، وإنما أهجرُ اسمَك .

* وكان ﷺ يصبر عليهن ، ويُدخِلُ السرورَ إلى قلوبهنَّ .

وفى الخبر : أنه ﷺ : كان من أفكهِ الناسِ مع نسائه .

وفى الخبر : « من صبر على سوء خلُقِ امرأتِه أعطاه اللهُ من الأجر مثلَ ما أعطى أيوبَ فى بلائه » .

« ومن صبرت على سوءِ خلقِ زوجِها أعطاها اللهُ مثلَ ثوابِ آسيةَ امرأةِ فرعونَ » .

القسم السابع

٥٠ — إلى متى الغفلة .

٥١ — بالشكر تدوم النعم .

٥٢ — فى الاستغفار بركات الدين والدنيا .

٥٣ — ذكر الله يحيي القلوب وتستنزل به الرحمات .

٥٥ — الخوف والرجاء .

« عظة للخطبة الثانية »

إلى متى الغفلة

قال الله عز وجل :

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُر * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِر * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ اليَقِين * لَتَرَوُنَّ الجَحِيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْنَ الْيَقِين * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم »(١) .

أيها المؤمنون :

جاء فى صحيح مسلم عن مُطَرِّف عن أبيه قال ، أتيتُ النبيَّ ﷺ وهو يقرأُ ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : « يقول ابن آدم : مالى مالى ، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبِسْت فأبليْتَ ، أو تصدقت فأمضيت » .

أى كل عرض زائل : إلا ما يقدمه الإنسان من عمل صالح يرجو به وجه الله تعالى .

ولفظ الحديث فى رواية أبى هريرة: « يقول العبد : مالى مالى ، وإنما له من ماله ثلاث : ما أكل فأفنى ، أو لبس فأبلى : أو تصدق فاقتنى ، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » .

فكل شىء تركه الإنسان بعد موته وكل ما نفع به جسمه وهو حى كل ذلك ذاهب إلا الصدقة الخالصة لوجه الله فهى ذخره الذى ينفعه يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ومعنى ﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ : شغلتكم المباهاة بكثرة المال ، وكثرة العدد عن طاعة الله حتى متم ودفنتم فى المقابر .

وفيها ـ أيضًا ـ معنى الحرص على جمع المال ، وصرف الجهد لتحصيله

(١) سورة التكاثر .

وتركيز الفكر حوله ، وانشغال القلب بمصادره وموارده مما قد يؤدى إلى الغفلة عن المصير المحتوم ونسيان الاستعداد لما بعد الموت .

وهذا المعنى نجده فى الحديث الشريف الذى رواه أنس بن مالك رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« لو أن لابن آدم واديا من ذهب لأحب أن يكون له واديان ولن يملأ فاه إلا التراب ويتوب الله على من تاب » .

وينبهنا الحبيب المصطفى ﷺ إلى خطر الغفلة عن موقف العبد بين يدى الرب للحساب ، هذه الغفلة التى يكون من أسبابها انصراف قلب الإنسان وحيلته وجهدِه للتكاثر من الأموال وكنزها ، وتعلق النفس بها ، والبخل بها وعدم إخراج زكاتها ، والتصدقِ منها . . فيقول ﷺ حين قرأ :

﴿ ألهاكم التكاثر ﴾ قال : « تكاثر الأموال جمعها من غير حقها ، ومنعها من حقها وشدها فى الأوعية » .

فالعاقل ينبغى له ألا تسيطر الدنيا على فؤاده ، وألا يكون المال هوى نفسه منها ، فالعمر محدود ، وعمل الإنسان محسوب له أو عليه ، وأنفاسه فى هذه الحياة الدنيا معدودة ولا خلود لبشر ولم يصحب أحدًا ممن ذهبوا قبلنا شىءٌ من ماله أو ولده يؤنس له قبره ويزيل عنه وحشته ، ويبدد ظلماته ، وهذه حقيقة نراها ونلمسها، فلماذا الغفلة عنها إذن حتى نزور القبور فنرى المصير . . ويندم النادم حيث لا ينفع الندم .

مَضَى الدهرُ والأيامُ والذنبُ حاصلٌ ... وجاءَ رسولُ الموتِ والقلبُ غافلُ
نَعِيمُكَ فى الدُّنْيَا غُرورٌ وحسرةٌ ... وعيشُكَ فى الدُّنيا مُحَالٌ وباطلُ

أيها المؤمنون :

ولنتدبر الحديث الذى رواه مالك بن أنس يقول ، قال رسول الله

ﷺ : « يتبع الميتَ ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله » .

تفكَّرتُ فى حَشْرِى ويومَ قِيامتِى ... وإصباحِ خَدِّى فى المقابرِ ثَاوِيَا
فريدا وحيدًا بعدَ عزٍّ وَرِفْعَـــةٍ ... رَهِينًا بِجُرْمِى والتُّرابُ وِسَادِيَا
تَفكَّرتُ فى طولِ الحسابِ وَعَرْضِه ... وَذُلِّ مَقَامِى حينَ أُعْطَى كِتَابِيَا
ولكنْ رَجَائِى فيكَ رَبِّى وخَالِقـى ... بأنَّكَ تَغْفِرُ يا إلهى خَطَـائِيَا

فطوبى لمن اتعظ بحال غيره واعتبر بمن صار تحت التراب ، وانقطع عن الأهل والأحباب بعد أن كان يصول ويجول وينافس الأصحاب ، ويجمع الأموال ، حتى جاءه الموت فى وقت لم يحتسبه ، وخرج من الدنيا وليس له منها إلا ما حدده العدل الإلهى فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خيرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّة شرًّا يَرَه ﴾(١)

ولما كانت سكنى المقابر مؤقتة ومرحلة تسبق البعث للحساب، ثم الجزاء، عبرت عنها الآية الكريمة بالزيارة ﴿ حَتَّى زُرْتُمُ المَقَابِر ﴾ أى ألهاكم التكاثر حتى أتاكم الموت فصرتم فى المقابر زوَّارًا ترجعون منها إلى منازلكم المعدة لكل أحد منكم بحسب عمله فى الجنة أو النار كما يرجع الزائر إلى منزله .

وفى هذا وعيد للمقبل على الدنيا منشغلًا بها قلبه عن المصير المحتوم . ثم جاء الردع عن هذه الغفلة والوعيد بعد الوعيد الذى يوقظ من غفلة وينبه من منام ويردع النفس عن غيها ويدفع العاقل إلى إيثار عمل الآخرة ، وشكر المنعم الوهاب الرزاق فيبذل من سعيه فى سبيل الخير، ويجعل من ماله نصيبًا لنصرة الحق والدعوة إلى دين الله والمحافظة عليه ، هذا مع إكرام اليتيم ورعاية الأرامل وكفاية المحتاج وحمل الضعيف .

(١) الزلزلة : ٧ و ٨ .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُون * ثم كَلَّا سوف تَعْلَمُون * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِين * لَتَرَوُنَّ الجَحِيم * ثُمَّ لَتَرَوُنَّها عَيْن اليَقِين ﴾ .

نعم . إن الإنسان لو تدبر فى أمر نفسه وفكر تفكيرًا سديدًا فى مصيره ومآله تفكير طالب الحق لعلم أن الدنيا إنما تطلب لغايات شريفة ولتكون عونًا على طلب ما عند الله فى الآخرة ، ليتَّخِذَها مطية لنعيم الآخرة فيجعل رزقه منها وسيلة يتقوى بها على طلب العلم والقيام بالعمل ، والنهوض بواجب الشكر لله على نعمه ، وطلب ما عند الله من الرحمة ، والتجاوز ، والمغفرة والنعيم ولتأكد فى يقينه أن الاشتغال بالتكاثر والتنافس مع الآخرين بالتهالك على حطام الدنيا دون نظر فى العواقب لعلم أن ذلك سراب ووهم وخداع وزيف ، ولما ألهاه هذا التكاثر عن طلب الدار الآخرة حتى يصير إلى قبره .

ويا حبذا لو أن العاقل يجعل صورة عذاب الجحيم حاضرة فى ذهنه لتنبهه إلى ما هو خير له مما تميل إليه نفسه من اللهو بالباطل ، والانصراف بالقلب والعقل إلى الدنيا ومتعها ، يا حبذا لو نفعل ذلك قبل أن نعاين الجحيم يوم الدين . فيندم النادمون يوم لا فائدة من الندم .

وقد ورد أن الجحيم للكفار دار ، وللمؤمنين ممر كما قال تعالى : ﴿ وإن مِّنْكُمْ إلا وَارِدُها ﴾ (١) ، وقد توعد الله عز وجل برؤية النار التى إذا زفرت زفرة خر كل ملك مقرب ، وكلُّ نبى مرسل على ركبتيه من المهابة والعظمة ومعاينة الأهوال .

وفى موقف السؤال والعرض سيُسأل كلُّ إنسان عن شكر ما أنعم الله به عليه يُسأَلُ الرجل وتُسْأَل المرأة عن النعيم من الأَمن والصحة والفراغ والإدراك بحواس السمع والبصر .

---

(١) مريم : ٧١ .

قال تعالى: ﴿ إن السَّمْعَ والبَصَر والفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئولًا ﴾(١).

وفى الحديث الذى رواه أبو هريرة وأبو سعيد أن رسول الله ﷺ قال: « يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول له : أَلَمْ أَجْعَلْ لكَ سَمْعًا وبَصَرًا ومَالًا وَوَلَدًا » . . الحديث .

كما يسأل المرء عن ملاذ المأكول والمشروب، وعن ظلال المساكن واعتدال الخَلْقِ ، ولذة النوم وعن صحة البدن وطيب النفس.

وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو هريرة قول النبى ﷺ :

« إن أول ما يسأل عنه العبد من النعيم - يعنى يوم القيامة - أن يقال له : « ألم نُصِحّ لك جسمك ونروك من الماء البارد ؟ » .

وفى حديث ابن عمر قال سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إذا كان يوم القيامة دعا الله بعبدٍ من عبادِه فيوقفه بين يديهِ فيسأله عن جاهه كما يسأله عن ماله » والجاه من نعيم الدنيا .

يا أهل الإسلام :

ونعم الله على عباده لا تُعدّ ولا تحصى ، وواجب العبد أن يشكر الله على هذه النعم : يشكره بالعقيدة الصادقة الصحيحة والعمل الصالح، وإخلاص الطاعة لله ، وكف الجوارح عن معاصى الله ، وإنفاق المال فى وجوهه المشروعة ، وكسبه من حلال .

وكل إنسان سيسأل يوم القيامة عن النعيم، أما سؤال المؤمن فتبشير بأن يجمع له بين نعيم الدنيا ونعيم الآخرة ، وأما سؤال الجاحد الكافر فتقريع وتوبيخ أن قابل نعيمَ الدنيا بالكفر والمعاصى .

قال القشيرى : والجمع بين الأخبار أن الكل يسألون ولكن سؤال الكفار سؤال توبيخ لأنهم قد تركوا الشكر ، وسؤال المؤمن سؤال تشريف . لأنه شكر وهذا النعيم فى كل نعمة .

(١) الإسراء ٣٦ .

روى أن النبي ﷺ أكل هو وأصحابه تمرًا وشربوا عليه ماءً فقال : « الحمد لله الذى أطعمنا وسقانا وجعلنا مسلمين » .

وخاض الناس فى مجلس رسول الله ﷺ فى ذِكر الغنى، فقال عليه السلام :

« لا بأس ، بالغنى لمن اتقى الله ، والصحةُ لمن اتقى — الله — خيرٌ من الغنى، وطيبُ النفسِ من النعيم » .

ولنتدبر قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لتُسْأَلن يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيم ﴾ .

نسأل الله العون على طاعته ، وأن يجعلنا من الشاكرين ، فاتقوا الله — عباد الله — واشكروا له يزدكم ، واستغفروه يبارك لكم ، وتوبوا إليه فإنه تواب رحيم .

بالشكر تدوم النعم

الحمدُ للهِ ، اللهمَّ ربَّنا لك الحمدُ كما خَلَقْتَنا ، ورزقْتَنا وهَدَيْتَنا وَعَلَّمتَنا وأَنْقَذْتَنا ، وفَرَّجْتَ عنَّا ، لك الحمدُ بالإسلام والقرآن ، ولك الحمدُ بالأهلِ والمالِ والمعافاة ، بسطتَ رِزْقَنا ، وأَحْسَنتَ مُعَافَاتِنا ، وَمِنْ كُلٍّ — والله — ما سأَلناكَ ربَّنا أَعَطيتَنَا ، فلك الحمدُ على ذلك حمدًا كثيرًا ، لك الحمدُ بكلِّ نعمةٍ أَنعمتَ بها علينا ، لك الحمدُ حتَّى تَرْضَى ، ولك الحمدُ إذا رضيت .

أَحمدُه سبحانه وأَستغفره ، وأَشهدُ أَن لا إِلٰهَ إِلا اللهُ ربُّ الجود والكرم ، وأَشهدُ أَن سيدنا محمدًا رسولُ الله دَعا إلى شكر المنعم ، صلى اللهُ عليه وعلى آله وأَصحابِه الطيبين الطاهرين .

أمــا بعد : فيا أيها المؤمنون :

قال الله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا ، وَمَنْ يُرِدْ ثَوابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِين . . ﴾(١) .

وقال الرسول الحبيبُ ﷺ « لا يَرْزُقُ اللهُ عزَّ وجلَّ عَبْدًا الشكْرَ فَيَحْرِمَهُ الزِّيادة ، لأَن اللهَ عزَّ وجلَّ يقول: ﴿ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ »(٢).

أيها المؤمنون :

لقد أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْنَا بِنِعَمٍ كثيرةٍ ، وجادَ بَخَيْراتٍ وفيرَةٍ ؛ أَعطى اللهُ عز وجل الإنسانَ العقلَ وميّزه به عن سائر الحيوان ، أرسل لنا الرسل يرشدون الخلقَ للحقِّ وخالصِ الإيمان ، وَمَنَحَ الإنسانَ القوةَ والعافيةَ ، وصحَّةَ البدنِ ، وسلامةَ الأَعضاءِ ، خَلَق له عينين ، ولسانًا

---

(١) آل عمران : ١٤٥ .

(٢) إبراهيم : ٧ .

وشَفَتَيْن ، وعَلَّمَه البيانَ ، والإفصاحَ عن قصدِه بالكلام ، خَلَقَ لنا أَرضاً تُقِلُّنَا ، وتُنْبِتُ لنا الزرعَ والزيتونَ والنخيلَ والأعناب ، ومن كلِّ الثمرات ، ونَسْتَخرِجُ منها المعادنَ ، وتَجْرِى فيها الأنهارُ ، وتنبعُ الآبارُ بالماءِ الزُّلال ، خلقَ لنا سماءً تُظِلُّنَا ، فيها الشمسُ والقمرُ والنجومُ مُسَخَّراتٌ بأَمرِه ، تُمِدُّنا بالنورِ والضِّياءِ والحرارة ، وفيها جمالٌ وجلالٌ ، وقدرةٌ وإتقان .

الله هو الذى أَوْجدنا ، وأَنعم علينا ، وأَطعمنا ، وسقانا ، ورزقنا ، وكَسانا ، وأَخْضَع للإِنسان أَغلب الكائنات ، وسخر لنا الحيوان ، وفضلنا على كثير من خلقه ، وهَدانا للإِسلام .

﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ هُو الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَّا فِى الأَرْضِ جَمِيعا ﴾(٢) .

فوجب علينا شكرُ المنعم سبحانه وتعالى على ما أَنعم ، وهو سبحانه الغنى عن عباده ، وهبهم الخير وهو ليس فى احتياج إليهم .

﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الغَنِىّ الحَمِيدُ ﴾ (٣) .

وقد أَمر الله عبادَه بشكره تعالى ، ليؤْمِنُوا بفَضْلِهِ ، ويَعْلَمُوا أَنَّ كلَّ خيرٍ هو مُعْطِيه ،وكلَّ فَضْلٍ هُو مُولِيه «وَمَا بِكُمْ مِّنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾(٤).

أَمر اللهُ عبادَه بشكرِه ليعلموا أَن العبدَ ليس بيده أَمرٌ ولا نهى ، وإنما هو سببٌ من الأَسباب وأَن الناس لا يملكون لأَنفسهم نفْعًا ولا ضَرًّا ، ولا حياةً ولا موْتًا ، وأَن اللهَ وحده هو الرزاق ذو القوة المتين ، يعطى ويمنع ويبسط الرزق لمن يشاء ويقدر : ويغنى ويفقر ، فالشكر تقديس الله وتوحيده ، وإفراده بالعبودية ، وتنزيهه وتمجيده ، ولذلك قرن الله

---

(١) إبراهيم : ٣٤

(٢) البقرة : ٢٩

(٣) فاطر : ١٥ .

(٤) النحل : ٥٣ .

الشكر بالذكر ، وأمرنا به فقال تعالى :

﴿ فَاذْكُرونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُروا لِي ولَا تَكْفُرون ﴾(١)

وقال سبحانه :

﴿ فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِين ﴾(٢) .

والشكر لا يكفى فيه الثناءُ باللسان ، والمدحُ بالقولِ والكلامِ ، فالعبدُ لا يكونُ شاكرًا لأَنْعُمِ اللهِ إلا إذا بَرْهَنَ عملُه على الإقرارِ بالنعمةِ ، ونَطَقَتْ أفعالُه بتقدير المِنَّة ، لن يكونَ العبدُ شاكرًا إلا إذا اشتركت جوارحُه فى الشكر ، وساهمتْ أعضاؤُه بالتَّسبيح والحمد ؛ فالشكرُ صَرْفُ النِّعَمِ فيما خُلِقَتْ له ، واستعمالُها فيما شُرِعت لأَجله ، لتظهرَ فائدتُها وتتمَّ حكمتُها ، ويَجْنِى العبادُ منافعَها ، فإن شكرتَ بقلبك ولسانِك وعملِك فأنت من الفائزين بقول الحق تبارك وتعالى :

﴿ . . وإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُم لَئِنْ شَكَرْتُم لَأَزِيدَنَّكُم وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ . . ﴾(٣) .

وقال سبحانه : ﴿ . . وَسَنَجْزِى الشَّاكِرِين . . ﴾(٤) .

قال بعض الصالحين : « . . من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه فمثله كمثل رجل له كساء ، فأخذ بطرفه ، ولم يلبسه فلم ينفعه ذلك من الحر والبرد والثلج والمطر » .

وقال : « كل نعمة لا تقرب من الله فهى بلية . . » .

وروى أن النبى ﷺ قال : « . . مَنْ صَلَّى الصلواتِ الخَمْسِ فقد شَكَرَ اللهَ ، وَمَنْ دعا لوالديه فى أَدْبَارِهما فقد شَكَرَهما . . » .

---

(١) البقرة : ١٥٢
(٢) الأعراف ١٤٤
(٣) إبراهيم : ٧ .
(٤) آل عمران - ١٤٥

يا عبـاد الله :

إن العبدَ الذى يُطِيع ربَّه ، ويجتنب معاصيَه ، وينتفعُ بالنِعَم فيما خُلِقَت لأجلِه ، ويَلْهَجُ لسانُه بذكرِ مولاه وحمدِه إنما يُبَرْهِنُ بذلك عن فهمِه للنعمة ، وشكرِه للمنعم عز وجل .

إن العبدَ إذا شكر النعمةَ فقد نفع نفسَه ، بأن وجَّهَ النعمة وجهةَ الخيرِ والنفعِ ، واستعملها فيما يُسْعِدُه ، ويُسْعِدُ العبادَ ، وبالشكرِ تستقيمُ الأمورُ،وتنعدمُ الشرورُ ، ويضْعُفُ الباطلُ والزور .

قال عز وجل على لسان سليمان عليه السلام :

﴿ . . قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُونِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ . . ﴾(١) .

إن الله عز وجل غنى ونحن الفقراء ، وهو سبحانه لا تنفعه طاعة من أطاع ولا تضره معصية من عصى ، فمن شكر نعمة ربه حظى برضوانه ، وفاز برحمته ، قال الله عز وجل :

﴿ إِنْ تَكْفُروا فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ ، وَإِنْ تَشْكُروا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُم فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُون إِنَّه عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُور . ﴾(٢) .

وعن ابن عباسٍ رضى اللهُ عنهما أن رسول الله ﷺ قال :

« . . أربعٌ من أُعْطِيهُنّ فقد أُعْطِى خَيْرَ الدنيا والآخرةِ : قلبٌ شاكرٌ ، ولسانٌ ذاكر ، وبدنٌ على البلاءِ صابرٌ ، وزوجةٌ لا تبغيه خِوَنًا فى نفسِها ولا مالِه . . » .

وعن معاذٍ أن رسول الله ﷺ أتى على رجلٍ وهو يقول : اللهمَّ إنى أسألُكَ تمامَ النعمةِ ، فقال : ابن آدمَ ، هل تدرى ما تمامُ النعمة . ؟

---

(١) النمل ٤٠ (٢) الزمر ٧ .

قال : يا رسولَ الله : دعوةٌ دعوتُ بها أرجو الخيرَ بها ، فقال : « إنَّ من تمام النِّعْمَةِ فوزًا منَ النَّار ، ودخولًا إلى الجَنَّةِ » . .

أيها المؤمنون :

إن نعمَ الله عز وجل علينا لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى ، فَطُوبى لمن عرفَ فَضْلَ ربِّهِ ، فوحَّده ، وعبدَه وأطاعه ، وشكرَه ، وكَفَّ جوارحَه عن معاصيه . .

قال أبو الدرداء : « ومَنْ لَمْ يَعْرِفْ نِعْمةَ اللهِ عليه إلا فى مَطْعَمِهِ ومَشْرَبِهِ فقَدْ قَلَّ عِلْمُه وحضر عذابُه . . » .

وقال عبد الله المزنى : يا ابنَ آدمَ إنَّ أردتَ أن تعلَمَ قدرَ مَا أنعم اللهُ عليك فَغَمِّضْ عَيْنَيك . . .

ورُوى أن داودَ عليه السلامُ قال : « رَبِّ ، أَخْبِرْنى ، ما أَدْنَى نِعَمِكَ عَلَىَّ . ؟ . . فأَوحى اللهُ إليه يا داودُ تَنَفَّسْ ، فَتَنَفَّسَ ، فقال : هذا أَدْنَى نِعْمَتِى عليك . » .

وعن أبى هريرةَ رضى الله عنه قال ، قال رسولُ اللهِ ﷺ : « انظُروا إلى مَنْ هُوَ أَسْفَلُ مِنكم ، فإنَّه أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَروا نِعْمَةَ اللهِ عليكم».

وقال ﷺ : « مَنْ أَصبَح آمِنًا فى سِرْبِه ، مُعَافًى فى بَدَنِه ، عِنْدَهُ قوتُ يومِهِ فكأَنَّما حِيزَتْ له الدُّنيا بِحَذَافِيرِها . . » .

وقال ﷺ : « . . من ابْتُلِىَ فَصبرَ ، وأُعْطِىَ فَشكَر ، وظُلِمَ فَغَفَر ، وظَلَمَ فاسْتَغْفَرَ : ثم شَكَر ، ثم سكتَ ، قالوا : مالَهُ يا رسول الله ؟ قال : ﴿ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُون . . ﴾(١) »

فاتقوا الله — عباد الله — وتوبُوا إليه لعله يرحمكم » .

---

(١) الأنعام : ٨٢ .

في الاستغفار

بركات الدين والدنيا

قال الله تعالى من سورة النساء :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَو يَظْلِمْ نفسَه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُوراً رَّحِيما ﴾(١) .

أيها المؤمنون :

الغُفرانُ والمغفرةُ من الله تَعَالى أَن يصونَ الربُّ عبدَه من أن يَمَسَّه العذابُ والاستغفارُ من العبدِ طلبُه ذلك من الله عز وجل.

واللهُ رحيمٌ بعباده كما قال تعالى: ﴿ نَبِّئْ عِبادِى أَنِّى أَنا الغَفُورُ الرَّحيم ﴾(٢) ، خلقهم سبحانه وهو يعلمُ ضعفَهم ، ففتح لهم بابَ الرجاءِ فى عَفْوِه ومغفرتِه ، وأمرهم أن يلجأُوا إلى ساحاتِ كَرَمِه وجودِه طالبين تكفيرَ السيئاتِ ، وسترَ العوْراتِ ، وقبولَ التوب .

ومن رحمة اللهِ بعبادِه شمولُ عفوِه مرتكبَ المعصيةِ ، كما شمِلَ عفْوُه الظالمَ نَفسِه بإلحادِه وشركِه إذا تاب وأقلعَ واستغفرَ ربَّه من سالِفِ ذنوبه وأخلص الإيمانَ لله ، وعزم على توبة نَصُوح ، ولم يثبُتْ على شركِهِ أو معاصيه ولم يُصِرّ على ما هو عليه من خلاف ومعانَدَة .

فمن تاب واستغفر تاب اللهُ عليه ، والحقُّ تبارك وتعالى يقول فى صفات المتقين : ﴿ والَّذِين إِذَا فَعَلُوا فاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهم ذَكَروا اللهَ فاسْتغفرُوا لِذنُوبِهم وَمَن يَغْفِرُ الذنوبَ إِلا اللهُ ولم يُصِرُّوا عَلَىٰ ما فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُون ﴾ (٣) .

---

(١) النساء : ١١٠ (٢) الحجر : ٤٩ .

(٣) آل عمران : ١٣٥ .

فالاستغفارُ عظيمٌ وثوابُه جَسيم، وفى بيانِ ثوابِ المستغفرين يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أُولئِكَ جزاؤُهم مَّغْفِرةٌ مِّنْ رَّبِّهِم وجنَّاتٌ تَجْرى مِنْ تَحْتِها الأَنْهار خَالِدين فِيها وَنِعْمَ أَجرُ العَامِلين ﴾ (١) .

وما أعظمه من جَزاء ! وروى الترمذى أن رسوَل الله ﷺ قال : «مَنْ قال أَستغفِرُ اللهَ — العظيم — الذى لا إله إلا هُو الحىَّ القيومَ وأَتوبُ إليه غُفر له وإن كان قد فَرَّ من الزحْف» .

وروى أبو بكر الصديق رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « عليكم بلا إلٰه إلا اللهُ والاستغفارِ فأَكثِروا منها ، فإن إبليس قال : أَهلكتُ الناسَ بالذنوب وأهلكونى بلا إلٰه إلا اللهُ والاستغفارِ ، فلما رأَيتُ ذلك أَهلكتُهم بالأَهواءِ فهم يحسبون أَنهم مهتدون » .

وفى المسند عن أَبى سعيد أن النبى ﷺ قال : « قال إبليس ، يارِبّ وعزتِكَ لا أَزالُ أُغوى عبادَك ما دامت أَرواحُهم فى أَجسادهم ، فقال الله : « وعزتى وجلالى ولا أَزال أَغْفِرُ لهم ما استغفرونى » .

فطوبى لمن عرف أن له ربًّا غفورًا رحيمًا كريمًا يقبل عباده إذا أَقبلوا إليه نادمين ، وطرقوا بابه باكين مستغفرين ، وقد أَمر بذلك نبيه والمؤمنين، فقال : ﴿ فاعْلَمْ أَنَّهُ لا إلٰهَ إلا اللهُ واستغفِرْ لذَنْبِكَ ولِلْمُؤْمِنينَ والمُؤْمناتِ واللهُ يعْلَمُ مُتَقَلَّبكُمْ ومَثْوَاكُمْ ﴾ (٢) .

والاستغفار إذا كثر من الأُمة وصدر عن قلوب موقنةٍ مخاصة دفع عنها ضروبًا من النقم والشرور العامةِ ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُم وأَنتَ فِيهِمْ ومَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون ﴾ (٣) .

---

(١) آل عمران : ١٣٦ .
(٢) محمد : ١٩ :
(٣) الأنفال : ٣٣ .

فالناس فى أمان من العذاب الشامل ما كان نبيُّهم بين أظهرهم، وما كان فيهم مستغفرون قلوبُهم مخلصة .

ولذا قال ابنُ عباس : لم يعذِّب الله أهل قرية حتى يخرج النبي منها والمؤمنون ويلحقوا بحيث أُمروا . . . وإن الأنبياء خُتموا بالنبى محمد ﷺ وقد لحق بالرفيق الأعلى وبقى للناس التوبةُ والاستغفارُ وإخلاصُ المحبةِ لله وصدقُ الرغبةِ فى طلب البركةِ وتخليص المهجةِ من العذاب .

وفى الحديث الذى رواه أنس قال : سمعتُ النبى ﷺ يقول : « إن اللهَ يقول : إنى لأَهِمُّ بعذابِ أهلِ الأرضِ فإذا نظرتُ إلى عمارِ بيوتى وإلى المتحابين فىّ وإلى المتهجِّدين والمستغفرين بالأسحار صَرَفْتُ عنهم العذابَ بِهِم » .

يا أهـــل الإيمـــان :

والمستغفرون محلٌّ رعاية الله، وأهلٌ لحفظه ورحمته، وقد أثنى اللهُ عز وجل على عبادِه المتقين المداومين على الاستغفار خصوصا وقت السحر ففيه يكون الدعاءُ والاستغفار أرْجَى للقبول ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ ربَّنَا إنَّنا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنا ذُنوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّار * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ والقَانِتِينَ والمُنْفِقِينَ والمُسْتَغفرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴾(١).

وهذا فى صفات المتقين الذين هم أهل الكرامة والرحمة والنعيم الدائم، وفيهم أيضا يقول عزَّ وجل :

﴿ إِنَّ المُتَّقِينَ فِى جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ ربُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنين * كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُون * وبالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُون * وَفِى أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ للسَّائلِ والمَحْرُوم ﴾ (٢) .

(١) آل عمران : ١٦ و ١٧ . (٢) الذاريات : ١٥ - ١٩ .

وفى الحديث : « ينزل ربنا فى كل ليلة إلى سماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول : هل من سائل فأعطيه ؟ هل من داع فأستجيب له ؟ هل من مستغفر فأغفر له ؟ » .

وكان النبى ﷺ يوصى أمته بالاستغفار ويحثها عليه ليتوب الكافر ، ويستغفر ربه لما سلف ، وليقلع العاصى ، ويستديم وقد أمره ربه أن يقول للناس :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ * وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ (١) .

فمن ثمرات الاستغفار وبركاته أنه يكون سببًا فى أن يمتع الله المستغفرين بالمنافع من سعة الرزق ورغد العيش ، ولا يستأصلهم بالعذاب كما فعل بالأمم التى عاندت وأصرت على الكفر ، ولذا حذر النبى ﷺ من الإصرار على الشرك بعد الحث على الاستغفار ، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى يأمر نبيه بإنذارهم :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢)

وقد جاء فى نصيحة هود عليه السلام قوله لقومه :

﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴾ (٣) .

فالاستغفار مع الإقلاع عن الذنوب سبب للخصب والنماء وكثرة النسل وزيادة العزة والمنعة . . . وفى دعوة نوح قومه ونصحه لهم نسمع

---

(١) هود : ٢ و ٣ . (٢) فصلت : ٦ .

(٣) هود : ٥٢ .

اللهَ عز وجل يقول : ﴿ فقلتُ استَغْفِروا ربكم إنَّهُ كانَ غَفَّارا * يُرسلِ السَّماءَ عليكم مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لكُمْ جَنَّات وَيَجْعَلْ لَكُم أَنْهَارًا ﴾ (١) .

فني الإيمان رَحمةٌ بالعبادِ وفي الاستغفار بركاتُ الدين والدنيا ، وفي الحديث « من لزِم الاستغفارَ جعل اللهُ له من كلِّ همٍّ فَرَجًا ، ومن كلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا ، ورزقَهُ من حيثُ لا يحتَسِب » .

وهذا نبيُّ اللهِ صالحٌ عليه السلام يطلب إلى قومه أن يستنزلوا رحمة الله عليهم بالاستغفار فقال لهم :

﴿ قَالَ يَا قَومِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئةِ قَبْلَ الحَسَنَةِ لَولا تَسْتَغْفِرُون اللهَ لعَلَّكُمْ تُرْحَمُون ﴾(٢) .

أي هلَّا تتوبون إلى الله من الشرك لكي تُرحموا . . وبيّن لهم أن اللهَ قريبٌ منهم يُجيب مَنْ دعاه ولا يُخيِّب من رجاه ليفتحَ أمامهم بابَ الأمل إن كانوا يائسين فقال صالح :

﴿ قالَ يا قَوْمِ اعْبدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِّنْ إلهٍ غَيْرُه هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِّن الأَرْضِ واسْتَعْمَرَكُم فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوه ثُمَّ تُوبُوا إلَيْه إنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾ (٣) .

وهذا شعيبٌ عليه السلامُ يرى قومهُ على أسوإ الأخلاقِ مع الشركِ والإلحادِ فيلحّ فى نُصحهم للإقلاع عما هم فيه من عَمى بصائر وضلال ، ويبشرهم بأَن ربَّهم رحيمٌ بعباده ودودٌ ، يرضى عن عباده الصالحين ويكفر عنهم ما مضى من سيئاتهم إذا أخلصوا النيةَ والتوجُّهَ إليه ، ولنتدبر قولَ شعيب لقومه :

(١) نوح : ١٠ — ١٢ . (٢) النمل : ٤٦ .
(٣) هود : ٦١ .

﴿واسْتَغْفِروا ربَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ (١) .

فما أعظمَ بركاتِ الاستغفارِ به تُستنزَلُ الرحماتُ وتبارَكُ الأرزاقُ وتَكْثُرُ الخيراتُ ، ويُعْطِى اللهُ الأموالَ والبنين وَيغْفِرُ الذنوبَ ، ويمنح القوةَ والسدادَ والرشادَ .. وفى الحديث : « ما من رجل يذنب ذنبًا فيتوضأ فيُحْسِنُ الوضوءَ ثم يصلى ركعتين فيستغفرُ اللهَ عز وجل إلَّا غَفَرَ له » .

فاتقوا الله واستغفروه يغفر لكم وتوبوا إليه لعله يرحمكم .

* * *

الخطبة الثانية :

روى على بن أبى طالب رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ أخذ بيده ثم قال : « ألا أعلمُك كلماتٍ تقولهنَّ لو كانت ذنوبُك كمَدَبِّ النمل - أو قال كمدب الذرِّ - لغفرها اللهُ لك على أنه مغفورٌ لك : اللهمَّ لا إلٰهَ إلا أنت سُبحانك عملتُ سُوءًا وظلمتُ نَفْسى فاغفرْ لى فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت » .

وعن أبى هريرةَ : « ما رأيتُ أكْثَرَ اسْتغْفَارًا مِنْ رسُولِ الله ﷺ

وعن أوس بن شداد أن رسول الله ﷺ قال : « سَيِّدُ الاسْتغْفَارِ : اللهمَّ أنْتَ رَبِّى لا إلٰهَ إلا أنتَ خَلَقْتَنِى وأنا عبدُك وأنا على عهدك ووعدك ما اسْتَطَعتُ أعوذُ بِكَ منْ شَرِّ ما صَنَعْتُ أبُوءُ لَك بِنعْمَتكَ عَلَىَّ وأبوءُ بِذَنْبِى ، اغفرْ لى فإنَّهُ لا يَغْفرُ الذُّنوبَ إلَّا أنْت » .

مَنْ قالها من النهارِ مُوقنًا بها فمات من يومه قبلَ أن يُمْسى فهُوَ

---

(١) هود : ٩٠ .

من أهل الجنَّة ، ومَن قالها من الليلِ وهو مُوقنٌ بها فماتَ قبل أن يُصبحَ فهُو من أهلِ الجنَّة » .

ومن دعائه : صلى الله عليه وسلم :

« اللهمَّ اغفرْ لى خَطيئتِى وجَهْلِى وإسرافى فى أمرِى ، وما أنتَ أعلمُ به منِّى ، اللهمَّ اغفرْ لى هَزْلى وَجِدِّى وَخَطَئِى وعَمْدِى وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِى » .

وفى آخر الصلاة : « اللهمَّ اغْفرْ لى ما قَدَّمْتُ وما أخَّرْتُ وما أسْرَرْتُ ، وما أعْلَنْتُ وما أسْرَفْتُ وما أنت أعْلَمُ بِه منِّى ، أنتَ إلَهِى لَا إلَهَ إلا أنت » .

فاتقوا الله عباد الله ، واستغفروه يغفر لكم ، وتوبوا إليه . وسلوه من فضله يُعْطكم .

ذكر الله
يُحيي القلوب وتُستنزل به الرحمات

قال اللهُ تعالى من سورة البقرة :

﴿ فَاذْكُرونِي أَذْكُرْكُمْ واشْكُروا لِي ولَا تَكْفُرون ﴾ (١)

يا أهــل الإيمــان :

أمر اللهُ تعالى عبادَه بأَن يذكروه ويشكروا له ، كما أَمرهم بأَن يُكثروا من ذكره وشُكرِه على ما أَنعم به عليهم ، يقول عز وجل من سورة الأَحزاب :

﴿ يَاأَيُّها الَّذينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذكْرًا كَثيرًا * وَسبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصيلًا ﴾(٢) .

وأَصلُ الذِّكر التنبُّهُ بالقلب للمذكورِ والتيقُّظُ له ، وَسُمِّيَ الذكرُ باللسان ذكرًا لأَنه دلالةٌ على الذكر القلبي .

وجاءَ فى تفسير قوله تعالى ﴿ فاذْكُروني أَذْكُرْكُمْ ﴾ .

اذكروني بطاعتي ، أَذكركم بثوابي ، ومغفرتي ، ومعونتي ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَن يُطعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عظيمًا ﴾(٣)، فذكْرُ الله يقتضي ذكرَ أَمرِه ونهْيِه والوقوفَ عند حدوده ، ولزومَ طاعته ، فمن لم يُطعه سبحانه لم يذكره وإن أَكثر التسبيحَ والتهليلَ وقراءَةَ القرآن ، كما قال سعيد بنُ جبير .

وجاءَ كذلك فى تفسيره .

---

(١) البقرة : ١٥٢ (٢) الأحزاب : ٤١ و ٤٢ .

(٣) الأحزاب : ٧١ .

* فاذكرونى بالدُّعاء اذكُرْكم بإعطاء الآلاء والنَّعماء لقوله تعالى : ﴿ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُم ﴾(١) .

* واذكرونى بالإحسان أذكُركُم بالرحمة لقوله سبحانه : ﴿ إِنَّ رَحْمَةَ اللهِ قَرِيبٌ من المُحْسنين ﴾(٢) .

* واذكرونى بالاستغفار أذكُركُم بغفرانِ ذنوبِكم والتجاوزِ عن سيئاتكم ، لقوله تعالى :

﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيما ﴾ (٣) .

* واذكرونى بالصبر أذكركم بأَوْفَىٰ الأَجر ، لقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّىٰ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِساب ﴾ (٤) .

* واذكرونى بالتوكُّل وتفويضِ أُموركم إلىَّ أذكركم بالكفاية ، لقوله سبحانه :

﴿ وَمَن يَتَوكَّلْ عَلَىٰ اللهِ فَهُوَ حَسْبُه ﴾ (٥) .

فمن فضل الله وإحسانِه ورحمتِه بعبادِه الذاكرين أنه يمنحُهم الخيراتِ والكراماتِ ، ويُحْسِنُ إليهم بالمثوباتِ ، وبإجابةِ الدعاء ، واللطفِ فى القضاء ، وبالهدايةِ ، والكفايةِ ، والرضوانِ ، والعفوِ ، والغفرانِ جزاءَ ذكرِهم له ، وطاعتِهم إياه ، وإنابتِهم إليه وإخلاصِهم ، وتفانيهم فى محبتِه ، وصدقِهم فى العبوديةِ له تعالى .

---

(١) غافر : ٦٠

(٢) الأعراف : ٥٦ .

(٣) النساء : ١١٠ .

(٤) الزمر : ١٠ .

(٥) الطلاق : ٣ .

يا أيها المؤمنون :

إن المؤمن مُطالَبٌ بأَن يذكرَ اللهَ عز وجل على كل أحيانه يذكره في خَلوته وعند اختلاطِه بالناس ، لا يَفْتُرُ عن تمجيدِ الله ، وتقديسِه ، وتسبيحِه ، وتهليلِه والثناءِ عليه بجميعِ محامده ، وعلى المؤمن أن يستحضرَ عظمةَ الله ، وسلطانَه في قلبه دائمًا ، وأَن يتفكرَ في مخلوقات اللهِ الدَّالةِ على وجوده وقدرتِه المطلقة ووحدانيتِه ، وقد مدح اللهُ أُولى الأَلبابِ بأَنهم : ﴿ الَّذِينَ يذكُرونَ اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وعَلَىٰ جُنُوبِهِم وَيَتَفكَّرُون فِي خَلْقِ السَّمَواتِ والأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّار ﴾ (١) .

قال ابنُ عباسٍ رضى الله عنهما : لم يفرضْ اللهُ تعالى فريضةً على عباده إلا جعلَ لها حدًّا معلومًا ، وعَذَر أَهلَها فى حال العُذر غيرَ الذِّكْرِ فإنه لم يجعلْ له حدًّا ينتهى إليه ، ولم يَعْذُرْ أَحدًا فى تَركه إلا مغلوبًا على عقلِه ، فلذلك أَمرهم به فى كلِّ الأَحوال فقال تعالى :

﴿ فإذَا قَضَيْتُمُ الصَّلاةَ فاذكُروا اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُم ﴾(٢).

وقال : « اذْكُروا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا » أَى بالليل والنهار ، فى البر والبحر ، والسفر والحضَرِ ، والغِنَى والفقر ، والمرضِ والصحةِ ، وفى السرِّ والعلانية .

والساعةُ التى تمرُّ بابن آدمَ لا يذكرُ فيها ربَّه سيندمُ عليها يوم لا ينفع الندم .

فقد جاء فى الحديث الذى روته أُمُّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها :

« . . . ما مِنْ سَاعةٍ تمرُّ بابنِ آدمَ لم يذكر اللهَ فيها بخيرٍ إلا تحسَّرَ عليها يومَ القيامة » .

(١) آل عمران : ١٩١ . (٢) النساء : ١٠٣ .

وقد حذَّرنا الله من الغفلة عن ذكره فقال من سورة الأعراف :

﴿ واذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وخِيفَةً ودونَ الجَهْرِ مِنَ القَوْلِ بالغُدُوِّ والآصالِ وَلا تَكُنْ مِّنَ الغَافِلِين ﴾ (١) .

وإن الغفلةَ عن ذكرِ اللهِ عز وجل لَمِنْ صِفَاتِ المنافقين ، وقد ذمَّهم اللهُ لذلك فقال :

﴿ . . وَلَا يَذْكُرونَ اللهَ إلا قَلِيلاً ﴾ (٢) .

وكان داودُ يخافُ على نفسه من مخالطةِ الغافلين عن ذكر اللهِ ، ومن دعائه : « إلٰهِي إذا رأيتَنِي أُجاوزُ مجلسَ الذاكرين إلى مجلسِ الغافلين فاكسِرْ رِجْلِي دُونَهُم فَإِنَّها نِعْمَةٌ تُنْعِمُ بِها عَلَيَّ » .

وإنَّ ذِكْرَ الله عز وجل يشمل ذكرَ عقابِه ووعيدِه وانتقامِه فيتيقظُ الضميرُ وتنمو ملكةُ المراقبةِ فى النفس ، ويمتلئُ القلبُ خشيةً من الله ، فيكفُّه ذلك عن المعاصى ، ويردعُه عن الشر .

قال الحسن : الذِّكر ذِكْران : ذِكْرُ اللهِ عز وجل بين نفسك وبين الله عز وجل وما أَحسنَهُ ، وأَعظمَ أَجْرَهُ ، وأَفضلُ من ذلك ذكرُ اللهِ سبحانه عندما حرَّم اللهُ عز وجل ، قال الله تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّروا فإِذَا هُمْ مُّبْصِرُون ﴾(٣) .

أَى إذا أَلَمَّ بِهم شىءٌ قليل من وسوسة الشيطان بفعل المعاصى أو ترك الطاعات تذكروا الله وعقابَه للعاصين ، ومثوبتَه للطائعين ، فإذا هم مبصرون الحقَّ فيرجعون إلى طاعة الله ، وما يُرْضيه تاركين ما يُغضبه من معاصيه .

---

(١) الأعراف : ٢٠٥ .
(٢) النساء : ١٤٢ .
(٣) الأعراف : ٢٠١ .

وإذا ذكر المؤمنُ رحمةَ الله وعفوَه ومغفرتَه وجودَه ، اطمأنَّ قلبُه ، وقَوِىَ رجاؤُه فى عفو الله وقبولِ التوبةِ والعملِ الصالح ، ولنتدبَّرْ قوله تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ أَلا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ (١) .

وفى الإعراض عن ذكر الله حِرمانٌ من هذه الثمرات العظيمة ومن هذا الخير الكثير ، كما أن فى ترك الذكر بلاءً عظيمًا وشرًّا جسيمًا ، ولنتدبر قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنُوا لا تُلْهِكُم أَمْوَالُكُم وَلَا أَوْلَادُكُم عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فأُولئكَ هُمُ الخَاسِرُون ﴾ (٢) .

أى من يشتغلُ بالولدِ والمالِ عن إدامةِ الذكرِ وطاعةِ الربِّ ، فأُولئكَ هُم الخاسرونَ ، وقال تعالى :

﴿وَمَنْ يُعْرِضْ عنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا﴾(٣) أى عذابا شاقًا مؤلمًا.

فطُوبى لمن شُغِل قلبُه ولسانُه بذكر الله عز وجل ، فذكْرُ اللهِ من أعظم النِّعم .

فقد روى أبو ذرٌّ رضى الله عنه أن النبيَّ ﷺ قال : « ما مِنْ يوم وليلة إلا ولله عزَّ وجلَّ فيه صَدَقةٌ يَمنُّ بها عَلى مَنْ يَشَاءُ من عبادِه وَمَا منَّ اللهُ علىٰ عبدٍ بأفضلَ مِنْ أنْ يُلْهِمَهُ ذِكْرَهُ » .

وَذِكْرُ الله من أعظم القُربات ، ومن أقوى الأسبابِ الموصلةِ إلى محبة الله وبالذكر تُسْتَدْفَعُ الآفاتُ ، وَتُسْتَنْزَلُ الرحَماتُ .

يقول معاذ بن جبل رضى الله عنه : « إنَّ آخرَ كلامٍ فارقتُ عليه

---

(١) الرعد : ٢٨ .

(٢) المنافقون : ٩ .

(٣) الجن : ١٧ .

رسولَ اللهِ ﷺ أنّى قلتُ: أيُّ الأعمالِ أحبُّ إلى اللهِ ؟ قال : أن تموتَ ولسانُكَ رَطْبٌ من ذكرِ اللهِ » .

وقال معاذ : « ما من عَمَلٍ أَنْجَىٰ من عَذَابِ اللهِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ » واللهُ عز وجل مع عبده المخلصِ فى الطاعة ، المدوامِ على ذكرِه يحفظُه ، ويرعاه ، ويثبّتُه وينصُره ، وفى الحديث القدسىّ :

« أَنَا مَعَ عَبْدِى مَا ذَكَرَنِى وَتَحَرَّكَتْ شَفَتَاه بِى » .

ومن وصية الحبيب المصطفى ﷺ لأمِّ سلمةَ رضى الله عنها : « . . . وأَكْثِرى مِنْ ذِكْرِ اللهِ ، فإنكِ لا تـأتين اللهَ بشىءٍ أحبَّ إليه من كثرةِ ذكرِه » .

قال أبو هريرة رضى الله عنه ، قال رسولُ الله ﷺ : « من قال : لا إلٰه إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له ، له المُلْكُ ، ولَهُ الحمْدُ ، وهو على كلِّ شىءٍ قديرٌ كلَّ يومٍ مائةَ مرةٍ كانت له عِدْلَ عَشْرِ رقَابٍ ، وكُتبت له مائةُ حسنَةٍ وَمُحِيتْ عنه مائةُ سيئةٍ ، وكانت له حِرْزًا من الشَّيطانِ يومَه ذَلِكَ حتّى يُمْسى ، ولم يأْتِ أحدٌ بأفضلَ مِمَّا جاء به إلا أحدٌ عَمِلَ أكثرَ من ذلك » .

وقال ﷺ : « الباقياتُ الصالحاتُ هُنَّ : لا إلٰهَ إلَّا اللهُ ، وسُبْحانَ اللهِ ، والحمدُ للهِ ، واللهُ أكبرُ ، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله » .

وفى الحديث : « كلمتان خَفيفتان على اللسانِ ، ثقيلتان فى الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن : سُبحان اللهِ وبِحَمْدِه ، سُبْحَانَ اللهِ العظيم » .

عن أبى هريرةَ رضى الله عنه قال : قال النبىُّ ﷺ « مَثَلُ الَّذِى يذكر ربَّه والذى لا يذكُرُ مَثَلُ الحَىِّ والميِّتِ » .

فاتَّقُوا الله ـ عبادَ الله ـ واذكروه يذكركم ، واشكروا له يَزِدْكم ، وتُوبوا إليه يَتُبْ عليكم .

طُوبَىٰ لمن صدق يقينُه واستغرقَ فى طاعةِ ربِّه ، وسبَّح لسانُه وَلَهِج بذكرِ الله وشكرِهِ والثناء عليه بما هو أهله ، طوبى له وحسنُ مآب . .
واتَّقُوا اللهَ ـ عباد الله ـ وَسَلُوه من فضلِه يُعْطِكُم ، واسْتَغْفِروه يَغْفِرْ لكم .

* * *

الدّعاء سلاح المؤمن

قال الحق تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾(١) ..
أى : اذكروا ربكم ، وادْعوه ، واسألُوه من فضلِه فإنَّ الله يحب أن يُسأَل .

قال أنس رضى الله عنه ، إن النبيَّ ﷺ قال : « لِيَسْأَلْ أَحدُكُم رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا ، حَتَّى يَسَأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِه إِذَا انْقَطَعَ » .

أيها المؤمنون :

إن الدعاء سلاح المؤمن ، وعماد الدين ، ونور السموات والأرض وليس شىء أكرم على الله من الدعاء ، وليس شىء أنفع منه فى تحقيق المطلوب ، ودفع الضر والشر وتفريج الكرب والهم ، وجلب الخير والبركة ، وإذا فوض العبد أمره إلى الله وأحسن توكله عليه ، وأخلص الاتجاه ، وصدقت نيته ، وحضر قلبه ، وألح على الله فى دعائه وسؤاله متوسلا إليه بأسمائه وصفاته ، موقنًا بالإجابة غير يائس ولا شاكٍّ مُقرًّا بعجز نفسه وفاقته وحاجته إلى ربه فإن الله عز وجل لا يردُّه خائبًا ولا يُشمت فيه عدوًّا ولا حاسدًا .

استعان الرسلُ والصالحون والطيبون والطيبات بالدعاء فى أشدِّ أوقاتِهم ، وفى أقسى المِحَنِ فأزال الله كُرَبَهم ، وحقق لهم الخير ونجّاهم من الغم ، وآمنهم من الخوف ، وشفاهم من المرض .

فهذا إبراهيمُ الخليلُ عليه السلامُ يجتمعُ عليه أهلُ الكفرِ وهو الوحيدُ بينهم يعبدُ اللهَ ويوحدُه ، ويُوثِقُونه بالحبال ، ويَضْرِمون له

---

(١) غافــر ٦٠ .

النار ، ويُلْقُونه فيها ، فاستعان عليهم بتفويضِ الأَمرِ لصاحِب الأمر ، وَحَّدَ اللهَ ووصَفَه بكلّ صفاتِ الكمال ، وحَمده على كل حال ، وأقرّ له بالملكِ ، ونَفَى عنه الحاجة إلى الشريك فقال : « لا إلهَ إلّا أنتَ سُبحانَك لك الحمدُ ولك المُلْكُ لا شريكَ لَك » وحين استقرّ فى النار قال : « حَسْبِيَ اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ » أى الله يكفينى ما أهمَّنى ويتولَّى أمرى كله ، وهو وكيلى ونعم الوكيل ، وهذا من أنفع الدعاء حين يصدر من قلب واعٍ فاهمٍ ، يقول الرسول ﷺ : « إذا وقعتم فى الأَمر العظيم فقولوا : حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيل » فوّض إبراهيم الأَمر إلى صاحبه الذى يقول للشيء كن فيكون ، فقال الله : ﴿ يَا نَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَامًا على إبْرَاهيمَ ﴾(١) فتحوّل المكان حوله إلى أجمل ما يكون من النسيم والطيب والرَّوْح ، يقول عليه السلام بعد خروجه منها : « ما كنتُ أَيامًا وليالِيَ قطّ أَطيبَ عيشًا إذ كنت فيها ، ووددتُ أن أعيشَ حياتى كلَّها مثلَ عَيْشى إذ كنتُ فيها ».

أيها المؤمنون :

ومحنةُ النبيِّ أيوبَ عليه السلام كانت قاسيةً شديدةً فقد ابتلاه اللهُ فى ماله فهلَك كلُّه ، وكان ذَا ثراءٍ وغِنًى ، وابتُلِيَ فى البنين والبنات فماتوا جميعًا حين انهدم عليهم البيت ، وابتُلى فى جسمه بالأَمراض الموجعة التى نفَّرت منه الناس فعاش وحيدًا منفردًا تخدمه زوجه الوفية البارة الصابرة وتسعى على قوته ولم يكن هذا الاختبار لهوانه عليه السلام ولكن لتمحيصه وزيادة ثوابه ورفع درجاته .

والنبيُّ محمدٌ ﷺ يقول : « أَشَدُّ الناسِ بَلاءً الأَنبياءُ ، ثُمّ الصَّالِحُون ثُمّ الأَمْثَلُ فالأَمْثَلُ » . وفى الحديث : « يُبْتَلَى الرجلُ على قدْرِ دينِه فإنْ كان فى دينِه صلابةٌ زِيدَ فى بَلائِه » .

---

(١) الأنبياء : ٦٩ .

وبلغ النبي أيوب عليه السلام الغاية فى الصبر والتسليم لقضاء الله وقدره حتى صار قدوة يُضرَب به المثلُ ، قالت له زوجه : « يا أيوب ، لو دعوتَ ربَّك يُفرِّجُ عنك ؟ فقال : « قد عشتُ سبعينَ صحيحًا ، فهل قليلٌ لله أن أصْبِرَ لَهُ سَبْعين سنةً » .

ثم شعر النبيُّ الصالحُ أيوب عليه السلام أن المرضَ وصل إلى الحدِّ الذى أعجزه عن النهوضِ للصلاة وأحسّ بشماتةِ الأعداء الذين أشاعوا أن مرضَه إنما هو لغضبِ الله عَليه ، وقد سُئِل فيما بعد : ما كان أشدَّ عليكَ فى بلائِكَ ؟ قال : شَماتةُ الأعداءِ . فجأر أيوبُ عليه السلامُ ، ورفع أكفَّ الضَّراعة إلى عالم الجهرِ والسرِّ أرحمِ الراحمين مخبرًا عن حاله ــ واللهُ أعلمُ به ــ مُقِرًّا بعجزِهِ قائلاً : « ربِّ إنى مسَّنِيَ الضُّرُّ وأنت أرحمُ الراحمين » قال الله تعالى : ﴿ وأيُّوبَ إذْ نَادَى ربَّه أنِّى مسَّنِى الضُرُّ وأنتَ أرْحَمُ الراحمين ﴾ (١) .

فتوسَّل إلى الله بربوبيته فهو الخالق وهو النافع الضار وهو الشافى ، وأظهر فقرَهُ واحتياجه إلى ربه ، وأقر له بصفة الرحمة ، وأنه أرحم الراحمين ولم يَشْكُ ولم يجزعْ عليه السلام ، وصدَر الدعاءُ من القلب الصافى ، فأجاب الرحمن دعاءَه ، وحفظ عبده الصابر ولم يُشمت فيه عدوَّه فأمره : ﴿ اركُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ باردٌ وشَرَاب ﴾(٢) وركَضَ برجله ونبع الماء ، واغتسل العبد الصابر ، وشرب ، فعاد أنضر وأحسن ما يكون ، وألبسه الله حلة من الجنة ، وأحسن إليه مولاه بعد تمام الصحة بأن آتاه أهله الذين ماتوا ليسعد بهم قلبه ، وآتاه مثلهم سبع بنين وسبع بنات أنجبتهم الزوجة الصالحة ليكونوا قرة عين لها وله ،

---

(١) الأنبياء : ٨٣   (٢) ص : ٤٢

وأرسل الله سحابةً على قدْر قواعد داره ، فأمطرت جرادًا من ذهب ، فجعل يجمع فى ثيابه وكما أن البلاء اختبار ، فالنعمة والغنى اختبار فناداه ربه : «يا أيوبُ ألم أكنْ أغنيتُكَ عَمَّا تَرى ؟ قال : بلى ياربِّ ، ولكن لا غِنَى لى عَنْ بَركتِكَ » فهو الصابر الشاكر المقرُّ بحاجته إلى ربه دومًا ، ولنتدبر: « وأَيُّوبَ إِذْ نَادَى ربَّه أَنِّى مَسَّنِىَ الضُّرُّ وأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين * فاسْتَجَبْنا له فكَشفْنا ما بِهِ مِنْ ضُرٍّ وآتَيْناهُ أَهلَهُ ومِثْلَهُم مَّعَهُم رَحمةً مِّنْ عِنْدِنا وذِكْرَى لِلْعابِدِينَ » (١) .

فعل الله به ذلك رحمة به ، وتذكيراً للعباد فى كل زمان فالله لا يبتلى الصالحين من عباده لهَوانهم عليه ، وإنما ليضاعف الثواب لأحبابه ويُعلى منازلهم وليكون أيوب قدوة لكل مُبتلى فى الصبر والشكر « وذكرى للعابدين » .

وتعالوا نرى يونس بن متى عليه السلام ، فقد اختبره الله عز وجل بالحبس فى بطن حوتٍ أمر بألا يأكل له لحمًا ، ولا يهشم له عظمًا ، فقد أراد الله أن تكون بطنه لعبده الصالح سِجنًا ، لأن يونس عليه السلام يئس من إيمان أهل قريته ، فأسرع بالخروج منها باجتهاده ، بعد أن أنذرهم بعذابٍ من الله بعد ثلاثة أيام ظانًّا أن الله عز وجل لن يُضيق عليه ، أو لن يقضى عليه بعقوبة لمكانته عند ربه ،ولنتدبر قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ ﴾(٢) .

فلما آل الأمر إلى قاع البحر فى بطن الحوت ، وسمع تسبيح الحصا ، وتسبيح دواب البحر سبّح يونس ، وجأر إلى ربه : ﴿ فَنَادَىٰ فِى الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِين ﴾(٢) .

---

(١) الأنبياء : ٨٣ ، ٨٤ ، (٢) الأنبياء ٨٧ .

وفى هذا الدعاء توسّل إلى الله بتوحيده ، ونزّهَ ربّه وقدّسه ، وأقرّ يونس بذنبه قائلا : إنى ﴿ كنت من الظالمين ﴾ وفوّض الأمر إلى الله وحده فأجاب الله دعاءه ﴿ فاستجبنا له ونجّيناه من الغمّ وكذلك نُنْجى المؤمنين ﴾ وهنا العبرة والعظة لكل مؤمن ، فالله عز وجل ينجى المؤمنين من شدائدهم ، ويكشف عنهم الضر إذا هم وحّدوه وأخلصوا النية لله واتجهوا إليه بقلوب نقية وبنفوس صافية ، يسألونه من فضله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِين ﴾(١) إى إذا لجأوا إلى ربهم كما لجأ يونس ولنتدبر قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلا أَنَّه كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِين * لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(٢) فكان إنقاذه ببركة التوحيد والتسبيح والتفويض ولولا ذلك ما خرج من محبسه .

وقد جاء فى الأثر « من دعا بدعاء يونَس استُجِيبَ لهُ » قال أبو سعيد : يريد به ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾.

قال : ﷺ : « اسمُ اللهِ الذى إذا دُعِى بِه أَجابَ ، وإذا سُئِلَ به أَعْطَى دَعْوَةُ يونَس بنِ مَتّى » .

قال سعيد بن مالك راوى الحديث : قلتُ : يا رسولَ الله : هى ليونَس خاصةً أم لجماعةِ المسلمين قال :« هى ليونَس بنِ مَتّى خاصةً وللمؤمنين عامةً إذَا دَعَوْا بِها ، أَلَمْ تسمعْ قولَ اللهِ عزَّ وجل : ﴿ فَنَادَىٰ فِى الظُّلماتِ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كنتُ من الظَّالِمين * فاسْتَجَبْنَا لَهُ ونَجّيناه مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنين ﴾(٣) فهو شرطٌ من الله لمن دعاه . .

وهذه آسية ابنة مزاحم امرأة فرعون ، هى مؤمنةٌ صالحةٌ وزوجُها

(١) الأنبياء : ٨٨ (٢) الصافات : ١٤٣ و ١٤٤ .
(٣) الأنبياء : ٨٧ و ٨٨ .

فظٌّ عَنيد ، يريد أن يُكرهَها على الكفر ، فشدَّ لها أوتادًا فى الشمس ، وأمر أن تُلقى عليها صخرةٌ عظيمةٌ إن هى لم تكفرْ بالله ، وتؤمنْ بفرعون ، فجاءت الملائكة وأظلَّتْها من حر الشمس بأجنحتها .

وجأرت المرأة الصالحة تريد الخلاص :﴿ قالت ربِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فى الجَنَّةِ ونَجِّنِى مِنْ فِرْعَونَ وعَمَلِه ،ونجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِين ﴾(١) فأجاب الله دعاءها ورأت بيتها فى الجنة ، فضحكت ، واستبشرت ، فلما همُّوا بإلقاء الصخرة عليها ، انتزع الله روحها ،ونجّاها من القوم الظالمين ، ونزلت الصخرة على جسد لا روح فيه .

فما أعظم رحمة الله فعليكم بالدعاء وفى الحديث :

« سَلُوا الله مِنْ فَضْلِه فإنَّ اللهَ يُحِبُّ أن يُسألَ » .

واتَّقُوا اللهَ — عباد الله — وادعوه وتضرَّعوا إليه يُعْطكم، واستغفروه يَغْفِرْ لكم إنه سميعُ الدعاء .

---

(١) التحريم : ١١ .

الخوف والرجاء

قال الله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ ۞ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾(١) .

وفى الحديث القدسىّ يقول الله تعالى :

« لا أَجْمَعُ على عبدى أمنين ولا أَجْمَعُ له خوفين ، إنْ أَمِنَنِى فى الدنيا أخفتُه يوم القيامةِ ، وإنْ خافنى فى الدُّنيا أَمَّنتُه يومَ القيامة » .

الله عز وجل واسع الرحمة ، عظيم المغفرة حليم ستّار ، عفوٌ لم يُؤْيِس عباده من رحمته وعفوه ، وقد فتح باب الرجاء على مصراعيه لكل قلبٍ منيب ، وفؤادٍ نادم ، ولنتدبّر قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِم لا تقنَطُوا من رحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جَميعًا إنه هو الغفورُ الرحيمُ ۞ وأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ . ﴾(٢) .

وقد جاء فى حديث جابرٍ رضى الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « من السعادةِ أن يُطيل اللهُ عُمْرَ المرءِ فى الطاعةِ ويرزقَه الإنابه – أى الرجوع إلى الله بالتوبة مع الإخلاص – وإن من الشقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعْجبَ بعمله » .

فتح الله باب القبول لكل تائب ولم يحجُب بفضله مغفرته وعفوه عن النادم . . ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ وإنَّ ربَّكَ لَذُو مغْفِرَةٍ للنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِم وَإِنَّ ربَّكَ لَشَدِيدُ العِقَابِ ﴾(٣) .

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ . (٢) الزمر : ٥٣ و ٥٤ .
(٣) الرعد : ٦ .

قال سعيد بنُ المسيب : إن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال : « لولا عفوُ اللهِ ورحمتُه وتجاوزُه لما هَنَأَ أحدًا عيشٌ، ولولا عقابُه ووعيدُه وعذابُه لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَد » .

نعم . . إنَّ اللهَ عَفُوٌ غَفُورٌ توَّابٌ يقْبَلُ التوبَ ويغفرُ الذنبَ ويَبْسطُ يده بالنَّهار ليتوبَ مُسِيءُ الليلِ ، ويبسطُ يدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهارِ فضلًا منه سبحانه وإحسانًا . . وهو سبحانه وتعالى سريعُ العقاب ، وعذابه مؤلم منتقم جبَّار يُجازى بالعدل فلا ينبغى لعاقل أن يغفلَ طرفةَ عين عن مراقبته ، والخوفِ منه . . . ينبغى للعاقل أن يستحضرَ عظمةَ الله دائمًا ويخشاه فى السرِّ والعلن فعلمُه مُحيط ، وغضبُه شديد ، يملأُ قلوبَ الخائفين من غضبه أمنا ، ويُعَوِّضُ النادمين الآسفين على ما كان منهم بمحْوِ السيئات وغفرانِ الذنوب وقبول التوبة ، ورفع الدرجاتِ ولنتدبر ما يقوله الربُّ عز وجل فى الحديث القدسى :

« يا عبدى ، لم تَقْنَطْ ؟

ثم يقول : عبدى إنِ استَقَلْتنا أقلناك ، وإن تُبْتَ إلينا قَبِلناك ، وإن عزمتَ على قصدِنا أَدْنَيناك ، وإن اضطربَ دليلُك أريناك »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

وإن بكيتَ خشيةً أَحضرناك ، وإن بكيتَ خوفًا أَمَّناكَ ، وإن بكيتَ أَسَفًا على ما فاتَك من حُقوقنا عَوَّضنَاك » .

فالمؤمنُ حقًّا هو الذى يخاف ربَّه ويرجو رحمته وعفْوه ، فالخوفُ من الله هو اللجام القامعُ عن المعاصى وسببُه معرفةُ شدَّةِ عذابِ الله ، ويُسَمَّى خشية ورهبةً وتَقْوى ، فالمؤمنُ يخاف من ذُنوبِه ويخْشَى الخاتِمةَ وتُرْهِبُه سَوابِقُه . . . والخوفُ يَبعث العبدَ على الانكسار والتواضع

الخوف والرجاء

قال الله تعالى : ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنا الغفُورُ الرَّحِيمُ * وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ ﴾(١) .

وفى الحديث القدسيّ يقول الله تعالى :

« لا أَجْمَعُ على عبدى أمنين ولا أَجْمَعُ له خَوفين ، إنْ أَمِنَنى فى الدنيا أَخفتُه يوم القيامةِ ، وإنْ خَافنى فى الدُّنيا أَمَّنتُه يومَ القيامة » .

الله عز وجل واسع الرحمة ، عظيم المغفرة حليم ستَّار ، عفوٌّ لم يُؤْيس عباده من رحمته وعفوه ، وقد فتح باب الرجاء على مصراعيه لكل قلبٍ منيب ، وفؤادٍ نادم ، ولنتدبّر قوله تعالى :

﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهم لا تقْنَطُوا من رحْمَةِ اللهِ إنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جَميعًا إنه هو الغفورُ الرحيمُ * وأَنِيبُوا إلَى رَبِّكُمْ وأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْل أن يَأْتِيَكُمُ العَذَابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ . ﴾(٢) .

وقد جاء فى حديث جابرٍ رضى الله عنه أن رسولَ اللهِ ﷺ قال : « من السعادةِ أَن يُطيل اللهُ عُمْرَ المرء فى الطاعةِ ويرزقَه الإنابه – أى الرجوع إلى الله بالتوبة مع الإخلاص – وإن من الشقاوة أن يعملَ المرءُ ويُعْجبَ بعمله » .

فتح الله باب القبول لكل تائب ولم يحجُب بفضله مغفرته وعفْوه عن النادم . . ولنتدبر قوله تعالى :

﴿ وإنَّ ربَّكَ لَذُو مغْفِرَةٍ للنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِم وَإنَّ ربَّكَ لَشَدِيدُ العِقَاب ﴾(٣) .

---

(١) الحجر : ٤٩ ، ٥٠ (٢) الزمر : ٥٣ و ٥٤ .

(٣) الرعـد : ٦ .

قال سعيد بنُ المسيب : إن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال : « لولا عفوُ اللهِ ورحمتُه وتجاوزُه لما هَنَأَ أحدًا عيشٌ، ولولا عقابُه ووعيدُه وعذابُه لاتَّكَلَ كُلُّ أَحَد » .

نعم . . إنَّ اللهَ عَفُوٌّ غَفُورٌ توَّابٌ يقْبَلُ التوبَ ويغفرُ الذنبَ ويَبْسطُ يده بالنَّهار ليتوبَ مُسِيءُ الليلِ ، ويبسطُ يدَهُ بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهارِ فضلًا منه سبحانه وإحسانًا . . وهو سبحانه وتعالى سريعُ العقاب ، وعذابه مؤلم منتقم جبَّار يُجازى بالعدل فلا ينبغى لعاقل أن يغفلَ طرفةَ عينٍ عن مراقبته ، والخوفِ منه . . . ينبغى للعاقل أن يستحضرَ عظمةَ الله دائمًا ويخشاه فى السرِّ والعلن فعلمُه مُحيط ، وغضبُه شديد ، يملأُ قلوبَ الخائفين من غضبه أمنا ، ويُعَوِّضُ النادمين الآسفين على ما كان منهم بمحْوِ السيئات وغفرانِ الذنوب وقبول التوبة ، ورفعِ الدرجاتِ ولنتدبر ما يقوله الربُّ عز وجل فى الحديث القدسى :

« يا عبدى ، لم تقْنَطْ ؟

ثم يقول : عبدى إنِ استَقَلْتنا أقلناك ، وإن تُبْتَ إلينا قَبِلناك ، وإن عزمتَ على قصدِنا أَدْنَيناك ، وإن اضطربَ دليلُك أريناك »

ثم يقول سبحانه وتعالى :

وإن بكيتَ خشيةً أحضرناك ، وإن بكَيتَ خوفًا أمَّناكَ ، وإن بكيتَ أَسَفًا على ما فاتَك من حُقوقنا عَوَّضنَاك » .

فالمؤمنُ حقًّا هو الذى يخاف ربَّه ويرجو رحمته وعفوه ، فالخوفُ من الله هو اللجام القامعُ عن المعاصى وسببُه معرفةُ شدَّةِ عذابِ الله ، ويُسَمَّى خشية ورهبةً وتَقْوى، فالمؤمنُ يخاف من ذُنوبه ويخْشَى الخاتِمةَ وتُرْهِبُه سَوابِقُه . . . والخوفُ يَبعث العبدَ على الانكسارِ والتواضع

والعفافِ واتقاءِ الشُّبهات والبكاء أو التباكى ... أما الرجاءُ فسببُه معرفةُ سعةِ رحمةِ الله ، ويُسَمَّى طمَعًا ورغبةً ، وينبغى أن يكون الخوف والرجاءُ معتدلين فإن الخوفَ إذا أفرط قد يَجُرُّ صاحبَه إلى اليأس من رحمةِ الله وهو حرام ، وإذا أفرط المرءُ فى الرجاء قد يجرُّه ذلك إلى الأَمن والغرورِ وهو حرامٌ ، وإن كان جانبُ الخوفِ ينبغى أن يَغْلِب على المرءِ فى شبابِه وأيام قوتِه ونشاطِه .

وفى الحديث القدسى : « ما أقلَّ حياءَ مَن يَطْمَعُ فى جنَّتى بغير عملٍ ، كيف أجودُ برحمتى على مَن بَخِلَ بطاعتى » .

وفى الحديث : « لو يعلمُ المؤمنُ ما عندَ اللهِ من العقوبة ما طمِعَ بجَنَّتِه أحدٌ ، ولو يعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرحمةِ لما قَنِط من جنَّته أحد » .

فالعارفون بالله تسكنُ نفوسُهم وتطمئنُ قلوبُهم عندما يُذكر عفوُ الله ورحمتهُ وحلمُه ومغفرتُه قال تعالى :

﴿ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ . ﴾(١) فالقلوبُ المؤمنةُ تَسْكُن وتطمئنُّ من حيث اليقين بالله ، وحسن الظن به ، والثقة بوعده للصالحين والعاملين ﴿ إِنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ وإن كان هؤلاء العارفون فى الوقت نفسه يخافون الله ، يخافون سطوتَه وعقوبتَه وكُلما ازدادت معرفتُهم كلما قوى خوفُهم . . . وهؤلاء كما وصفهم اللهُ عز وجل هم المؤمنون حقًّا وذلك لقوة إيمانِهم ، ومراعاتِهم لربِّهم ، وخوفِهم منه كأنهم بين يديه .

يقول الحقُّ تبارك وتعالى :

---

(١) الرعد : ٢٨ .

﴿ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِين * الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهُمْ ﴾ (١) .

وقال عز وجل ﴿ إنَّما المُؤْمنون الَّذِينَ إذا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قلوبُهم ، وَإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آياتُه زادتْهُم إيمانًا وعلَىٰ رَبِّهم يتوكَّلُون * الَّذِين يُقِيمُون الصَّلاةَ وَمِمَّا رزَقْنَاهُم يُنْفِقُونَ *أولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ﴾(٢) .

وهذان المعنيان وهما : طمأنينةُ القلبِ ثقةً بما عند الله من الرحمة والعفوِ والتجاوُز ، والفزعُ من عذابِ الله عندما يُذكر غضبُه وسخطُه وانتقامُه من العصاة سبحانه وتعالى هذان المعنيان نلمحهما فى قوله تعالى :

﴿ اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثانِىَ تَقْشَعِرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يخْشَونَ ربهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُم وَقُلُوبُهمْ إلى ذِكْرِ اللهِ ذَلِكَ هُدَىٰ اللهِ يَهْدِى بِهِ مَن يشَاءُ وَمَن يُضلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هَاد ﴾(٣) .

أى تَقْشَعِرُ وتَضْطرب وتتحرك بالخوفِ لما فى القرآن من الوعيدِ والتخويفِ ، وتلينُ وتسكنُ عنه آياتِ الرحمة .

روى العباس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « إذا اقشعرَّ جلدُ المؤمنِ من مخافةِ اللهِ تحاتتْ عنه خطاياه كما يتحاتُّ عن الشجرةِ الباليةِ ورقُها » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « ما اقشعرَّ جلدُ عبدٍ من خشيةِ الله إلا حرّمَه اللهُ على النار » .

وقد وعد اللهُ فى كتابه العزيزِ أهلَ الخشيةِ والخوفِ والمراقبة بالمغفرةِ والنعيم الدائم والرحمةِ الشاملة ولنسمعْ اللهَ عز وجل يقول :

﴿ إن الَّذِين يَخْشَوْنَ ربَّهم بالغيبِ لَهُم مَغْفِرةٌ وأجرٌ كبيرٌ ﴾(٤) .

(١) الحج : ٣٤ و ٣٥ .
(٢) الأنفال : ٢ — ٤ .
(٣) الزمر : ٢٣ .
(٤) الملك : ١٢ .

ويقول : ﴿ ولِمَنْ خاف مَقَامَ ربِّه جَنَّتان ﴾(١) .

ويقول: ﴿ وأَمَّا مَنْ خَافَ مَقامَ ربِّه وَنَهى النفسَ عن الهَوىٰ * فإنَّ الجنَّةَ هِيَ المأْوَىٰ ﴾(٢) .

ولقد كان فى قلب رسول الله ﷺ رقةٌ عظيمة ، فكان أخشى الناسِ لله وأخوفَهم من نقمته ، وكذلك كان أصحابُه رضوان الله عليهم .

قال أبو هريرة رضى الله عنه لما نزل قوله تعالى :

﴿ أفَمِنْ هَذَا الحَدِيثِ تَعْجَبُونَ * وتضْحَكون ولا تَبْكُون ﴾ (٣) :

قال أهل الصُّفة : ﴿ إنا للهِ وإنا إليه راجعون ﴾ ثم بكَوا حتى جرت دموعُهم على خُدودهم فلما سمع النبي ﷺ بكاءهم بكى معهم ، فبكينا لبكائه ، فقال ﷺ : « لا يَلِجُ النارَ مَنْ بكىٰ من خشيةِ الله ، ولا يدخلُ الجنةَ مُصِرٌّ علىٰ معصية اللهِ ، ولو لمْ تُذنِبوا لذهبَ اللهُ بكم ، ولجاء بقوم يُذنبون فيغفرُ لهم ويرحمُهم إنه هو الغفورُ الرحيم » .

والجنةُ غالية ، والغالى جديرٌ بالتعب والتضحية ، فمن خاف أن يُحرمَ نعيمَها بحلول سخط اللهِ عليه فعليه أن يفزعَ إلى اللهِ والناسُ نائمون ، وأن يبكيَ أو يَتباكى فى ذُلٍّ بين يديه ، والمحرومون غافلون ، يروى أبو هريرةَ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

« مَنْ خَافَ أَدْلجَ ، ومَنَ أدلج بلغَ المنزِلَ ، ألا إنَّ سِلْعَةَ اللهِ غاليةٌ ، ألا إن سلعةَ اللهِ الجنَّةُ » .

وكان الحبيب المصطفى ﷺ أشدَّ الناس خوفًا من نزول نقمة الله على العباد ، وتَروى عائشة تقول :

---

(١) الرحمن : ٤٦ . (٢) النازعات : ٤٠ ، ٤١ .

(٣) النجم : ٥٩و ٦٠ .

« وكانَ إذا رأى غَيْمًا عُرف فى وجهِه فقلتُ : يا رسولَ اللهِ ، الناسُ إذا رأوْا الغَيْمَ فرِحُوا رجاءَ أن يكونَ منه المطرُ ، وأراكَ إذا رأيتَ غَيْمًا عُرف فى وجهك الكراهة فقال : يا عائشةُ ما يؤمِّنُنى أن يكونَ فيه عذابٌ ، قد عُذِّب قومٌ بالريح ، وقد رأى قومٌ العذابَ ، فقالوا : هذا عارضٌ مُمْطِرنا »

وكان داود عليه السلام يُعاتَب فى كثرة البكاءِ ، فيقول : دَعُونى أبكى قبل خروج يوم البُكا ، قبل تحْرِيقِ العِظام ، واشتعالِ الحَشَا ، وقبل أن يُؤمَرَ بى ملائكةٌ غِلاظٌ شِدادٌ لا يَعصون اللهَ ما أمرهم ويفْعلون ما يؤمرون .

دخل عثمان على ابن مسعود يعودُه فى مرضه الذى مات فيه فقال : ما تَشتكى ؟ قال : ذُنوبى ، قال : فما تَشتهى ؟ قال : رحمةَ ربِّى .

وعن زيد بن أرقم قال : قال رجل يا رسولَ اللهِ ، بِمَ أتَّقى النارَ ؟ قال : « بدموعِ عينيك فإن عينًا بكتْ من خَشيةِ اللهِ لا تمسُّها النارُ أبداً ».

فاتَّقُوا اللهَ — عبادَ الله — واخشَوه فى السرِّ والعَلَن وتوبوا إليه توبة نصوحًا فالتائبُ من الذنب كمن لا ذنب له .

عظة : للخطبة الثانية :

روى مسلم عن أنس بن مالك أنَّ الناسَ سألوا النبيَّ ﷺ حتى أَحْفَوه فى المسألةِ فخرج ذاتَ يومٍ فَصَعدَ المنبرَ فقال : « سَلُونى ، لا تسألونى عن شىء إلا بينتُه لكم ما دمتُ فى مقامى هذا » .

فلما سمع الناسُ ذلك أَرَمُّوا – سكتُوا – ورهبُوا أن يكون بين يَدَىْ أمر قد حضر ، قال أنس : « فجعلتُ ألتفتُ يمينًا وشمالًا فإذا كل إنسان لافٌّ رأسَه فى ثوبِه يبكى » .

وسأل رجل الحسن فقال : يا أبا سعيد ، أمؤمنٌ أنت ؟ فقال له : الإيمان إيمانان فإن كنتَ تسألنى عن الإيمان بالله وملائكته وكتبِه ورسلِه والجنةِ والنارِ والبعثِ والحسابِ فأنا به مؤمن ، وإن كنتَ تسألنى عن قول الله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّما الْمُؤْمِنُون الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلوبُهُمْ – إلى قوله – أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُون حَقًّا ﴾(١) فَوَاللهِ مَا أَدْرى أنَا منهم أَمْ لا ؟ .

وقال معاذ بنُ جبل : إن المؤمنَ لا يسكنُ روعُه حتى يتركَ جِسْرَ جهنَّمَ وراءَه . .

عن عائشة رضى الله عنها : أن رسول الله ﷺ قال : « تُحشرون حفاةً عراة غُرْلًا قالت عائشة : فقلتُ : يا رسولَ الله ، الرجالُ والنساءُ ينظر بعضُهم إلى بعض ؟ فقال : الأَمرُ أشدُّ من أن يُهِمَّهم ذاك .

وفى رواية قال ﷺ : « لكلِّ أمرىء منهم يومئذٍ شأْنٌ يُغنيه ، لا ينظرُ الرجالُ إلى النساء ولا النساء إلى الرجال » .

---

(١) الأنفال : ٢ – ٤ .

كشاف الكتاب

القسم الثالث

النص	الصفحة

القسم الرابع

النص	الصفحة
القسم السابع	